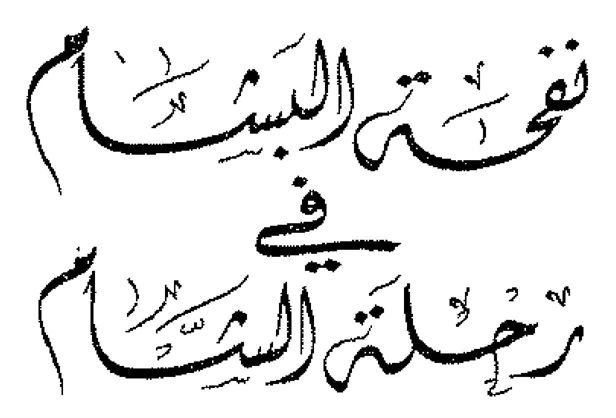
سلسلة التواريخ والرحلات

٢



رحلة في بلاد سورية وفلسطين ولبنان قبل حوالي مئة عام تشتمل
على وصف لعاداتها وتقاليدها وتراجم لاشهر العلماء والاعيان
في بيروت ودمشق وطرابلس الشام والقدس الشريف

تأليف
الشيخ محمد عبد الجواد القاياتي

دار الرائد العربي
بيروت • لبنان
ص.ب. : ٦٥٨٥

نفحة البشام
في
رحلة الشام

١٤٠١ هـ = ١٩٨١ م

مقدمة

الحمد لله حق حمده ، والشكر له على رفده ، والصلاة والسلام على نبيه وعبده ، محمد الهادي إلى سبيل رشده ، وعلى آله وعترته من بعده ، وصحبه وحزبه وجنده .

أما بعد : فإنه لما أراد من لا رادّ لقضائه ، ولا معقّب لأمره وإمضائه ، لهذا العبد الفقير ، والعاجز الحقير ، محمد بن عبد الجواد القاياتي المصري ، وأخيه الشيخ أحمد بالهجرة إلى الديار الشامية ، والأقطار المباركة القدسية ، عقيب الحوادث المصرية ، والمسألة الشهيرة العرابية ، أردت أن أذكر بعض ما اشتملت عليه هذه الرحلة بالجملة ، وما احتوت عليه هذه المحنة من المنحة ، فشرعت فيما أردت متوسلاً بجاه الرسول ، في بلوغ المأمول والمسؤول ، وعلى الله القبول والتوفيق فيما أقول .

اعلم أن مبدأ هذه المسألة التي أُخرجنا من ديارنا بسببها ونصبها ، هو قيام جماعة من العسكرية المصرية ، يرأسهم سعادة أحمد باشا عرابي المصري ، يطلبون من حكومتهم المصرية أن تسنّ لهم في قانون نظاماً عادلاً للعساكر الوطنية ، يمشون على مقتضاه ، ويجرون أحكام تأديباتهم وترقياتهم على مجراه ، حتى لا تغتالهم من بعد غوائل الاستبداد المتسلط المتسلطن على هاتيك البلاد ، ولا يرموا بسهام الأغراض عن قسي الحوادث والأعراض . فصدتهم الحكومة

المحلية عن ذلك ، وصادرتهم في سلوك هذه المسالك . وما زالوا يتنقلون في حركاتهم ، ويتدرجون في مدارج طلباتهم ، لأجل أن يدركوا مأربهم ، وينالوا مطلبهم ، إلى أن بلغت المسألة ما بلغت من التداخل بكثرة التحريك من الخارج والداخل . وتصدت الأمة الانكليزية لمحاربة العسكر المصرية ، وهي الزاعمة بأنها زعيمة الحرية في سائر الكرة الأرضية . فبعد أن مكروا مكرهم وأجمعوا أمرهم ، جاءوا بأباطيلهم وأساطيلهم فدمروا مدينة الاسكندرية وخربوها ، وهي كروضة سندسية قبل محاربة عساكرها وجيوشها ، فأصبحت خاوية على عروشها ، خالية من أثاثها ومفروشها ، وزينة مبانيها ونقوشها . فانظر كيف فعلوا زاعمين أن قصارى نيتهم وغاية بغيتهم الإصلاح والتعمير لا الإفساد والتدمير . ومع ذلك تعدوا حدودهم ، وأخلفوا وعودهم ، وخالفوا عهودهم ، وبذلوا مجهودهم ، لينالوا مقصودهم . فما هكذا يفعل من يروم الصلاح والإصلاح ، والراحة والارتياح ، وينادي بين الأمم بحي على الفلاح ، وهلموا إلى الفوز والنجاح ، فكأنما يدّعي انه خليفة الرب على عباده ، أو وصي ادم على أولاده . ثم بعد أن نفذ أمرهم ، وحاق بالأمة المصرية مكرهم ، وأتموا حيلتهم ، وفعلوا فعلتهم ، تداولوا مع الدول في مطالبة أهالي البلاد بغرامة ما صنعوا فيها من الفساد وأقرضوهم تسعة ملايين ، ولكن الله لا يصلح عمل المفسدين .

مطلب سبب الخروج من مصر

وسبب خروجنا من مصر هو أن أهالي البلاد عند ما صارت الأحكام فيها عسكرية ، وانتشبت الحرب بين الانكليز ، وأهل الوطن العزيز ، اجتهدوا غاية الاجتهاد ، في سبيل المدافعة والجهاد ، بأخذالأهبة والاستعداد ، وأعدوا لهم ما استطاعوا من قوة ومن رباط الخيل الجياد ، وبذلوا ما يملكون من نفائس النقوس ، وما يقدرون عليه من مأكول وملبوس ، ومهمات عسكرية وتجهيزات حربية ، وغير ذلك مما تصل إليه يد الاستطاعة ، ولو ببسط أكف الابتهال والضراعة ، كل منهم على حسب حاله ، وما يليق بأمثاله. حتى أن أهل العلم والطريق ، وما أشبه هذا الفريق ، كانوا يساعدون بالدعوات الصالحات والاستغاثات والتضرعات ، إلى حضرة رب البرية ، في دفع هذه البلية . وكانت السادة العلماء الأعلام ، ولا سيما أستاذنا شيخ الإسلام ، يقرأون كتاب البخاري الشريف ، في الجامع الأزهر الأنور المنيف والأفاضل منهم الكملة ، يحثون على اتحاد الكلمة في مقاومة هذا البلاء والأصر ، النازلين على بلاد مصر . وليس هذا الأمر بالعجيب منهم ، ولا بالغريب صدوره عنهم ، فذلك شأن كل أمة قصدتها بالحرب أمة أخرى ، فهي ترى أن الدفاع أولى وأحرى ، بل ربما تراه من الواجب على الأعيان ، ولاسيما إذا تخالفت الأديان ، واختلف اللسان ، وتباينت العقائد ، وافترقت العوائد . فبهذه النسبة العلمية والمناسبة العملية ، التمس منا أهل بلادنا القيام معهم لنكون لهم قدوة ، وتكون لهم بنا أسوة ، في مساعدة إخوانهم الجهادية ، بالمراكز العسكرية والنقط الحربية

والحدود الدفاعية . وذلك من اتقاد غيرتهم الدينية وحميتهم الوطنية . فتوجهنا معهم إلى تلك المواطن، والله أعلم بالظواهر والباطن ، فلم نلبث إلا قليلاً من الأيام، وقد فشلت الأقوام ، وحصل الانهزام، بواسطة الخيانة من بعض اللئام ، وبث أنواع الدسائس، ودس الوساوس، في قبائل العربان، وعشائر البلدان ، وغالب الأمراء والأعيان، لسابق الأمر المحتم والقضاء المبرم، وقضت علينا حكمته الباهرة، بدخول الجيوش الانكليزية القاهرة ، وفي مقدمتهم نائب الحضرة الخديوية ، وهو رئيس النواب في البلاد المصرية . فأول ما بدأ به من الأعمال في هذه الحال ، الترخيص لهم في الحلول بالقلعة العلية والقشلاقات العسكرية مثل قصر النيل والعباسية . والأمر بالقبض على من نسب إلى هذه الحركة كائناً من يكون، ولو كان المعهود من عادته السكوت والسكون ، إنا لله وإنا إليه راجعون ، ما قدره الله لا بد أن يكون ، فكنا في ضمن من وقع الحجر والحجز عليهم، بعد صدور الأوامر العالية فيهم ، فصار سجننا بسجن مديرية المنيا من مديريات الصعيد مع جم غفير وعدد كثير من الوجوه والأعيان ومشايخ العرب والبلدان لاتهامات يطول شرحها بغير طائل ، والغالب فيها الوشاية بالباطل .

فمن هؤلاء الناس من نسب إلى التطوع ، ومنهم من نسب إلى التبرع ، ومنهم من اتهم بالتهييج للمخاطر، وتحريك الساكن من الخواطر ، ومنهم من ادعي عليه بالتشيع للجهادية ، وكثرة قراءة الجرائد المحلية ، وغير ذلك من الأسباب الخصوصية والبواعث العدوانية ، لدواعي العداوات الشخصية ، بدون مراعاة المصالح العمومية . فكم قبض على بريء وأطلق سبيل مجترىء بمجرد الوشاية فيه من بعض أعاديه . هكذا حصل في غالب المديريات سوى من قبض عليهم في القاهرة والاسكندرية ودمياط ورشيد من الذوات والبكوات والباشاوات والعلماء والأمراء وأولاد الفقراء ، ومكثوا في أقبح السجون، بغاية الأحزان والشجون ، يكابدون عذاب الهون ، بأنواع لا تحصى ولا تحصر ، من العذاب

الأدنى دون العذاب الأكبر . واما أكبر المعذبين ،فأهل الفضل والدين ، فقد وقع لهم من الحقارة والتنكيل ،والاستهانة والتخجيل ،والكرب والخطب الجليل ، ما لم تسمح به لهم أهل التوراة والإنجيل . فحسبنا الله ونعم الوكيل .

يطاف بهم في الأسواق والشوارع والمحافل ،إذ الأغلال في أعناقهم والسلاسل . وبعد أن مضت لهم على هذه الحالة أربعة من الشهور ، كأنها أعوام ودهور ، ومثلوا بغاية المثلة ،على حال لم يروا مثله ،بين يدي الكتبة أقباط النصارى ،وهم في أمرهم تائهون حيارى ، وأشخصوا أمامهم لأجل الاستنطاق ، بما لا يطاق ، ولا تضبطه الأوراق ،ولا يدخل حصره في نطاق ، صدرت فيهم الإرادة النفسية على غير ما يراد ،بإجلائهم وخروجهم من البلاد ، وإبعادهم عنها أي إبعاد . فمنهم من نفي مؤبداً إلى سيلان ، ومنهم من نفي بمدة إلى السودان . ومنهم إلى خارج القطر وملحقاته ،بدون تعيين مواطنه وجهاته ، وكنا من هذا القسم الأخير ،نحن وجم غفير ،فبودرنا بالإخراج من غير مهلة ولا تأخير . فالحكم لله العلي الكبير ،نعم المولى ونعم النصير . فلقد كان هذا النفي بحسب الإيجاب ، لا بموجب قوانين عادلة ولا أسباب ، إن هذا لمن عجيب العجاب ،عند أهل العقول والألباب . وقلت شعراً في المعنى :

هذا زمان غرائب	وعجائب لا تنقضي
النفي في إيجـــابـــه	والمنع منه بمقتضي
لا يرتضى من حكمه	إلاّ بما لا أرتضي
ولكم يطاردني وسيـ	ـف البغي منه ينتضي

وفيه نكتة تاريخية وهي أن جمل (غرائب عجائب) موافق لسنة حادثة النفي المذكور .

نادرة من نوادر الدهر ، وبادرة من بوادر العصر ، هي أنه كان من جملة من قبض عليهم في هذه المسألة حضرة العالم العامل والإمام الهمام الكامل ،

المحدث الفقيه الأصولي النحوي المتفنن المتقن ، صاحب التآليف المفيدة والتصانيف العديدة ، من طار صيته في الآفاق وانعقد على فضله الاتفاق ، الأستاذ الشيخ محمد عبد الله عليش المغربي الأصل المصري المولد . شيخ السادة المالكية بالجامع الأزهر والمعبد الأنور ، أخذ مريضاً من داره محمولاً لا حراك به ، وأودع في سجن المستشفى بل سجن التشفي إلى أن توفي وانتقل إلى رحمة الله ودار النعيم في مقعد صدق عند مليك كريم . ولما نعي موته إلى أهل بيته وأقربائه وأحبابه وأصدقائه ، أرادوا أن تجهز جنازته من داره ، فلم تسمح لهم الحكومة في رجوعه إلى البيت نكالاً له كما زعمت وهو ميت . ولم تكتف بموت هذا الإمام في المستشفى حتى أبعدت أكبر أولاده معنا في ذلك المنفى . فهذا جزاء جريمة من يحامي عن وطنه ودينه لقوة إيمانه وصدق يقينه .

ثم بعد أن صدرت هذه الأحكام ، وأشعرنا بها هؤلاء الحكام، ورضينا بها ظاهراً عوضاً عن الإعدام الذي لم يزل بهذه المدة يخطر بالخواطر والأوهام ، نقلنا إلى مصر بسجن الضابطية وأقمنا به نحو العشرة أيام . وفي أثناء هذه المدة عرضنا لنظارة الداخلية مراراً بطلب الترخيص لنا بالتوجه إلى الأقطار الحجازية لمجرد قصد النسك والعبادات الدينية ، وليس لنا غرض في ذلك سوى المناسك والله أعلم بما هنالك ، واستعملنا في هذا الطلب الإلحاح واللجاجة لتكون الغيبة كما تقول العامة حجة وحاجة . فلم ينجح هذا الأرب ولم يسمح بهذا الطلب ، وأحرمنا من سكنى الحرم ومجاورة سيد الأمم وأشرف العرب والعجم ولو أنا أدركنا هذا المقصد بتلك الوسيلة لفزنا بغاية النعم ، وانتهزنا أحسن فرصة وخفت عنا هذه الغصة . ولكن المقادير لم تساعد في هذا الزمن المعاند . وانتقلنا بعد ذلك من مصر إلى الاسكندرية بسجن الضابطية أيضاً ، ولقد رأينا به من الأحوال والأهوال ما لا يخطر بخاطر ولا بال ، وأقمنا به نحو أسبوع وسافرنا إلى الشام في الوابور بالبحر الأبيض فشاهدنا فيه الموت الأحمر في كل يوم أسود كالقار ، لأن السفر كان في زمن الشتاء

وهبوب الرياح وهيجان البحار، ان في ذلك لعبرة لأولي الأبصار. هكذا يكون زمان الامتحان وأوان الافتتان. اللهم إنا نعوذ بك من الفتن ما ظهر منها وما بطن. وكان نزولنا من ثغر الاسكندرية إلى البحر عصر يوم الجمعة الحادي عشر من شهر ربيع الأول الذي هو من شهور ألف وثلاثمائة، وأما الحرب والهزيمة فكانا في سنة ألف ومائتين وتسع وتسعين من هجرة سيد المرسلين، وبتنا به ليلة المولد النبوي الشريف وأقمنا به يوم السبت ويوم الأحد وسافرنا ليلة الاثنين فوصلنا صبيحته بورت سعيد، فأقمنا به طول النهار ثم أقام بنا الوابور ليلاً وسار. فدخلنا صباح يوم الثلاثاء إلى مرسى يافا وهي في غاية من المخافة، فلبثنا بها إلى ظهر ذلك اليوم وسافرنا إلى حيفا فوصلناها غروب الشمس وسرنا ليلاً إلى بيروت.

الكلام عن بيروت

وبعض علمائها وعائلاتها

فدخلنا صباح الأربعاء وبعد أن خرجنا من البحر نزلنا في خان من خاناتها بجوار الأسكلة مشهور بخان السيد ، فما لبثنا به إلاّ يسيراً وقد وجدنا منزلاً للسكنى من منازل آل القباني وهي عائلة مشهورة من مشاهير عيال تلك المدينة المعمورة ، ولقد كان لنا في عهد المجاورة بالجامع الأزهر صحبة وأخوة بأحد هؤلاء العائلة أهل الفتوة ، وهو حضرة الأخ الأمجد المحب الأوحد جناب الشيخ أحمد أفندي القباني من أفاضل العلماء وأماثل الأدباء . فبمجرد أن سمع بقدومنا بادر على الفور بمقابلتنا وأسرع في زيارتنا بالخان المذكور ، ودعانا للنزول في منزله المعمور ، فأجبناه بلبيك لا تثريب عليك قد أخذنا من أحد أقربائكم منزلاً لكم وبحذائكم . فقال على الرحب والسعة ، والعيش الهني والدعة ، وحيّهل إلى المحل. فنهضنا بغاية السرعة معه وركبنا في عربة مسرعة إلى أن دخلنا على بركة الله ذلك البيت ، وكل منا لشدة الأهوال براً وبحراً حي كميت ، كالخارج من القبور يوم البعث والنشور إذا نفخ في الصور ، إلاّ أن الله سبحانه وتعالى قد منّ علينا بعد ذلك من كرمه وفضل جوده ونعمه ، باتساع الدور وانشراح الصدور ولطف بنا في هذا القدر المقدور وآمننا في هذا الأمر المخوف المحذور ألا إلى الله تصير الأمور . وما زلنا في هذا المنزل بحيّ من الأحياء المشهورة يقال له حي الباشورة ، بجوار دور السادات آل حماده من أكابر أهل المجد والسيادة ، أولاد المرحوم السيد فتيحة ، الاسكندري

الأصل والمولد ، البيروتي الإقامة ، خدم الدولة العلية وتقلد في خدمتها وظائف سنية ، حتى نال حظاً من القبول وافراً ونفوذاً باهراً . وظهر في مظهره بعد وفاته ولده المرحوم الحاج سعد أفندي حماده فكان طالع سعده ميموناً بين الجماعة ، ذا كلمة مسموعة وأوامر مطاعة . وبعد أن توفي أيضاً رحمه الله برحمته العميمة قام بشعائر تلك العائلة الكريمة ، جناب صاحب العزة والتمكين حضرة أخيه السيد محيي الدين ، الموجود الآن بأكمل الصفات والنعوت مقلداً برئاسة بلدية بيروت . وله الذكر الجميل والقدر الجليل ، حفظه الله وجميع أنجاله من حوادث الدهر الخؤون ، ولطف بهم في جميع الأحوال والشؤون .
ولقد تعرفنا بهذه العائلة وتعرفوا بنا بواسطة أعز إخواننا وأصدقائنا حضرة الشيخ أحمد أفندي القباني ، بلغه الله جميع الأماني . فصرنا نزورهم ويزورروننا ويخصوننا بمزيد الملاطفة والمؤانسة في المجالسة والمجانسة . حتى خفّ عنا بوجودهم ما كنا نجده من ألم الغربة ، وما يناله الغريب من الوحشة فيها والكربة . فجزاهم الله عنا وعن جميع إخواننا المصريين كل خير ، ودفع عنا وعنهم كل ضير . وكان ممن يرعى الجوار ويكرم الجار ولو جار ، ويرعى حرمة النزيل صاحب الرأي النبيل والقدر الجليل ، عزتلو قباني زاده السيد عبد القادر أفندي ، مدير جريدة ثمرات الفنون ، الزهية الزاهرة البهية الباهرة ، فكان ، حفظه الله وأنجاله وأدام إجلاله ، لقرب دارنا من داره يكرمنا بازدياره ، ويتحفنا بلطائف أخباره ، وظرائف أسماره ، وبدائع أفكاره .
ولكم صنع معنا من أنواع التلطف والوداد ، ما تطيب به النفس وينشرح به الفؤاد . بلغه الله من إسعافه وإسعاده غاية مرامه ومراده . وكذلك جناب أخيه الأكرم الوجيه الأفخم ، عزتلو السيد سعد الدين أحد الرجال المستعدين المعدودين ، وله خدمات للدولة والوطن مهمة وتوظف في جملة مأموريات جمة ، لطيف المحاورة ظريف المسامرة ، وهو والد حضرة صاحبنا الأزهري الشيخ أحمد أفندي القباني زاده المتقدم ذكره الذي كان عضواً من أعضاء شعبة المعارف في بيروت بعد إلغاء جمعية المقاصد الخيرية التي أنشأها عمه السيد

عبد القادر القباني صاحب امتياز جريدة الثمرات . وسنذكر إن شاء الله تعالى طرفاً في التكلم على هيئة المجالس والمحاكم والإدارات في الولايات السورية في فرصة أخرى ، لما أن كيفية الإدارات فيها أولى بكثير من الإدارات المصرية وأخرى .

ولنرجع لما نحن بصدده وفي سياق عدده ، من ذكر من تعرفنا بهم من وجوه هذه المدينة وأمرائها وعلمائها وأدبائها وتجارها وأهل اعتبارها . فنقول ان من عيالها الكبيرة الشهيرة بيت السادات بيهم ، فإن لهم تجارات عظيمة ، وثروة جسيمة ، وقصوراً مشيدة ، وبيوتاً عديدة ، وأملاكاً وعقارات ، وحوانيت وخانات . والموجود منهم إلى هذا العهد حضرة الحاج عبد الله بيهم يعيش من العمر فوق الثمانين وهو ثابت العقل والدين ، وله ذرية مباركة من أولاد وأحفاد . فمن أحفاده حضرة الذكي الأديب والألمعي الأريب ، عزتلو حسن أفندي بيهم ، الشاعر الناثر الفصيح الماهر ، المتكلم ببعض اللغات الأجنبية ذو النباهة والفطانة الفطرية . كان أول مبادر من عائلتهم بالتسليم علينا والتردد والتودد إلينا ، بغاية الأنس وطيب النفس . ومن إنشائه قوله مفرداً :

ليس السياسة إلا الكذب مختلقاً ولا التمدن إلا قلة الدين

ومن هذه العائلة أيضاً صاحب السعادة والسيادة الحاج محيي الدين أفندي بيهم تولى قديماً رئاسة البلدية ، وهو الآن مشتغل بأمر تجارته رافل في حلل يساره وثروته ، مع خشوع واستكانة وعلو قدر ومكانة . وله بعض إحسانات لذوي الفقر والحاجات . ولقد نبغ فيهم من مدة وجيزة وبلغ فيما بينهم مرتبة عزيزة ، المرحوم الحاج حسين أفندي بيهم فإنه كان في الذكاء غاية وفي الفطنة آية ، له معرفة بالأدب وكلام العرب . ينظم الأشعار الرائقة والمعاني الفائقة . ذو خبرة تامة بالسياسة ونفوذ تام بما ناله من الرئاسة . إلا أن المنية اختطفته في عنفوان شبابه ولم ترع حرمة احترامه وآدابه . فعزى الله أهل بيته في هذا المصاب بما رزقه من أنجاله الأنجاب .

من العائلات القديمة

ومن العائلات القديمة والبيوت الكريمة ، عائلة رمضان ذات المجد والشان موجود منهم إلى الآن حضرة السيد عبد الغني أفندي رمضان، وهو كبير هذه العائلة المشتهرة وله من الأولاد النبهاء نحو العشرة . وغالبهم مستخدم في الإدارات الملكية وهو أيضاً عضو من أعضاء الجزا (مجلس البلدية) . وحضرة السيد عمر بن أمين آغا رمضان الذي كان والده من قديم الزمان، موظفاً بوظائف علية حتى في أيام دخول الحكومة المصرية في البلاد السورية . وأما هو الآن فقد صار عضواً من أعضاء مجلس الإدارة بدلاً من المرحوم عمر أفندي الغزاوي بعد أن توفي (عليه رحمة الله) وكان هو أيضاً من كبار أهل البلد غنى وثروة وله شركة كبيرة مع جناب سعد الله بك حلابو (الذي كان بالاسكندرية) وهو شامي الأصل بلغ من الشهرة في التجارة مبلغاً وافراً حتى صار له مع شريكه المذكور وابوران يستخدمانهما في تجارتهما في البحر الأبيض والأحمر ، أحدهما قاصد كريم والآخر راجي كريم فسبحان المولى الكريم الحليم . (ومن أهل الشهرة) في هذه المدينة السيد محمد إياس الدمشقي الأصل، نال من الثراء والغناء ما لا يدخل تحت نطاق الإحصاء والله يؤتي ملكه من يشاء، بيده الخير وهو على كل شيء قدير . (ومنها) المكرم الحاج حسن أفندي الغندور له في التجارة حظ موفور. (ومن البيوت الكبيرة) والعيال الشهيرة ، صاحب المقام الكبير والقدر العالي الخطير السادة آل البربير ، وكان من أكبرهم سناً ومقاماً وأعظمهم عزاً واحتراماً ، السيد محمد أبو إبراهيم

توفي هذا العام بعد أن بلغ من العمر نحو الثمانين،وهو صحيح العقل وافر المعرفة والفضل . وكل هذه العائلة من أهل المعارف الوفيرة والمزايا الكاملة الكثيرة ، فمنهم التجار الكبار والعلماء الأخيار ، والكتّاب العظام في غالب الأقلام . كالسيد محمد أمين . وأخيه السيد سليم ، وأخيه السيد بشير الذي هو مدير لبوستة الاتحاد العثماني ، والشيخ إبراهيم أفندي وأخيه السيد عمر ، أولاد المرحوم السيد محمد المتقدم الذكر ، من أهل العلوم والآداب والفهوم . وكان لهذه الطائفة منذ جيلين قريب شهير يسمى السيد أحمد البربير عالم فاضل نحرير من كبار العلماء المشاهير ، له مؤلفات جليلة ومصنفات جميلة، في العلوم العربية والفنون الأدبية . اطلعت له على شرح بديع يشهد له بحسن الصنيع ، يسمى بالفتح الجلي على بيتي الموصلي ، وقد طبع هذا الكتاب بالمطبعة الأدبية في بيروت واشتغل الفقير بخدمة تصحيحه مع حضرة الشاب الظريف السيد محمد عمر البربير . ولكن جل الفضل في تصحيحه لحضرة الأستاذ الشيخ الأحدب . وهو كتاب لغة وأدب كله عجب، وقد أهديت إلينا منه نسخة بعد الطبع ظريفة الشكل والوضع . وله الفصيحة العجما في قوله صلى الله عليه وسلم (أحبب حبيبك هوناً ما) ، ومحاكمة بين الماء والهوى ، وغير تلك الأشياء من الكتابة الفائقة والأشعار الرقيقة الرائقة مع لطافة النكتة وظرافة الذائقة . ومما حكاه لي قريبه أبو إبراهيم البربير انه كان ذات يوم عند أحد أعيان شرفاء مكة المكرمة ، وكان في اصبعه خاتم وله فص من الأحجار الثمينة ، فانكسر الحجر وسقط من يده ، فتشاءم الشريف من ذلك . فأنشد الشيخ على البديه من كلامه وبديع نظامه :

لا تخش يا ابن رسول الله من حجر رأى المكارم في كفيك فانفجرا
فإن سعدك سعد لا نظير لـــه فاق السعود وأضحى يفلق الحجرا

ومن القاطنين بها والساكنين فيها من أهل الاعتبار وكبار التجار ، السيد

محمود أفندي ابن السيد رشيد الخوجه ، وأخوه السيد محمد علي الخوجه ، اشتهرا بالكمال الموصوف وصنائع المعروف . ولقد كنا معهما في غاية الالفة وسقوط الكلفة ، وجاورناهما في السكن مدة طويلة من الزمن حتى اطمأن قلبنا إليهما وسكن وتسلينا بهما نوعاً عن الأهل والوطن كفانا الله وإياهما شر الفتن ما ظهر منها وما بطن .

مطلب من اجتمعنا بهم

من العلماء والأكابر

وممن اجتمعنا به في تلك المدينة من أكابر العلماء وأفاضل الأدباء، حضرة الأستاذ الكبير والعلاّمة النحرير والعلم الشهير في التحقيق والتحرير الشيخ يوسف أفندي الاسير . أصله من مدينة صيدا ، ثم توجه إلى مصر لطلب العلم بالجامع الأزهر ، فحضر على أئمة أعلام من علماء الاسلام منهم السيد الإمام والولي الهمام، الشيخ حسن القويسني صاحب القدر العلي والمقام السني . واجتهد في الطلب فنال غاية الأرب ، ورجع بعد ذلك إلى البلاد الشامية فأقام مدة بطرابلس لتعليم العلم ، ومدة أخرى بعكة لنيابة القضاء والحكم . ثم استوطن مدينة بيروت وسافر منها إلى الأستانة العلية ، فحظى فيها بالقبول التام والإجلال والإكرام . إلاّ أنه لم يجد بها في ذلك الوقت من يستأنس به من أهل الأدب ولا من يتكلم معه بلسان العرب . فرجع ثانياً عنانه إلى هذا الوطن وسكن قلبه إلى ذلك السكن ، واشتغل فيها بقراءة الدروس وتهذيب النفوس ، حتى انتظم في سلك أهل المحكمة الشرعية وبرع في الكتابة ومعرفة الأحكام المرعية . ولم يزل بها إلى الآن في أكمل إدراك وإتقان وقد ناهز الثمانين ولم يحتج سمعه إلى ترجمان . وله مؤلفات لطيفة وأرجوزات ظريفة . وشعره على هذا النمط يعد من الخيار الوسط . نظم في علم الفرائض منظومة الرائض، وهي عظيمة النفع في بابها ولا سيما لشرحها الكاشف لنقابها عن وجوه مخدراتها لطلابها . وله كتابة في الرد على جوف الفرا وشرحه نار القرى ، أخمد بها اتقاده بذهنه

الوقاد وجعله غرضاً لتصويب سهام الانتقاد . وله شرح أحلى من الضرب على كتاب أطواق الذهب، للعلاّمة جار الله الزمخشري .

ولقد تخرج عليه كثير من أهالي لبنان في فنون الأدب من نحو وصرف وبيان ، وجم غفير وجمع كبير ، من نصارى بيروت ،ولولا ذلك لكان غاية في كمال الأوصاف والنعوت ، فإنهم بعد ذلك جحدوا فضائله ، وأنكروا معارفه ومعروفه ونائله ، وصاروا يتفاخرون بنثرهم المنثور ، وشعرهم المشعور ، وما فيه من الخلل والقصور ، على أصحاب البيوت العامرة والقصور. ولقد بلغني أن الشيخ ناصيف اليازجي ، الذي اشتهر في الأمة العيسوية بالشعر والأدب ومعرفة كلام العرب ، كان يستمد من موارده العذاب،ويستهدي بنجوم فهومه إلى الصواب ، ولا سيما في كتابه المشهور بمجمع البحرين ، وأين هو من مقامات الحريري وأين،وقد خفقت راية رواياتها في الخافقين . وكيف تحاكي وقد حاكها على منوال العرب الشيخ الحريري وطرزها الشيخ الإمام المطريزي . فكل من جاء بعده إنما يغترف من بحره ويقتبس من مشكاة شعره ونثره ، فلن يجارى هذا السابق في ميدان ، قل هل يستوي البحران هذا عذب فرات يتلاطم بالأمواج وهذا ملح أجاج . فإني يستوي البحران،هذا فرات سائغ والغير ملح ويكفيها في الرد على كل مجتري قول إمام اللغة الزمخشري :

أقسم بـــالله وآيـــاته ومشعر الحج وميقاته
إن الحريري حري بان نكتب بـــالتبر مقاماته
معجزة تعجز كل الورى ولو سرَوْا في ضوء مشكاته

وبالجملة فمقامات الناس محفوظة وبعيون الأفكار ملحوظة،وإن خفيت على الجاهل الغبي فهي ظاهرة للعالم الذكي . ولقد صح في مثل هؤلاء الأقوام المثل السائر في مصر بين العوام (يشترون منا ويبيعون علينا) . وما دعانا إلى التطويل في هذا الأمر بغير طائل إلاّ ما اشتهر عنهم من تنقيص أهل الفضائل، والغض من قدرهم والتهاون في أمرهم ، ودعوى أن كتبنا القديمة في الآداب غير كافية وليست لأمراض الجهالات شافية . ونحوا إلى هذا النحو وصرفوا

الإثبات إلى المحو . فلعمر الحق ما هذا إلاّ جهل أو تجاهل أو سهو أو تساهل. فكيف تنكر الشمس طالعة والنجوم ساطعة . فأين منهم في البلاغة كتب صاحب المفتاح ، وصاحب التلخيص والإيضاح ، وعروس الأفراح . والسعد التفتازاني ، والسيد الجرجاني ، والسيد العصام . ألم يروا مطولهم وأطولهم ومختصرهم وشروحهم وحواشيهم ؟ سلهم بالله هل أدركوا معانيهم ، أو فهموا مدلولات مباديهم. لا وحياة أبيك . وكذا سائر كتب القوم التي هي غاية في حسن الصنيع في المعاني والبيان والبديع ، والتاريخ والإنشاء وقرض الشعر والخط المرسوم وغير ذلك من باقي العلوم . فأين ريحان الألباء وخزانة الأدباء ، ونسمات الأسحار ، وزهر الربيع ، ونسيم الصبا ، وعقود الجمان ، والجوهر المكنون ، والكنز المدفون ، والمثل السائر ، والفلك الدائر ، على ما فوق البسيطة من الدفاتر ؟ أين دووراين الشعر وما فيها من النظم والنثر ؟ أذهب كل هذا سدى أم بقي مخلداً مؤبداً . لا والله انه لموجود في خزائن الملوك والأمراء ومكاتب العلماء والأدباء،ولكن سطت عليه أيدي الطبع فاغتالت بعضه وغيرت وضعه ، ومكنت منه من لا يفهم منه معنى ولا يقيم له وزناً ، وهذا سبب إنكاره وعدم استكباره ، حتى أعوزهم فقده أو عدم كفايته إلى اعتنائهم بالتصنيف وعنائهم بالتأليف . وأخذوا منه نقطة من غدير ، وقالوا هذا شيء كبير . فعلام هذا العناء الطويل العريض في جمع لقاطات أهل القريض ، وكلمات السادة العلماء وبعض مفهومات أهل الفضل والذكاء وأكابر القدماء ، من أهل الملة الإسلامية والديانة الحنيفية ؟ أظننتم أنها تخفى علينا وأصولها بين أيدينا . فما هي العلوم العربية التي أهملها المتقدمون هذا والله ما لا يكون . ما تركت الأوائل كلمة لقائل، فأما النحو فكتبه لا تحصى ولا تحصر وكتب البلاغة أشهر من أن تذكر . فهي آلاف مؤلفة موجودة ملء قلوب أهل المعرفة ، فطالع إن شئت ، كشف الظنون في أسماء الكتب والفنون تندفع عنك هذه الوساوس والظنون بما فيه من الدر المصون والزخر المخزون الذي تقر به العيون .

ترجمة الشيخ الأحدب

ومنهم العالم الفاضل والأستاذ الكامل ، حضرة الشيخ إبراهيم أفندي الأحدب ، الذي إذا نظم الشعر أغرب ، وإذا نثر الكلام أعجب ، وإذا مدح ممدوحاً أطرى وأطرب ، وإذا أجاب سؤالاً أجاد وأطنب . ولقد رأيناه بديع البديه قليل الشبيه وإن ظهر عليه بعض تيه فمحاسنه لعمر أبيه تبريه . سريع الحاضرة جميل المحاضرة . ربما نظم القصيدة من الشعر ستين بيتاً في نحو الأربع درج بدون مشقة عليه ولا حرج . وكذلك المقالات الظريفة ينشئها في برهة لطيفة. فمنهله العذب في الشعر والنثر أصفى وأوفى وإن قصر الأدباء فيهما فإبراهيم الذي وفى . أصله، حفظه الله ، من طرابلس الشام وجاء إلى بيروت إبان الشباب ، واشتغل بتحصيل العلوم والآداب ، واجتهد في جمع فرائد الفوائد ، واشتغل بها على حضرة الأستاذ الشيخ عبد الله خالد ، الذي تربى على أكابر الشيوخ من أهل التحقيق والرسوخ في البقعة المباركة الأزهرية ودار العلوم المصرية . وبرع هذا المترجم في كسب العلوم ونيل الفهوم، حتى اشتهر في هذا البلد بشهرة لم يشاركه فيها أحد في معرفة العلوم الأدبية، والفروع الفقهية . إلى أن أفضت النوبة في نيابة المحكمة إليه وصار المعول فيها عليه . وله ديوان كبير مطبوع وغيره مما لم يوجد بعد في مجموع ، من قصائد ، ومقامات ، ومقاطيع ، وموشحات ، وروايات ، وأدوار ومواليا ، تزدري بفرائد الدر المنثور ونظم اللآلي . ولو جمعت منشآته في

البحور كالأعلام، لكانت في مجلدات ضخام، ومجموعات عظام ، ولكنها لم تساعده على جمعها الأيام .

وبالجملة فكم له في النظم الرائق ، والنثر الفائق ، من منظومات منظومة ومنثورات منثورة ، هي من أجود الشعر ، وأملح النثر في هذا العصر . وله مؤلفات أخرى كثيرة الفوائد ، وفيرة الفرايد ، موصولة العوائد ، جمع فيها من الشوارد والأوابد ، كنظم أمثال الميداني بتمامه،وشرحه له الوافي بحل نظامه الكافي ، في بيان معاني كلامه . ولقد اطلعت والحمد لله عليه فرأيته مما يرحل إليه . وله كتاب في الإنشاء ألفه باقتراح ديوان المعارف بمصر في العام الماضي ، وسيره إلى ناظره فما نظر إليه بعين الاعتناء ، وما احتفل به كما يلزم له من الاحتفاء ، فعل الأغبياء لا الأذكياء . ولا أقل من أن يطبع فينفع ، ولكن كيف نصنع فيمن غلب عليهم الطبع والطبّع ، فلم يحسنوا في جانب الله من صنع ، وصاروا لا يميلون بأنفسهم إلا لغير أبناء دينهم وجنسهم ، فأشربوا حبهم وملأوا أعينهم وقلبهم.وما زالوا إليهم بالأشواق،حتى ضيقوا عليهم الآفاق، وحملوهم ما لا يحمل ولا يطاق، وأنزلوهم من عالي مناصبهم وأزالوهم عن مراتبهم . فما هذا التدبير المعكوس ، والرأي المنحوس، الذي لا يرضى به شرفاء النفوس ، ولا أهل الحمية الوطنية ، والغيرة الدينية . وهذه نفثة مصدور، ضاق ذرعاً بتلك الأمور .

ولنرجع لما نحن فيه والله أعلم بظاهر أمرنا وخافيه، فنقول : إن حضرة هذا الأستاذ له مؤلفات أخرى لم أستحضر لها الآن ذكراً.ولم يزل مشتغلاً بالتأليف مشغولاً بالتصنيف والترصيف ، وتعليم العلوم وتفهيم المنطوق والمفهوم ، إما في المدارس الوطنية كالمدرسة السلطانية ، أو في منزله الخاص لبعض تلامذته الخواص . أطال الله عمره وأطاب عمله ، وأناله في كلا الدارين أمله .

ومن العلماء

ومنهم السيد الهمام والشهم المقدام ، الحسيب النسيب العالم الأديب ، سلالة البضعة النبوية وفرع شجرتها الزكية ، الذي نبت أصله في أطيب غراس وبني محتده على أقوى أساس الأستاذ الشيخ عبد الرحمن أفندي النحاس. بيروتي الأصل والفرع والإقامة ، تولى بجامعها الكبير وظيفتي الخطابة والإمامة ، فهو يقرع أبواب الألباب بوعظه ، ويفتح مصراع الأسماع بلفظه . خطيب وأي خطيب ، ووقور في العيون مهيب . وهو أيضاً نقيب السادة الأشراف ، من سلالة آل عبد مناف .

ومن هؤلاء الذين نتكلم عنهم ، ابن أخته وابن أخت القوم منهم ، حضرة الفاضل الكامل الأخلاق ، صديقنا الشيخ عبد الغني أفندي البنداق . وهو (من الجزائر) سكندري المحتد، بيروتي المولد. مشتغل بالعلم وتعليم القرآن وخطه في غاية الجودة والإتقان مشهور بين الأقران مرموق بعين الاستحسان ، ملحوظ ، سبحان من قسم الحظوظ . ولهذا الأخ ، بجوار بيت السيد فتيحة ، دار ظريفة فسيحة ، كثيراً ما كان يدعونا إليها للكرامة والسمر ، وطيب الحديث والسهر . فجزاه الله عن هذا الصنع الجميل ، أحسن الجزاء الجزيل .

ومنهم ، مفتي هذه المدينة ذات الحسن والبها ، ومالك زمام الفتوى بها . حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ عبد الباسط أفندي الفاخوري ، الطرابلسي الأصل صاحب العلم والفضل . حسن الأخلاق والسمت كثير السكوت

والصمت . تفقه على مذهب إمامنا الشافعي ، رضي الله عنه ، وألف فيه رسالة في العبادات مفيدة لذوي الحاجات . سماها كتاب «الكفاية لذوي العناية» . وكان تحصيله في العلم واشتغاله على حضرة الأستاذ الواصل والملاذ الكامل، الشيخ محمد الحوت البيروتي ، حيث كان هذا السيد الماجد ، وحضرة الأستاذ الشيخ عبد الله خالد، هما اللذان حصل بهما النفع التام للخلص والعوام حتى السوقة والعوام . وكانا في هذه المدينة بغاية الوقار والسكينة ، يجددان معالم الدين ويبددان مظالم المعتدين ومفاسد المفسدين . ولقد صارا فيها كفرقدي سماء، أو كبدرين في ليلة ظلماء، والله يهدي من يشاء . ولهذين العالمين العاملين والسيدين الكاملين ، بقية السلف الصالح خلف مبارك ناجح، فمن ذرية الشيخ محمد الحوت الكبير ولداه الأديبان الشيخ محمد والشيخ عبد الرحمن، جعلهما الله من أهل الفضل والعرفان .

ومنهم ، الأديب اللبيب الفطن الأريب ، العالم البارع الذي ليس له في ماضي أمره مضارع ، سباق غايات البلاغات ، ومراعات البراعات . وله القدم المعلى في إحراز المجاز وحسن الاطناب والإيجاز ، ومحرز قصبات السباق في ميادين الطباق ، رفيق الأدب وشقيق الحرب ، صاحب الأشعار الرقيقة والمقالات الرشيقة ، الشيخ قاسم أبو الحسن الكستي البيروتي واحد الأدباء في عصره . وأوحد الشعراء في مصره . رب اليراعة وربيب البراعة ، الذي لا يجارى في مجازه على الحقيقة ولا يشق له غبار في تلك الطريقة . جمع من شعره ديوانين مطبوعين فيهما ما تشتهيه الأنفس وتقر به العين . أولهما يسمى «بمرآة الغريبة» ، لكثرة ما جلى فيه من لآلي مبانيه الرطيبة ، وحلى من أبكار أفكار معانيه العجيبة ، وثانيهما يسمى «ترجمان الأفكار» لأنه ترجم فيه عما في ضميره من بدائع الأسرار . إلا أن الأول منهما لكونه باكورة شعره راعى فيه الناس من صنعة البديع الغلو في شعره، وبادروا بتناوله قبل تداوله ، فهو غذاء الأرواح وراح الارتياح . وأما الثاني فحظينا منه

بالحظ الوافر والروض الزاهر والوجه الناضر والسمير الحاضر . فلله دره من شاعر بنكات البلاغة وبديع الصياغة،وأسرار اللغة من غير مبالغة . ولطالما كان يزورنا ويتردد علينا ويتودد إلينا ، وذلك من كرم أخلاقه وكريم أعراقه . وكان يسمعنا من شعره العذب ما يزري باللؤلؤ الرطب . فمما أنشدنا إياه في مدح آل بيت النبوة أصحاب الكرم والفتوة ، قوله في رمضان سنة ١٣٠٠ :

يا آل بيت الوحي لولا انكم   في الكون لم يظهر عليه جمال
من أين يوجد في الأنام كجدكم   ونظيره في العـــالمين محال

وقوله في سنة ١٣٠١ :

لكم يا بني الزهراء حبي مؤكد   ومبغضكم من لذة العيش يحرم
فأنتم كنوز الكائنات وجدكم   على الله من كل الخلائق أكرم

وقوله في سنة ١٣٠٢ :

يا آل بيت رسول الله ان لكم   جاهاً عظيماً له من جدكم مدد
يحظى بما يرتجيه من يلوذ بكم   وليس يبغي عليه في الورى أحد

وله وقد اقترح عليه أحد أصدقائه نظم هذا المعنى الآتي :

يرى المرء من يهواه أحسن ما يرى   ولو أنـــه من كـــل حسن مجرد
فكيف بحالي والورى شهدوا معي   بأن الذي أهواه في الحسن مفرد

وله بيتان كتبا على كتاب مجلة الأحكام بأرقام الذهب وأهديت لصاحب العزة أحمد بك العابد مفتش العادلية في ولاية سورية سابقاً وهما :

إن المناصب يا ابن العابد افتخرت   بحسن رأيك وارتاحت من النصب
والناس قد كتبوا والحق في يدهم   لك الثناء بأرقام مـــن الذهب

ولقد اقترح علينا أيضاً بعض أصحابنا البيروتيين نظم أبيات في هذه المعنى حتّى يدرجوا في ضمن مجموعة مطبوعة ، وتهدى أيضاً لجناب البك المومى إليه بعد توجهه إلى الأستانة العلية . فقلت :

وجوه بيروت قد أهدوا لعزتكم قانون عدلية من أفخر التحف
وصار من ذهب عنوان عدلكم إن العدالة عنوان على الشرف

وقلت أيضاً :

أجريت قانون عدل في النظام له حسن انتظام وفيه منتهى الأرب
من ذاك بيروت أهدوكم بنسخته تتيه في حلة التذكار من ذهب

وقلت أيضاً :

قانون عدلك لم يبرح يذكرنـا من الجميل لكم آثار إيسار
حتّى دعانا إلى إهدائه نضراً مزركشاً بنضار قصد تذكار

ولأخي الشيخ أحمد أبيات أخر هذه هي :

من عادة الناس تعظيم الكتاب على ما حاز من غرر الآداب والنخب
وأهل بيروت للقانون قـد ذهبوا وذهبوه بأنواع مـن الذهب
مـا ذاك إلاّ لإقرار وتـذكرة بعدل أحمد بين العجم والعرب

وغيرها له أيضاً :

بك القوانين يا ابن العابد افتخرت وهزها نحو عليا قدرك الطرب
تريد تقبيـل كف منك راجية قرب الإياب وأن يصفو لها الطلب
فسيرتهـا لكم بيروت تـذكرة بحسن عدلكمو قد زانها الذهب

ومما أنشدنيه ، من مجونه ومداعباته للأديب الكامل ، واللبيب الفاضل ، الشيخ عبد المجيد أفندي الخاني ، أحد أدباء الشام الكرام ، وقد عرض عليه لغزاً في محبوب له ، فأجابه عنه بقوله :

يا سائلي عن غزال قد خلوت به   وقد أدرت عليه خمرة الحان
إذا أجبتك عنه كان لي شبه   بقحبة وعليها أجرة الخاني

وبالجملة ، فكلام أبي الحسن من أحسن الحسن . وهو مجموع في محله فلا حاجة لنقله . إلاّ أنه أهدى إلينا قصيدة فريدة أردنا ذكرها في هذه المجموعة وهي هذه :

تباهت بلاد الشام وافتخرت مصر   بكم يا بني عبد الجواد ولا فخر
فإن لكم شأناً عظيماً يدلنا   على أن في ذا العصر أمثالكم نزر
مآثركم جلت وقد شهدت بها   عدول بني الدنيا وزكاهم الدهر
وأورثتموها عن أبيكم وجدكم   وتمّ لكم دون الأنام بها خبر
فلو عرفت أوطانكم قدر فضلكم   لما كان منها جائزاً لكم الهجر
ولم تحسبوها في غيرها أهل غربة   فحيث يكون الدر يلفى له سعر
وما ضرّكم عنها الجلاء وإنما   يزيد كمالا في تنقله البدر
ولا تهنوا فيما جرى فمحلكم   لدى كل نادٍ قد حللتم به الصدر
خرجتم بمكر سيء والذي بغى   عليكم بلا شكٍّ يحيق به المكر
وليس لكم عيب على زعمه سوى   مكارم أخلاق هي الأنجم الزهر
على أن من أعمى بصيرته القضا   يكون سواء عنده الخير والشر
ألا يا سراة المجد دام محبكم   عزيزاً ومن ناواكم فله القهر
حماكم لقد أضحى بكم كعبة الهدى   زيارته فرض على من له حجر
وحاصل ما أبديه في حسن حالكم   وما في معاليكم تصوره الفكر
تفردكم بالعلم والحلم والتقى   ومن كان هذا وصفه فله الشكر

ولما وصلت هذه القصيدة إلى مصر مع أصحابنا الحفاظ ، الذين جاءوا لقراءة القرآن المجيد في شهر رمضان الشريف على العوائد المصرية بتلك الديار قرّب الله مزارها وأعلى منارها ، احتفل بها إخواننا الأدباء الأزهريون وغيرهم ، فشطرها حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ علي غزال الشبيني ، أحد أكابر المدرسين بالجامع الأزهر . وحضرة الشاعر الأديب السيد حسن الآبي ، أحد نبهاء الطلبة المتأهلين . وخمسها حضرة الفاضل الذكي الشيخ علي شرف القصباوي ، بريف مصر . وهذا لوقوعها عندهم موقع الاستحسان لتعرضها وتعريضها بحوادث الزمان . وسنذكر إنشاء الله في الخاتمة هذا التخميس والتشاطير ، وغيرها مما حضر لنا في التحارير ، وبعث به إلينا أهل الأدب والرسل ينسلون به من كل حدب من مقامات ومقالات وأراجيز ، ومطنب من القول وجيز ، في تشوف وتشوق أهل ذلك الوطن العزيز ، وقصائد لطيفة وأبيات ظريفة .

ولنرجع لما كنا فيه من ذكر السادة البيروتية وغيرهم من أهالي سورية وما وقع لنا في السياحة الشامية . فنقول : إن من أفاضل العلماء بهذه المدينة حضرة الأستاذ المعمر الكبير الشيخ محيي الدين اليافي ، صاحب الفضل الذي ليس يخاف . أخذ العلم والطريق عن والده . وأخبرنا ، حفظه الله ، انه تلقى الطريق عن والده وهو عن السيد كمال الدين البكري الصديقي ، نجل العارف بالله شيخنا وأستاذنا وقدوتنا وملاذنا السيد مصطفى البكري . فعلى هذا ، يكون بينه وبين حضرة السيد البكري اثنان فقط ، فقد أدرك بهذا السند العالي ، أكمل المراتب والمعالي . وبورك في عمره فجاوز الثمانين ، ولم يزل عاكفاً على تعليم العلم النافع في الدين ، مشتغلاً به في كل حين . إما في المسجد الجامع المنسوب لنبي الله سيدنا يحيى الحصور ، لأن به مشهده المشهور ، المحفوف بالمهابة والنور ، وإما في منزله المعمور . وكثيراً ما اجتمعنا بهذا الأستاذ ودعا لنا بما نرجو الله في قبوله ، وتحقيق مضمونه وحصوله . وزارنا مرة وهو بغاية النشاط والانبساط ، بمنزلنا الكائن بزقاق البلاط . واطلعنا مرة

على مكتبته العظيمة المشتملة على الكتب الفاخرة القديمة . وهو خليفة في طريق الخلوتية ، كما أن حضرة الشيخ الصالح محيي الدين الفاخوري الطرابلسي من الخلفاء الصاوية ، تلقى الطريق عن الولي الكامل صاحب الكرامات الظاهرة والمكاشفات الباهرة،الأستاذ الشيخ محمود الرافعي . وكما أن المرحوم الشيخ أحمد الرفاعي خليفة الرفاعية توفي في هذا العام . وكما أن الأستاذ الشيخ حسين بدران خليفة السادة السعدية . وكما أن الشيخ عبد الحميد يموت خليفة الأحمدية. وكما أن الأخ الأمجد مولانا الشيخ أحمد عباس ، صاحبنا قديماً بالجامع الأزهر ، جدّ واجتهد في أيام الطلب إلى أن أدرك الأرب ممن الفنون الشرعية وعلوم الأدب خليفة الشاذلية ، على طريق الشيخ علي المغربي اليَشرُطي المدفي الدرقاوي. وربما نأتي على ترجمة هذا الشيخ الشاذلي وما اشتهر عن تلامذته من الأحوال والشطح ، المخالف لظاهر الشريعة حفظها الله من محدثات البدع ، ببركة صاحبها السيد الأكرم صلى الله عليه وسلم .

ومن أهل العلم والأدب الشيخ سعيد أفندي الجندي الذي قد صار الآن وكيل المدعي العمومي في دوائر الحكومة. ومحمد أفندي اللبابيدي شاعر أديب صار أيضاً الآن مأمور الإجراء في الحكومة .

ومن المشتغلين بالتعليم والتدريس والتفهيم في هذه المدينة ، حضرة العالم الفاضل ، الشيخ رجب جمال الدين ، وهو مجتهد باذل ما في وسعه في قراءة علوم الآلات لتلامذة المدارس المحلية ، كمدرسة الجمعية الخيرية والمدرسة السلطانية، وغيرهما. وله اليد البيضاء في تقدم هؤلاء المبتدئين من تلامذة تلك المدينة بما كتبه لهم من الرسائل، في المنقول والمعقول تقريباً للعقول ، حتى جعل المسائل في صفة سؤال وجواب ، يحفظها الطلاب،فتسهل عليهم المسائل الصعاب ، وهو من الرأي والصواب .

ومنهم الكامل اللبيب ، والفاضل النجيب ، ذو الفطانة التامة والمهارة ،

حضرة الشيخ محمد أفندي طبّاره ، أحد أعضاء شعبة المعارف ، وجمعية المقاصد الخيرية في السالف . كان يعلم في المدارس احتساباً نحواً وصرفاً وإعراباً وحساباً . وله كتاب الأساس في الفقه على مذهب الإمام الشافعي رضي الله عنه في العبادات والآداب . وكتاب آخر في التوحيد نافع مفيد . ولقد أهدى إلينا نسختين منهما فرأينا أنهما لا غنى للمبتدىء عنهما حيث كانا في أصول الدين وفروعه ومنقوله ومسموعه .

ولقد تركنا فيما مضى ذكر جماعة من الوجوه والأعيان لمجرد سهو إذ ذاك أو نسيان، فمنهم وهو من أعيان أهل التجارة حضرة الحاج إبراهيم أفندي طياره، من بيت مشهور بهذا اللقب ، وهو رجل كريم النسب، كامل العقل والأدب . يحب أهل الفضل والدين ، وله مواساة لبعض الفقراء المعوزين . أول ما سمع بقدومنا من الديار المصرية ، دعانا إلى داره العامرة الزهية الزاهرة، وصنع معنا غاية الملاطفة والمجابرة . أنعم الله عليه بإنعاماته الوافرة ولطف بنا وبه في الدنيا والآخرة . وله أنجال أنجاب من الأدباء الكاملين أحدهما يسمى الحاج محمد والآخر يسمى أمين .

ومن أقاربه وأولاد عمه الحاج سعد الدين من التجار المشهورين ، وله قرابة أيضاً ومصاهرة لبيت نجا من البيوت القديمة والعائلات الكريمة .

ومنهم السيد مصطفى نجا من أهل التجارة والعلم والذكاء والفهم .

ومنهم الرجل الشهم الكامل عليّ القدر أبو خضر العيتاني أحد المشاهير بالثروة قديماً . إلاّ أنه الآن على غير ما كان نسأل الله تعالى أن يصلح له الحال والشان . فإنه من أهل المروات الكاملة ، والمودات والمجاملة . كثيراً ما كان يزورنا ويؤانسنا ويجتهد في اذهاب وحشة الغربة عنا . فجزاه الله عنا أحسن الجزاء في يوم اللقاء .

ومن البيوت المشهورة بيت العريس إلاّ أنه قعد بهم في هذه الأيام الزمان الخسيس .

ومنهم بيت قريطم ، وبيت خترْمَة ، وبيت محمود درويش المشهور بأبي رستم . وغير هؤلاء ممن لم يحضرني الآن ذكر أسمائهم ، وكل هؤلاء من أهل الإسلام .

أما العائلات النصرانية فهم كثير ، وأمرهم في الغنا والثروة شهير . ومنهم السراسقة والتويني وبسترس . وغيرهم ممن ظهر حديثاً في مظهر الغناء المفرط بواسطة التجارة والمعاملات الأوروباوية . ومع هذا كله معاملتهم لأهل الإسلام معاملة بغاية الأدب والاحترام والتزام التوقير للصغير والكبير وذلك لأمرين :

الأمر الأول ، وهو الذي عليه المعول ، شهامة الطائفة الإسلامية وشدة غيرتهم الدينية ، مع قلة عديدهم ، وكثرة نديدهم . فإن البلد تشتمل على نحو ثمانين ألفاً من النصارى ، ونحو عشرين ألفاً من المسلمين . وفضلاً عن ذلك فإن نصارى لبنان محيطون بهم من كل جانب بل وبغيرهم من البلاد من حدود طرابلس إلى حدود صيدا . وهم يبلغون في العدد نحو مائتي ألف . فمعيشة هذه الشرذمة القليلة مع هذا العدد الكثير المياسر . وتأييد إخوانهم وأهل أديانهم الأوروباويين لهم . من تأييد الله لهذا الدين المحمدي ، والشعب الإسلامي ، كرامة لحضرة هذا النبي الأمي صلى الله عليه وسلم وزاده شرفاً وكرماً لديه .

والأمر الثاني مراعاة الحكام للجري على مقتضى القوانين والنظام .

مطلب في ذكر بعض أوصاف بيروت وأهلها وعوائدهم

واعلم أن هذه المدينة المتينة من أعظم المدن الشامية ، والمراسي الساحلية . عالية المباني كاملة المعاني ، عمارتها من داخل السور غالبها من قديم الدهور . وأما البناء الجديد في خارجه فهو على طراز جديد وإتقان وتشييد موضوع على أعلاه القرميد وفي أطواقه الشبابيك من الجديد وما على نضرته من مزيد ، وسبب ذلك كما دل عليه التأمل والنظر ان خارج البلد قديماً كان ممتلئاً بالبساتين والشجر ، فلما أرادوا الخروج فيه بالعمارة، عمد كل واحد الى محل من بستانه واقتلع أشجاره ، وعمر في وسطه كما يقولون حارة ، فصارت في غاية النضارة ، لكونها محفوفة بالأشجار المحدقة إليها بعيون الأزهار دانية القطوف والثمار . وكل هذه المناظرة البديعة كأنها حاصلة بالطبيعة ، لا من صنع صانع ولا وضع واضع ، لما علمت في أصل تلك المواضع . وزد عليها كونها مشرفة على البحر ، مطلة على البر ، معتدلة البرد والحر . عــذبة الماء ، صافية الهواء ، قليلة الوباء ، كثيرة الرخاء . وبناء بيروت كله بالحجر الصلب الجاف والكلس المسمى عندنا بالجير ويخلطونه بالرمل الأحمر بعد تصفيته بمصفات من خشب معدة لذلك ، وتخمره أياماً طوالاً حتى يصير كالعجين في التلبك واللين . ومتى بني به الحجر امتزجا وصارا كقطعة واحدة ولا سيما بعد نزول الأمطار الغزيرة عليها في أيام الشتاء التي تدوم نحو الستة أشهر من

السنة ، كما شاهدناه مدة إقامتنا بتلك الأقطار فسبحان من بيده ملكوت كل شيء وهو الواحد القهار .

ومن جملة اعتنائهم بالمباني الرفيعة والمنازل والمنازه البديعة ، أنهم يحضرون لها الأعمدة والبلاط من الرخام ويضعونه في أرضها وحيطانها بغاية الإحكام . ويتغـالون في النقش والفرش من ذهب وحرير ، ويتحـالون فيما يجلسون عليه من كرسيّ أو سرير . وربما بنى الرجل الفقير بناء مشيداً ونضده تنضيداً ، وجعله في أعلى المناظر بهجة للنواظر . ومع ذلك يعده لاكتراء الغرباء الذين يقيمون بها مدة الشتاء . أو يسكن الطابق السفليّ ويؤجر الطابق العلويّ ؛ فتكون تلك الحارة كأنها نوع من أنواع التجارة . ونعم ما احتالوا على تحصيل العيش لا كأهل مصر الذين استولى عليهم البطر والطيش ، وتركوا التدبير واتبعوا التبذير . متى تبرّجت لهم الدنيا لا يلتفتون إلى الآخرة . فوالله إني لاشكر صنيع أهل هذه البلاد في السهر على اتخاذ الوسائل للمعيشة والاستعداد ، لا يترك صغيرهم ولا كبيرهم النبش في الأرض ، ولو كانت كمفحص قطاة ، لاستخراج أشجارها واجتناء أثمارها وشمّ أعطارها ورؤية أزهارها . وساعدهم الجد الموفور بكون أرضها لا تكتّم في ضميرها شيئاً من أنواع الغرس والبذور ، فليس لترابها من الأرض أتراب ولا شبه ولا اقتراب فسبحان المعطي الوهاب . فربما لا يحتاج غالب سكانها إلى كثير من الخضرة النازلة إلى الأسواق من ضواحي المدينة أو من جبل لبنان ، وكذلك بعض الفواكه والثمار لوجودها عندهم في الأشجار المحيطة في الغالب بتلك الديار . ولاشتغال أهل هذه المدينة بأشغالهم التجارية من الصباح إلى المساء ما بين كونه في دكان أو حاصل يبيع ويشتري ، أو في المينا يستخرج بضاعته المجلوبة إليه من أوروبا أو بلاد أخرى ، أو ينزلها إلى جهات ثانية لشركائه وعملائه ، أوفي أحد الدواوين والمجالس مستخدماً بمأمورية أو كتابة ، فليس لهم وقت فراغ فلا تراهم يكثرون من السهرات الليلية في الحظوظ والشهوات النفسية . ولا

يشتغلون بكثرة مجالسة الأصدقاء والأقرباء ولا مؤانسة المسافرين والغرباء، إلاّ على قدر الضرورة ، كعزيمة أو وليمة لعزيز أو قادم كريم . بخلاف أهل دمشق الشام فإن كبارهم أصحاب عقارات وأملاك يتعيشون منها بسهولة . فلأجل ذلك تراهم متفرغين لملاقاة الغرباء ومؤانسة الأصدقاء، بصدور رحبة وألسن بالتحيات رطبة . فضلاً عما فطروا عليه من مكارم الأخلاق وألفاظهم الرشاق . وسنأتي على ذكر بعض محاسنهم في الكلام على الرحلة إلى مواطنهم إن شاء الله تعالى .

وبالجملة فبيروت مدينة إسلامية ديناً وغيرة وحمية ، أوروباوية نظاماً وبناء وحربية . فإنهم مع كثرة مخالطتهم لغير أهل دينهم من وطنيين وأجانب في غاية الصلابة والتحفظ على شعائر الدين . ولم يقلدوهم في طول مدة العشرة إلاّ في مراعاة القوانين والنظامات في المرافعات والمدافعات ، والمباني المشيدة البهجة ، والطرقات والأسواق المنفرجة ، وفيها غاية السهولة في تناول البضاعات التجارية والتحارير والرسائل بواسطة البوستات والوابورات الأجنبية . فالسفار فيها والإخبار يومية لا كغيرها من البلاد السورية . فهذه مزية لها وأي مزية .

مطلب في ذكر بعض من تعرفنا بهم في بيروت

وبهذا السبب قد حظينا بالاجتماع على كثير من السادات الأفاضل والأكابر الأماثل ، الواردين عليها من الآفاق ، وصاروا لنا من أعز الأصدقاء والرفاق ، فكم رأينا بها من عظماء العالم أعظم فاضل عالم ، ومن أحاد الناس أغلب الأجناس . فمن جملة الواردين إليها والوافدين عليها ، جناب الأمير الشهير والكوكب المنير ، السيد محيي الدين باشا ، نجل الإمام الهمام والشهم البطل المقدام ، رب السيف والقلم ، والطيلسان والعلم ، الذي اشتهر صيته في العالم وانتشر واحد الأبطال في القرن الثالث عشر ، ذو الأخلاق المزرية بالروض الناضر ، والنسيم العاطر ، الأمير عبد القادر الحسيني الجزايري . الذي أقام أخيراً في دمشق بعد خروجه من بلاد المغرب وحربه المشهور مع دولة فرنسا نحو الخمس عشرة سنة . وهو في مقاتلة ومقاومة وكفاح بسمر القنا وبيض الصفاح ، حتى ارتفع صوت صيته في الآفاق وعلا أمره بين الأمم وفاق ، واتشب القتال بينه وبين من كفر ، ونشبت بهم أظفار الظفر ، ولكن لم تساعده أحكام القضاء والقدر ، ووقع في مخالبهم أسيراً مأموراً بعد أن كان آمراً وأميراً . هذا ما أراده الله وأمضاه فلا حول ولا قوة إلا بالله .

وبعد ذلك طلب الإقامة في بلاد الدولة العلية حيث كانت ولم تزل أعظم الدول الإسلامية . وأجرت عليه دولة فرنسا مرتباً سنوياً في نظير ما

استولت عليه من أملاكه العظيمة ، وعقاراته القديمة. فصار يصرفه في وجوه الخير والإحسان صابراً على ما أصابه من حوادث الحدثان . وأقام بالشام إلى أن وافاه الحمام وانتقل إلى دار السلام ، في العام الأول من وصولنا إلى بلاد سورية ، فحزن عليه الناس أحزاناً يعقوبية لما ذهب عن عيونهم من محاسنه اليوسفية وأخلاقه المحمدية . فعليه من الله مزيد رحمته ورضوانه ، ما حن غريب إلى أهله وأوطانه . ولقد كان السبب في مجيء نجل هذا الأمير إلى بيروت تبديل الهواء لانحراف مزاجه الشريف لتكدره على مرض والده الذي توفي فيه وجاءه الخبر في أثناء إقامته ، باشتداد المرض على حضرة والده ، فأسرع في الرجوع إلى الشام وحضر احتضاره وشاهد أخطاره . الهمه الله اصطباره وأهله وإخوانه وأنصاره . أمين .

وكان من معالي همم والده ونبالة مقاصده ، أنه أوصى هذا السيد عند وصوله إلى بيروت أن يزورنا ويزور حضرة الاستاذ الشيخ محمد عبده المصري ، فقام بما أمر وبلغ الرسالة عن والده وسؤال الخاطر بالنيابة عنه ، جزاهم الله عنا أحسن الجزاء الجزيل ، وله الفضل والثناء الجميل . ولا جرم فمثل هذه المجابرة والمروءة لا تستغرب من أهل بيت النبوة ، فهم أهل الكرم والفتوة ، والشهامة والقوة ، إلاّ أننا قد أسفنا غاية الأسف على ما فاتنا من مقابلة هذا الأمير الشهير والمولى الخطير . فلقد كان في الإمكان التوجه إلى الشام لزيارة هذا البطل الهمام،واغتنام دعواته الصالحة وتوجهاته الناجحة. والحمد لله شكراً قد ظفرنا برؤية أنجاله ومقابلة أشباله.ففي السنة الأولى الأمير محيي الدين باشا وفي السنة الثانية سعادة الأمير محمد باشا ، وهو أكبر العائلة والخليفة فيهم بوصية من أبيهم . فرأيناهما كالفرقدين بل هما كالنيرين . أدب كامل ولطف شامل ، وأخلاق خليقة بالحمد ، وأعراق عريقة في المجد ، وصفات صافية ، وهمم وافية ، وذهن وقاد ، وفكر نقاد ، وخلوص واعتقاد ، ولسان عربي مبين ، وشعر بليغ متين ، ومعرفة بالعلوم ، وملكة راسخة في

الفيوم . أهدى إلينا سعادة الأمير محمد كتابه الذي ألفه في صفات الخيل المسمى (بعقود الجياد في الصافنات الجياد) أحسن فيه ما شاء الله وأجاد ونوه فيه ببعض سيرة سلفه الأمجاد . ولهذين الأميرين أخوة صغار وكبار سيكونون إن شاء الله تعالى من الأكابر الأخيار ، يبلغون عقد العشرة ، لكنهم غير مجتمعين في سكن ولا عشرة . فالبعض قد انحاز إلى الأمير هاشم البصير ، والبعض قد انضم إلى الأمير محمد الكبير ، ورتبت الدولة معاشاً لهذا الحزب الأخير ، ومرتب فرنسا لم يزل يصرف إلى الفريق الأول من كبير وصغير ، والله ولي التيسير ، وهو على كل شيء قدير .

ومن جملة من عرفناه واجتمعنا به في بيروت حضرة العالم الفاضل ، والمرشد الكامل ، الشيخ عبيد الله الكردي ، الذي كان يحارب دولة العجم في عهد قريب وأخذ كثيراً من بلادهم إلى أن قارب على الوصول إلى عاصمتهم ، فاستجاروا بدولتنا العلية والتجأوا إليها في رده عنهم فأرسلت إليه من قبض عليه بعد التي واللتيا وأبعدته إلى الأقطار الحجازية . فجاء على طريق البر إلى الاسكندرية ، ونزل وابور البحر وطلع على بيروت ، وأقام بها زيادة عن الشهر في انتظار بعض الأصحاب والأتباع المسافرين في البر . وسكن في بيت مفتي المدينة سابقاً الشيخ الطرابلسي وداره ملاصقة للدار التي سكناها أول مجيئنا إلى بيروت . فكنا نقابله ويقابلنا ويزورنا ونزوره ، ونشكو إليه نوائب الزمان وما حل بأهل الإسلام والإيمان . وهو يشكو إلينا من حوادث الدهر الخؤون ، إنا لله وإنا إليه راجعون . وكان في صحبة أحد الكبار من كتاب المابين السلطاني يقال إنه الكاتب الرابع حضرة كامل بك ، الذي بلغنا بعدُ أن صار مأمور ضابطة الاستانة ، وأعطي له الرتبة الأولى يعني باشا . وهو جدير بذلك لأنه رجل كامل الفطنة والذكاء والسياسة والدهاء . يتكلم قليلاً باللغة العربية ، وهو أيضاً كان يزورنا ويتكلم معنا في الحادثة المصرية ، ويظهر مزيد الأسف على ما مضى وسلف ، وبشرنا بقرب الأوبة والعفو عن هذه الحوبة ، بهمة

ولاة الأمور الساهرين في مصالح الجمهور . ويقول إن في ذلك لذكرى وستتحقق لكم إن شاء الله البشرى . ثم أن هذا الشيخ وذلك الأمير سافرا إلى الحجاز ولم نلبث إلاّ قليلاً وقد جاءت الأخبار بنعي هذا الشيخ ، وانه توفي بمكة المشرفة . فعلمنا أن وفاته بتلك الأراضي الطاهرة والبقعة الفاخرة من نعم الله تعالى عليه في الدنيا والآخرة .

ومنهم أيضاً العالم العلاّمة والحبر الفهامة الشيخ نعمان أفندي ، نجل واحد عصره وفريد مصره ، علاّمة الزمان ونادرة الأقران، الشيخ الآلوسي مفتي الأنام وشيخ الإسلام بمدينة بغداد دار السلام ، صاحب التآليف العجيبة والتصانيف الغريبة ، صنف كتاب التفسير الكبير في عشرة مجلدات كبار . وبلغنا أنه الآن يطبع في مصر المحروسة . ولهذا السيد وولده عدة كتب طبع منها بمصر بعض أشياء، أدام الله النفع به وبكتبه وبلغه في الدارين أقصى أربه ، آمين .

ومنهم الذكي الألمعي والإمام اللوذعي ، أتاسي زاده الشيخ خالد أفندي ، مفتي مدينة حمص سابقاً . والشيخ محمد أفندي المحمود صاحب الفضل المشهور والطالع المسعود ، المشتغل على الدوام بمدينة حمص بإحياء الدروس وتهذيب النفوس . وأهل بيت الأتاسي كلهم لا يشغلهم عن تحصيل العلم شاغل ولا يعتريهم في إفادته واستفادته توان ولا تكاسل . كما أخبرنا عن نقلة الأخبار أنهم مشغولون به اناء الليل وأطراف النهار . وكيف لا ، وهم من بيوت العلم كابراً عن كابر وكم ترك الأول للآخر . جاء إلى بيروت هذان العالمان لقضاء أغراض ومصالح تتعلق بأولياء الأمور وأقاما بها عدة شهور . فاغتنمنا صحبتهم وانتهزنا فرصة الأنس بهم في تلك المدة التي كأنها ساعة من القصر لأنها مرت كلمح البصر . كانا يحضران معنا في بعض الأوقات المطالعة العلمية بأذهان حادة حاضرة ذكية ، فلله ما أعجب هذا الذكاء الباهر والفكر الحاضر ، وكان مع حضرة الشيخ خالد المذكور في المرة الثانية هذا العام عندما كان

مسافراً لأداء الحج الشريف ، حضرة أخيه الفاضل الكامل الشيخ عبد اللطيف .
وبلغني أن لهم بحمص من الأهل أنجالاً أنجاباً لا تتقاصى عليهم مسائل العلم
ولو كانت صعاباً . فسبحان واهب الأذهان والفطن العالم بكل ما ظهر وما بطن .

ولما اطلع حضرة الشيخ خالد ، على الرسالة التي جمعها الفقير في رد أسئلة
الخليفة المأمون التي أوردها على علماء بلده ، ليردهم بها إلى رأيه ومعتقده ،
في تفضيل الامام علي بن أبي طالب على أبي بكر الصديق ، وأنه الأولى بالخلافة
قبله . وذكر هذه المناظرة ابن عبد ربه في كتاب العقد الفريد ، وسميتها
(خلاصة التحقيق في أفضلية الصديق) ، قرظها بأبيات بديعة المثال بعيدة
المنال بديهة المقال من أحسن ما يقال ، وكتبها بخطه كالغرة من تحت الطرة .
أحسن الله إليه وأسبغ نعمه عليه .

ومنهم ، الشيخ أمين أفندي مقيد زاده ، نائب قضاء نابلس سابقاً . وولده
النجيب الأديب محمد مراد أفندي . حضر إلى بيروت بعد انفصاله من النيابة
المذكورة ، وأقام بها مدة أشهر ينتظر مقابلة والي الولاية ، دولتلو أحمد باشا
حمدي ، في رجاء أن يتوسط له في تقليده بوظيفة أخرى من باب المشيخة
الجليلة . فلم يظفر بمقصوده إلى أن سافر إلى بلده الأصلي ، وهي مدينة
حلب الشهباء ، وتوجه منها إلى دار الخلافة العظمى فصار تعيينه في نيابة
قضاء مرعش كما بلغنا في هذا العهد .

ولقد رأيناه رجلاً كاملاً فاضلاً على النمط القديم في الأبهة والهيئة .

وأما ولده السيد محمد مراد فله اشتغال بالأدب وشغف بالشعر . وقد
جمع منه مجموعة تشتمل عل قديم منه وحادث ، على حسب الوقائع والحوادث .
وسماها (غصن البان) استعارها من قوامه لبديع نظامه، تسمية ظريفة الموافقة
لمراعاة النظر والمطابقة . وكان في مدة تلك الإقامة يتردد علينا بكامل الاحترام

والكرامة ويعرض علينا نثره وكلامه وشعره ونظامه . أسعد الله أيامنا وأيامه وأحسن ختامنا وختامه .

ومن أفاضل أهل حلب الشيخ الجابري ، جاء إلى بيروت ومعه ولده مريضاً بقصد تبديل الهواء ومعالجة ذلك الداء ، وهو رجل من أكابر السادة الأمراء وأهل الثروة الأغنياء .

ومنهم ، الجواد السخي والأديب الذكي ذو النسب العلي،نوري أفندي الكيلاني ، من ذرية القطب الرباني ،سيدي عبد القادر الجيلاني ، قدس الله سره العزيز ، قدم إلى بيروت في العام الماضي لدواع صحية وعلاجات طبية . فاغتنمنا رؤياه وتبركنا بنظر محياه، وحظينا بمجالسته ولطيف مجانسته . فوجدناه كاسمه نوري الذات جميع الصفات . وله شعر لطيف وجمع وتصنيف وكتاب ظريف في مناقب أهل البيت الشريف . قد أعده للطبع ، تحت نظر السيد عبد القادر أفندي القباني مدير مطبعة الثمرات الجنية ، واسمه (أحسن ما اقتنيت في مناقب آل البيت) وإقامته بمدينة حماه يكرم به ضيفه ويحمي حماه، وبيت الكيلانية بها مشهور كما لهم بيت آخر في دمشق معمور .

ومنهم ، الشيخ محمد أفندي الحريري ، الحموي أيضاً ، ذكي مؤدب شاعر مهذب . قدم إلى بيروت ، في العام الماضي ، لأغراض ومصالح تخص حضرة العالم المرشد الصالح ،الأستاذ الشيخ أبي الهدى أفندي الصيادي الرفاعي ، المقيم الآن بالأستانة العلية في كنف الحضرة السلطانية ، ونال من لدنه رتباً سامية ونياشين علية ومراتب علمية بهية . ومع كونه من أهل الطريق وخليفة من خلفاء الطريقة الرفاعية ، له إلمام بالسياسة وخبرة تامة في أحوال الوقت الحاضر والزمان الغابر ،بمطالعة تواريخ الأمم الماضين والملوك والسلاطين . فهو جدير بالإقبال والقبول ونيل المأمول . ولقد باشر هذا الأخ الأمجد ، السيد محمد الحريري ، تصحيح طبع كتاب (عقود الجواهر) الذي ألفه الأستاذ

الشيخ أبي الهدى أفندي في مناقب السيد الرفاعي ، بالمطبعة الأدبية في بيروت . وكتاب (شرح رسائل ووصايا القطب الرفاعي) أيضاً . وعاد إلى دار الخلافة ثانياً في صحبة الشيخ المذكور ، كما كان عليه أول مرة . وبلغنا أنه أنعم عليه في هذا العهد من الحضرة السلطانية بنيابة أزمير وهو بهذا الانعام حري جدير .

ومنهم ، صاحب الفضيلة الأستاذ الشيخ عبد الغني أفندي الراوي من وجوه بغداد وعلمائها وأكابرها وأمرائها . اجتمعنا به العام في مدينة بيروت وهو متوجه إلى الأقطار الحجازية وقد لبس من ثياب الحجازية وسافر من طريق البحر لأداء الحج الشريف مع جملة من الحجاج البغداديين . وأخبرنا أنه متوظف بوظيفة تربة دارية سيدي الشيخ معروف الكرخي وله بها براءة سلطانية وكانت لهم قديماً نظارة مقام سيدنا الإمام موسى الكاظم ومحمد الجواد ، ثم انتزعت من أيديهم . وان له أخاً يقال له الشيخ عبد اللطيف أفندي الراوي مدرس بمسجد القطب الرباني سيدي الشيخ عبد القادر الكيلاني ، قدّس الله روحه ونوّر مضجعه وضريحه . وأفادنا أيضاً أنه مر في طريقه هذه المرة بأرض صفين على مقابر الشهداء والصحابة الذين استشهدوا في وقعتها المشهورة ، ورأى في ذروة الجبل هناك مقام جدنا الصحابي الجليل أبي هريرة ، الراوي المشهور ،وهو مقام مشيد معمور ،تجاه مسجده الجامع قريب من أرض يقال لها الحُمّة على أربع مراحل من حلب الشهباء ، وهي في مقابلة الرقة ، يحول بينها وبينها نهر الفرات . وفي هذه الأرض قشلة بها عساكر من الدولة العثمانية لحراسة الطريق ، وربما سكنها في أيام الربيع قبائل من عرب البادية .

وقد اجتمعنا وتعرفنا في هذه القرية بكثير من الأدباء والشعراء وأرباب الفضائل والمعارف . ووقفنا على كثير من عوائد الناس وأخلاقهم ومذاهبهم وأديانهم . لما أن البلاد الشامية تشتمل على صنوف من الملل والنحل والأديان ولاسيما جبل لبنان، كطوائف النصارى من موارنة وروم وكاثوليك وبروستنت، وكالدروز وأنواعهم ، والمتاولة وشعوبهم ، وهم كناية عن الشيعة العلويين ولهؤلاء جبل مشهور بنواحي اللاذقية .

مطلب فيمن قابلناهم من رجال الدولة

وأما أكابر أهل الدولة وأصحاب الحل والعقد والصولة،وأمراء الشام وولاة الأحكام وغيرهم من الذوات الفخام .

فقد قابلنا منهم صاحب الدولة والأبهة والي الولاية السورية الجليلة سعادة أحمد باشا حمدي وذلك عندما اضطرنا الحال لتوسيطه في الاسترحام لنا من دولتنا العلية. لما صدر منها أمر الصدارة بإبعاد المنفيين من مصر عن الممالك المحروسة . فالتزمنا مقابلته ، وتقديم الشكوى له ، بعد إمكان توجه مثلنا لبلاد أجنبية كأوروبا حيث لا نعرف لسانهم ولا عوائدهم ، ويعار على دولتنا العلية أن تطرد من جاءها من أهل الإسلام مختاراً لها على سائر الدول ، راغباً في الدخول تحت ظل حمايتها في كنف أمير المؤمنين وخليفة رسول رب العالمين . فقبل شكوانا وأرسل بها إلى الباب العالي وساعد كل المساعدة . وعززنا هذا الاعراض له بثان للمابين الهمايوني وثالث للصدارة ، وكان الجواب منه السكوت ظاهراً وهو كما يقول الناس رضى . وتكررت مقابلتنا لهذا الصدر الأعظم مراراً لقدوم من سفر أو تهنئة بعيد حضر ،وسافرنا معه في الوابور العثماني المسمى (رسمو الراسي دائماً في مرسى بيروت) إلى اللاذقية وطرابلس في رحلتنا إلى تلك الجهة . وسنذكرها إن شاء الله تعالى بعد تمام هذا الكلام . ولقد رأينا منه في هذه السفرة من اللطف والأنس وطيب الإخلاق والنفس ما لم يكن في ظن ولا حدس .

ومنهم ، سعادة إبراهيم باشا حقي متصرف بيروت الأسبق .

ومنهم ، سعادة محمد باشا اليوسف ، متصرف طرابلس سابقاً ، وهو الآن متصرف عكة .

ومنهم ، سعادة أخيه محمود بك اليوسف ، قائمقام قضاء صيدا ، وهو الآن مستعف من الخدامة لأن صحته لا تساعده على الخدمة . وهذان الذاتان من أكابر ذوات الشام قديماً وحديثاً ، ولهما شهرة بالغنى والسخاء وكثرة الحواشي والمواشي والخدم والحشم . ولهم مصاهرة مع سعادة محمد سعيد باشا أمير الحاج الشامي . ولقد اجتمعنا به أيضاً في دمشق وزارنا وزرناه في بيته الجديد وقصره المشيد .

ومنهم سعادة أحمد باشا أباظه ، متصرف اللاذقية (كان في مدة الرحلة إليها) ولكنه الآن خال من الخدمات في الحكومة ومقيم في بيروت . وهو أخو التقي الصالح الشيخ أبو خليل أباظه المعتقد في العائلة الخديوية وكان مقيماً في دائرة منصور باشا يكن صهر الخديوي السالف ، ولم يزل عندهم إلى أن توفي إلى رحمة الله في هذا العام . أمطره الله سحائب الرحمة والرضوان وأسكنه فسيح الجنان ومتعه بالحور الحسان والولدان .

ومنهم ، عزتلو أحمد بك عزت ، مفتش العدلية سابقاً بسورية ، وهو نجل سعادة هولو باشا ، من ذوات الشام ومياسيرها العظام ، ولقد زارنا أيضاً في دار صاحب الاحترام والاحتشام،سعيد أفندي الكيلاني بدمشق حين توجهنا إليها في العام الماضي وسنذكره إن شاء الله تعالى في محله من هذه المجموعة .

ومنهم صاحب السعادة حضرة نصوحي بك ، متصرف بيروت الحالي ، وهو من أهل الكمال والأدب وذوي البيوت والنسب . على دراية كاملة في السياسة،تقلب في كثير من الوظائف والرئاسة . يتكلم بالعربية الخالصة وله محبة

في كتب الأدب والشعر من كلام العرب . ولقد شرع في مشروع حسن نرجو أن يساعده فيه الزمن . وهو جمع كتاب يشتمل على غرر من القصائد ، ودرر من المقاطع والشوارد ، والأمثلة والمواعظ والفوائد ، والوسائل والمقاصد. وعقد له اجتماعاً في بيته مشكلاً منه ومن حضرة الأستاذ الشيخ الأحدب والشيخ قاسم أبو الحسن الكستي وحضرة حسين بك محرم ، وغيرهم من أهل الأدب والمعرفة بسمين القول وهزيله ، وأصيله ودخيله . ورتبوا هذا الكتاب الخيالي على أقسام . فالقسم الأول في الإلهيات من توسلات واستغاثات واعتقادات . والقسم الثاني في النبوات كلها ولا سيما حضرة السيد الأعظم صلى الله عليه وسلم . والقسم الثالث في المدائح مطلقاً وأخصها بدأ مدائح أهل البيت النبوي والصحابة والقرابة والتابعين إلى قرب يوم الدين . والقسم الرابع في المقاطيع الظريفة والمفردات اللطيفة المشتملة على الأمثال والحكم ومكارم الأخلاق والشيم ، وغير ذلك . ونظن أنهم باشروا في الجمع على هذا الأسلوب بلغهم الله غاية المطلوب ،وذلك من المقاصد الخيرية وفي طبعه نفع لكافة البرية . وشتان بين هذا وبين كتاب مجاني الأدب جمع الياسوعيين فإنهم لم يذكروا من القصائد الموجودة في دواوين شعراء الإسلام إلا الغث دون السمين ورخيص القيمة دون الغالي الثمين . وكذلك فعلوا في الحكم والأمثال والنوادر والقصص . إلا أننا نشكرهم على ما فعلوا من عزو كل شيء إلى كتابه أو قائله، فهذه تعد فضيلة لهم في هذا الزمان الذي كثرت لصوصه حتى اختلست من الأدب نصوصه ومن الذهب فصوصه . فهو كتاب لا بأس به لولا ما أدرجوه في خلاله من بعض كلمات جديدة لأهل دينهم هي عن الأدب بمراحل ، فكأنها في الكتاب كالرقعة السوداء في الثوب الأبيض .

وممن اجتمعنا بهم من الأمراء العسكرية سعادة حسين باشا فوزي ، مشير الأردي الخامس بالشام ، وهو رجل وضيع النفس حسن الخلق محب للدولة والملة . إلا أنه انتقل وسافر إلى الأستانة وخلفه سعادة محمد باشا توفيق .

ومنهم سعادة سالم باشا ، أمير لواء الرديف . كان مقيماً في دار من دور عزتلو سعد الدين أفندي القباني ، مجاوراً لنا في السكن . فكان يزورنا ونزوره وهو رجل من الكبار في السن والمعرفة .

ومنهم حضرة فوزي أفندي ، مأمور الضابطية . وهو رجل مهذب الأخلاق ، ذكي الفطنة ، محافظ على ما يلزم لوظيفته من السهر والملاحظة لأحوال الخفر . فلا تغيب عنه شاذة ولا فاذة من أحوال تلك المدينة . ولقد كنا في ابتداء إقامتنا فيها نعجب من كثرة الأمن بها ليلاً ونهاراً . فأهل البيوت يتركونها بدون تسكير ليلاً إلى الصباح فتبقى طول الليل مفتحة الأبواب ، وذلك بهمة الضابطة ورجال الجندرمة والبوليس . والسبب الوحيد في كل هذه الأشياء مراعاة القوانين وعدم المحاباة في الأحكام ، إلاّ قليلاً مما لا يخلو عنه قطر من الأقطار . فترى أرباب الكراريس (أي العربات) لهم نظام لا يتخطونه .

اتفق ان حضرة أخينا إبراهيم أفندي اللقاني المصري استكرى كروسة لتوصله إلى جنينة رستم باشا ، متصرف جبل لبنان سابقاً ، وترجعه إلى بيروت ثانياً ، وشارط صاحب الكروسة على ذلك وأعطاه الأجرة بتمامها بعد أن وصل إلى المحل المذكور . واتفق معه على الرجوع إليه قبيل الغروب ، فمضى الوقت ولم يحضر صاحب الكروسة ، فبعد أن انتظره زماناً نزل إلى المدينة ماشياً . وحكى هذه القصة في السهرة بمنزل عزتلو محيي الدين أفندي حماده ، رئيس البلدية ، وانقضى المجلس على ذلك . غير أن الأفندي المذكور سأل عن نمرة هذه الكروسة فأفاده إبراهيم أفندي عنها . فما شعر ونحن في السهرة عندهم ، الليلة الثانية ، إلاّ والسيد محيي الدين يخرج من عبه ريالاً مجيدياً ويعطيه لإبراهيم أفندي ويقول له خذ حقك وهو أجرة الكروسة . وقد حاكمنا الرجل ، واعترف بالتأخير . وأخذنا منه الأجرة والجزاء النقدي أيضاً .

فأعجب لهذا الأمر الذي لا يمكن أن يراه النائم عندنا في النوم بمصر. فلا حول ولا قوة إلاّ بالله ، واضيعتاه على مصر وآسفاه ، عليها حكام ظلام متكبرون متجبرون لا يظنون أنهم محاسبون ولا معاقبون ولا موقوفون بين يدي أحكم الحاكمين . قد انتزعت الرحمة من قلوبهم وقست حتى صارت كالحجارة أو أشد قسوة . كل من تولى وظيفة منهم فكأنما أخذها خالدةً تالدة لا عزل ولا نقل ولا عقل .

نبذة في بعض عوائد أهل بيروت في أفراحهم وأتراحهم

وعلى هذه المناسبة نذكر نبذة من أحوال بيروت وأهلها ومواسمهم وعوائدهم وأعيادهم فنقول :

إن من عوائدهم في أعيادهم أن يصلوا ثم يرجعوا ويزور بعضهم بعضاً في بيوتهم ، فيقدموا للزائر شيئاً من الحلواء على صينية صغيرة في يد الخادم . إما من الحلواء اليابسة الجافة ، فيتناول الضيف منها بيده قطعة أو قطعتين ويأمر الخادم بالانصراف . وإما من الحلواء الرطبة المسماة بالمربى من الاترج أو السفرجل أو المشمش أو الإجاص أو غيرها . موضوعة في أواني البلور ومعها الملاعق والشوك وكوبة الماء ، فيأخذ المعيد ملعقة أو ملعقتين أو جانباً يسيراً بالشوكة . وينصرف الخادم المسمى عندهم بالصانع ويشربون القهوة وينصرفون ..وهذه عادتهم الآن .

أما عادتهم قديماً فإنهم كانوا يصلون جميعاً في مسجد سيدنا يحيى ، وهو مسجد البلد الكبير الجامع ، ويعيّد بعضهم على بعض فيه قبل خروجهم إلى بيوتهم ولا يذهبون للتعييد خارجه إلاّ لنحو أمير أو قريب أو رحم فقط . وهذه كانت من العوائد الحسنة لو دامت .

وأما عادتهم في الأفراح فهي نشر أوراق الدعوة أولاً لبعض الأمراء

والوجوه والأقارب لحضور كتب الكتاب (العقد) . وسماع قراءة المولد الشريف النبوي نهاراً . فيحضر كل من دعي في محل متسع يعدونه لذلك ويفرشونه بالفرش الجميلة . وينصبون للعالم الذي يقرأ المولد كرسي القراءة مسجى بالحرير والديباج أو الكشمير ، وحين ما يريد القراءة يرفعون الأراجيل (الشيّشّش) التي يشربون فيها التنباك ويتركون شرب الدخان . ويبدأون قراءة بعشر من القرآن فينصت الجمع ويصغون نحوه السمع . وبين كل فاصلة واصل القراءة ينشدون الأشعار النبوية ، والموشحات والأدوار المولدية . إلاّ أنهم لا يعرفون الألحان الجديدة بل على الطريقة القديمة التي كانت بمصر منذ زمان قديم . وكذا قراءتهم القرآن ليست كما ينبغي في التجويد والجودة . فأهل بيروت ، بل وأهل الشام عموماً ، أحوج ما يكون إلى القراء المجودين ، والمنشدين المطربين ، فلا ينقصهم من التمدن شيء إلاّ هذان الأمران ، والكمال لله . ثم بعد فراغ المولد على هذا النسق يقدمون إليهم قراطيس من اللوز الملبس بالسكر . ويدورون عليهم بالشربات أو بشيء من الفاكهة . ويحضر ولي الزوج وولي الزوجة أو وكيلاهما بين يدي القاضي والمفتي ومن معهم من العلماء والأمراء ، ويسمون المهر . ويعقدون عقد النكاح ، ويقرأون الفاتحة بتمام الخير والصلاح . وينصرف الجمع ، ثم بعد ذلك إذا أرادوا البناء (دخول العروس على عرسه) ينشرون أوراقاً ، كأوراق الدعوة إلى العقد ، يدعون فيها من الوجوه والأعيان والأصحاب والأخوان أكثر من الدعوة الأولى . ويجتمعون في بيت وسيع بعد الغروب ويشرعون في إلباس العروس بدلة الفرح الجديدة كل على حسب عادته في اللبس وقدرته في اليسار والاعسار ، ويكون الذي يلبسه من أهل الخير والصلاح من العلماء وأهل الطريق ، ويدعون له بالرفاء والبنين والتوفيق . ثم يؤذنون في جماعة ويصلون في جماعة صلاة العشاء الأخيرة . ويشتغلون إما بقراءة المولد على الأسلوب الماضي ، أو بالنوبة والدق على العود والغناء ، كل على حسب مطلبه ومشربه . وتدور عليهم الشربات والقراطيس التي يبدونها ويخفون كثيراً ويوزعون عليهم أيضاً شموعاً

كل أحد بشمعته صغيراً أو كبيراً ، حقيراً أو أميراً ، لأجل أن يوقدوها ويمشوا بها في الزفة لا يستنكفون من حملها تجملاً مع صاحب الفرح وجبراً لخاطره. وبعد فراغ القراءة أو الغناء يقرأون الفاتحة ويخرج العروس للزفاف ويخرج معه هذا الجمع حاملين الشموع موقودة والشمعدانات وصحب الشمع . ويشتغل أولاد الليالي، وهم المؤذنون والقراء ، في التسليمات التي يستعملونها في الآذان على المنائر . ويطلقون السهومة النارية التي تسمى عندنا في مصر بالسواريخ في جو السماء ملونة بالأحمر والأخضر والأصفر والأزرق على أشكال وأنواع منوعة . ويسيرون بهذه الحالة والنساء مطلة عليهم من الأسطحة والشبابيك وعلى جوانب الطريق إلى أن يصلوا إلى بيت العروس . فيقدم شيخ من أهل العلم ويدعو له بالدعوات الصالحة ويختمها بسر الفاتحة ويرجع كل فريق في طريق .

ولقد أعجبني هذا الصنيع في قلة الكلفة والغرامة الموجبة للحسرة والندامة . لا كما يفعل إخواننا المصريون من السرف والتلف والتبذير ، وقلة العقل والتدبير . فمن زوج ابنه أو ابنته فقد افتقر فقراً لا غنى بعده،وربما أنه مع كل ذلك لا تدوم عشرة الزوجين فيرجع من فرحه بخفي حنين .

وأما عادتهم في المآتم فهي خفيفة الكلفة أيضاً . يموت الميت فيجهزونه ويحضره من كان يريد أن يشيعه ، إما في البيت أو في المسجد الجامع . وموعدهم الصلاة إما الظهر وإما العصر ، فإذا قضيت الصلاة المكتوبة ، وصلاة الجنازة خرجوا به من المسجد وأمامه الفقهاء والقراء . فالبعض يقرأ القرآن والآخر يقرأ البردة ، وأهل الطرق يقرأون في أورادهم وأحزابهم ، ويذكرون الله تعالى . والنساء خلف الرجال سكوت لا يرفعن أصواتهن بالصراخ ولا العويل ، بل يبكين من غير رفع صوت وكشف وجه.وعليهن الأزر البيض لا السود ، فإذا وصلوا به إلى المقبرة وواروه التراب انصرفوا إلا أهل الميت وبعض الوجوه . فيدعوهم أحد الكبار من أهل البلد أو الأقارب للميت إلى منزله

فيكون الغداء عنده نهاراً أو العشاء والسهرة ليلاً ، ولا يكلفون أهل الميت بشيء في الأيام الثلاثة أو السبعة . إلاّ أنهم في تلك الأيام يخرجون إلى التربة نحو الساعة الثامنة . ويجتمع القراء فيقرأون ما تيسر من القرآن ويختمون الختمة بالأسماء الحسنى . وكذلك يفعلون في بيت الميت بعد الغروب ، أو في أقرب مسجد إليه إلى تمام الأيام الثلاثة أو السبعة .

فإذا جاءت الأربعون خرجوا على التربة ظهراً ، كما تقدم ، ودعوا الناس إلى البيت ليلاً لحضور القراءة والذكر والطعام . فمتى فرغوا من القراءة والذكر دخلوا إلى أودة السفرة وعليها من أنواع الكنائف والقطائف والبقلاوة ما شاء الله أن يضعوا . وخرجوا فرقاً فرقاً ، فمن الناس من يأكل ، ومنهم من يقعد رسماً فقط ولا يأكل . ولا يفعلون في مياتمهم من التكلفات الزائدة التي ينطبق عليها المثل السائر بينهم فيقولون (موتة وخراب ديار) . وكل من جاءهم للتعزية لا يتناول إلاّ القهوة والأرجيلة ، ولا ذبح ولا سلخ . وعلى كل حال فإنهم ليس لهم كبير اهتمام بشيء من الأفراح أو الأحزان أو العزائم أو الولائم ، ولا يخافون لومة لائم . ترى الرجل منهم يصنع الوليمة للوالي أو المشير أو الأمير ، ولا يظهر على وجهه اهتمام ولا يتكلم بكلام مشغول في تجارته يبيع ويشتري في بضاعته . ولوازم المطبخ قد أرسلها إلى الدار مع الصانع في بكرة النهار ، وقد أوصى على صدر من الكنافة يملأ العين والصدر ويكفي العدد الكثير من ذوي المقامات والقدر . واعتناؤهم باللحوم قليل جداً فالرطل الشامي يسد مسداً ويكفي العدد الكثير عداً . ومنتهى رغبتهم وجود أنواع الحلواء في المائدة فيقولون قدم لنا المحلي والتطلي . وبعد وجود هذا الطعام فعلى الدنيا السلام فهذا غاية المرام . ولا يظهر على الرجل منهم كآبة الحزن والترح ولا تلألأ وجهه بالسرور والفرح . فهم رجال لا تلهيهم عن معاشهم أفراح ولا أتراح فليت أهل مصر يتشبهون بهم والتشبه بالرجال فلاح .

وأمـــا عادتهم في ملبوسهم ومأكولهم ومشروبهم وغير ذلك . فهم في

الملبس على أقسام : قسم ، وهو الكثير الغالب الآن ، يلبس الطربوش الإفرنجي ، والسترة والبنطلون ، ويحلق لحيته ويبقي شعر رأسه . وقسم يلبس القنباز (القفطان) في اصطلاح أهل مصر وفوقه الجبة أو المضربية أو السترة الطويلة . ويلبس كل من القسمين في رجله اللستيك (الجزمة) . وأما المركوب أو الصرمة فقليل من يلبسهما من الناس إلاّ الفقراء جداً . وقسم يلبس البدلة العثمانية القديمة وهي الدمير والشروال الكبير الواسع ، وعلى رأسه الطربوش الاسكندراني بالزر الكبير . هذا ملبس الرجال منهم . أما النساء فأقسام أيضاً : قسم يلبسن الازار الأبيض الناصع أو الملاءة الحرير الحمراء أو المناويش أو الخضراء أو الصفراء أو الزرقاء ، وعلى وجوههن المناديل الرقيقة الاسلامبولي ، وفي أرجلهن اللستيكات (الجزم) الافرنجي . ولا يظهرن من أبدانهن شيئاً ، وهن نساء المسلمين خاصة . وقسم يلبسن الفساتين الواسعة من الشيت والصوف الإفرنجي والحرير الملون ، وعلى رؤوسهن الطرح الرقيقة أو المناديل فقط . وهن مكشوفات الوجوه (وربما الزنود) ولا يرين بأساً في المرور بالأسواق والشوارع والحارات ومحادثة الرجال الأجانب في الطرقات والبيوت . وهن (كثيرات من) نساء النصارى اللاتي يقلدن الأوروبيات حق التقليد . وقسم كنساء أوروبا تماماً في إرخاء الذيول ولبس الاعراف والبرانيط على رؤوسهن . ولا يفترقن منهن إلاّ باللسان واللغة ، فمتى رأيتهن لا تشكنّ في أنهنّ من نساء الإفرنج . وهذا لبس غالب نساء النصارى ، المقلدين لهم في كل أحوالهم وأطوارهم . حتى أن الرجل منهم وهو مولود في بلاد العرب ، ومربى بين أظاهرهم ، بل وربما كان من أهل الفلاحة وسكان جبل لبنان ، ينزل إلى المدينة ويتعاطى أسباب التجارة فيصير زنجيناً (غنياً موسراً) فيتخلق في أقرب وقت بالأخلاق الإفرنجية ويبني له قصراً على طرز بلاد الإفرنج . ويمشي هو وامرأته في الطريق يده في يدها ، ويتحادثان بمرأى ومسمع من الناس . وأكثرهن جميلات الصور ، بديعات المنظر ، تفتتن بهن الرجال ولا عليهن في ذلك من باس . ولقد ساعدهن على ذلك كثرة الأموال وسخافة عقول الرجال . فإنهم يرون

ان الشرف والمقام في بروز حريمهم متبرجات بالزينة ليرى الناس أثر النعمة والرفاهية عليهن، فيقابلن الرجال بدلاً عن أزواجهن، ويجالسنهم ويجانسنهم بالمحادثة والمضاحكة . ويكون الرجل في ذلك الوقت مشغولاً بأشغال تجارته وزراعته . وبهذا الذي يظنونه تمدناً اشتبه الحال وزاد الاختلال ، فلا يدرى حال المرأة وهي مارة بالطريق مع رفيق، أهي مع حليلها أم خليلها . ومع كل ذلك فان بعضهم يشددون النكير على المسلمين في منع نسائهم من كشف الوجوه، ويقولون إنه حصر لطبيعتهن ، وهن من الجنس اللطيف ، والعبرة بحفظ الباطن وما دروا أن الظاهر عنوان الباطن . والنظر بريد الزنا والطريق اليه . يجعلون محاسن الدين عيوباً وحسناته ذنوباً . تمشي نساؤهم في الأسواق كقطيع الظباء أو كنعاج الفلا تعسفن رملاً . ويقولون هـذا التمدن والظرافة والحرية ، وهي خصلة باسم عدم الغيرة والناموس حرية. ولا أظن أن في المدن الإسلامية من يضاهي نصارى بيروت في تقليد الإفرنج .

نعم إن في أهل مصر الآن خروجاً عن الآداب وتهتكاً فاحشاً في الارتكاب ، إلاّ أنهم لم يزالوا على رسومهم الأصلية في الملبس ، إلاّ قليلاً منهم ، لكنهم زادوها تنميقاً وتزويقاً فقط، ولم يغيروا الزي القديم . فالرجال بعمائمهم وجببهم إلاّ أنهم صغروها وضيقوها . والنساء بحبراتهن وبراقعهن إلاّ أن في قلب البراقع عقارب كما تقول العامة (تحت البراقع سم ناقع) . فكأن هؤلاء يظنون أن تقليـد الإفرنج هو أفضل من البقاء على الفطرة الأصلية ، لا بل هو يفك عرى دينهم ويوجب الشك في يقينهم .

وأمـا عوائدهم في المأكل والمشرب فهي لطيفة جدّاً ينزل الشخص منهم في بكرة النهار إلى السوق فقبل أن يفتح مخزنه أو دكانه يذهب إلى اللحام (الجزار) فيشتري منه اللحم ، وإلى الخضري فيشتري منه الخضرة متممة بحامضها وليمونها وفاكهتها وسلطتها ، ويضع ذلك كله في سل (سبت) ويرسله إلى البيت مع صانعه ، إن كان ممن لهم صانع ، وقليل ما هم ، أو

أجير يعطيه مصريتين ويذهب بهذا السل إلى البيت فيوصله إلى ربة المنزل أو الصانعة التي عندها . ويذهب الرجل بعد ذلك إلى محل شغله حتى إذا فرغ منه قريب الغروب ذهب إلى منزله فرأى العشاء حاضراً ناضراً فيأكل وينام إلى مثله من اليوم الثاني ، وهلم جرا . وقد يخرج بعد العشاء إلى المقهى فيشرب الأرجيلة والقهوة إلى أن يمضي من الليل نحو ثلاث ساعات أو أقل أو أكثر ويرجع إلى بيته .

وأما السهر عندهم في البيوت فلا يكاد يوجد إلاّ مع الأهل والأقارب أو على سبيل الندور في بيوت بعض الأمراء والذوات ، كبيت السيد فتيحة وبيهم وما أشبه ذلك .

ومن الخصال الحميدة في هذه المدينة ، أنه لا يوجد فيها تجاهر بالمعاصي أصلاً كشرب خمر وزنى وغير ذلك بالنسبة للطائفة الإسلامية . وأيضاً فالمقاهي الموجودة بها بل وبغالب مدن الشام لا توجد فيها أشياء من المسكرات أو المخدرات كالحشيش والشيرة والبسط التي عمت البلوى بها في مصر . فذلك مما تغبط عليها أهل بلاد الشام ، صانها الله مما يشينها وجميع بلاد الإسلام ، بجاه النبي عليه الصلاة والسلام .

كثرة المدارس

ومما يغبطون عليه أيضاً كثرة المدارس وإدخالهم الأولاد فيها ذكوراً كانوا أو إناثاً لأجل التعليم . فيتعلمون فيها المبادىء الدينية أولاً ، وجانباً من القرآن العظيم والخط والحساب والهندسة والجغرافيا واللغة التركية وبعض الألسن الإفرنجية ، فتارة يبقى التلميذ في المدارس يتدرج من واحدة إلى أخرى حتى يتم تعليمه . وتارة يخرج منها إذا كان يحتاجه أبوه لمساعدته في أشغاله فيخرج ذكياً فطناً حسوباً كاتباً ماهراً ، فيحفظ دائرته ويلم شعثه . وكذلك

البنت فإنها تخرج قارئة كاتبة متعلمة من الصنائع ما تقدر أن تمون منه نفسها بل وزوجها إن أرادت .

ولقد حضرنا امتحان الجميع في مدارسهم في الامتحان العام في أواخر كل عام ، فرأينا فيهم من النجابة والإجابة ما يملأ القلب مسرة والعين قرة ، ولا سيما مدارس البنات فهن في غاية الثبات في الحساب والإعراب والقراءة والتجويد في القرآن ، وجودة الصنعة في الخياطة والاتقان . ولقد عرضت مصنوعاتهن في مجلس الاحتفال بفحصهن للمبيع فاشتريت بأغلى القيم . ولو رأيت ما يحصل في الفحص السنوي من الاحتفال المهول الذي تجتمع له أكابر البلد وأمراؤها ووجوهها وعلماؤها ، لهبت هذا المجتمع الحاشد وظننت انك لا تقدر أن تقوم فتنطق فيه ببنت شفة . ومع ذلك تقوم البنت منهن فترقى منصة الخطابة وتلقي على الحاضرين خطبة بليغة بلسان ذرب فصيح ، من غير هجنة ولا تلعثم ولا لكنة . فجزى الله خيراً من سن هذه السنة ، وأجزل له العطاء والمنة ، وجعل مقر روحه الجنة .

وأما حالة أهل بيروت في الماء فأهل الثروة يدخلون إلى بيوتهم الماء في حيات من الرصاص ويصنعون لهم البرك اللطيفة من الحجارة والرخام ، وفي وسطها النوافر تصب طول الليل والنهار فيها . ويشترون هذا الماء من الكبانية الأوروباوية الموجودة بها إلى الآن وأصله من نهر يسمى (نهر الكلب) منبعه قريب من محل يقال له (ضبيه) ، على نحو ساعتين من البلد ، يصل إليها في قساطل الحديد ويمشي في طرقاتها وشوارعها في تلك القساطل تحت الأرض . وقد عمل في كل حي من أحيائها مجمع للماء على حساب البلدية فيقال له عندهم (الحاووز) يعني البركة الكبيرة مطلق الحظر لكل من يتناول منهم من الفقراء وغيرهم ، كأنه مسبل ، وكذلك في كل مسجد من مساجدها أو زاوية من زواياها بركة من الماء على حسابها أيضاً . ويدفع ثمنه للكبانية بمقادير يسمونها (الأمتار) .

فمن الناس من يشتري قدر نصف متر . ومنهم من يشتري متراً كاملاً . ومنهم الأكثر فالأكثر على قدر حاجته في شرب أو سقاية أرض .

ولقد وصل ماء نهر الكلب إلى بيروت حديثاً بواسطة الكبانية . أما ماؤها الأصلي فموجود إلاّ أنه غير كاف للشرب والسقاية كهذا النهر ويحتاج في تصليحه وجعله كافياً إلى غرامة عظيمة وأهل البلد في غنى عنها الآن . وموجود منه جانب عظيم يجري إليها في مجرى تحت الأرض إلى أن يصب في الحوض الكائن بباب الدركة المشهور قريباً من باب يعقوب المسمى (باب السور) ولها باب آخر يسمى (باب إدريس) في الجانب الغربي منها .

وأما البابان السابقان فهما من جانب القبلة أي الجنوب . وشمالها البحر . ولها باب آخر من الغرب يقال له (باب البزركان) ، ومن الشرق (باب السراية القديمة) .

وقد أحدثوا الآن سراية جديدة في غاية المتانة والظرافة . وصارت الآن مشتملة على دوائر الحكومة كلها من ضابطة ، ومجلس بلدية . ومجلس إدارة ، ومجلس تجارة ، ومجلس قضاء ، ومحل ولاية . ولها ثلاث طبقات عليا ووسطى وسفلى . وجعلوا أمامها بخشة (جنينة) ظريفة منتظمة لها سور من حديد ، وفي طرفيها (بركتان) للماء فيهما نوفرتان ، وفي وسطها قبة ظريفة مرخمة للجلوس ، وفي جميع نواحيها الكراسي لاستراحة المتنزهين فيها مجاناً بدون مقابل . وشرع في كل هذه الدوائر بعد قدومنا إلى بيروت وتمت على أحسن نظام . فنسأل الله لنا ولجميع المسلمين حسن الختام ، آمين .

مطلب في ذكر أسماء إخواننا المصريين المنفيين

واعلم أن الذين وردوا إلى بيروت من المصريين المنفيين من مصر بواسطة الحادثة العرابية هم : الفقير العاجز وأخوه ، والأستاذ الشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الرحمن عليش ، وأحمد بك فرج ، وحضرة أحمد بك عبد الغفار (ميرالاي) ، وحضرة مصطفى بك عبد الرحيم ، (كذلك) وحضرة حسن بك جاد ، (كذلك) وحضرة خليل بك كامل ، (كذلك) وحضرة خضر بك خضر (قايمقام) ، وحضرة محمد بك الزمر ، (كذلك) وحضرة فوده بك حسن ، (كذلك) وحضرة عيد بك محمد ، (كذلك) وحضرة محمود أفندي أحمد (ساقول أغاسي) ، وحضرة إبراهيم أفندي اللقاني (من الملكية) وكان مستخدماً في الداخلية ، وحضرة حسن أفندي الشمسي (محرر جريدة المفيد) ، وحضرة السيد عبد القادر أفندي الغرياني من أعيان تجار الاسكندرية ، وحضرة الشيخ أمين أبي يوسف من طلبة العلم بدمياط ، والشيخ يوسف إسماعيل الصغير من بني أحمد بمديرية المنيا ، والشيخ علي أبوحسين من نزلة حسين بالمنيا أيضاً ، وحضرة أحمد أفندي رشوان الدشناوي من مديرية قنا وكان في العهد القديم (ناظر قسم أول الجيزة) ، ومحمد أفندي الصدر ، وشيخ العرب حسين مطيريد ، والشيخ مصطفى الكردي ، وآدم آغا الأرنؤطي ، ومصطفى بك النجدي .

فأما الفقير وأخوه فلم نبرح من ولاية سوريا أصلاً منذ دخلناها . غير أننا توجهنا إلى صيدا واللاذقية وطرابلس ويافة والقدس والشام الكبيرة ، لغرض الزيارة والتفسح وتبديل الهواء فقط . وسنأتي على ذكر هذه السياحات في موضع آخر من هذا المجموع إن شاء الله تعالى .

وأما إخواننا المصريون فقد سافر منهم إلى الاستانة حضرة خليل بك كامل وعيد بك وأحمد بك فرج ، ثم رجعوا منها إلى رودس وأزمير ، إلى أن انقضت مدة أحدهم وهو أحمد بك فرج فرجع معه من أزمير حضرة صهره وعيد بك ، وبقي بها خليل بك كامل إلى الآن .

وتوجه أحمد بك إلى مصر ، وبقي عيد بك معنا في بيروت إلى الآن .

وسافر حضرة الشيخ محمد عبده إلى باريس ببلاد فرنسا واجتمع الى أستاذه الشيخ جمال الدين الأفغاني وأنشأ جريدة عربية يقال لها (العروة الوثقى) جل مقالاتها في التنديد على سياسة الانكليز في مصر ، والتقبيح لما صنعوا فيها من بث الدسائس ، ومخادعة الدول في شأنها ولا سيما الدولة العلية . والغرض تنبيه الأفكار على ما أضمروه تحت الأستار ، وإظهار الإصلاح والراحة لأهل مصر . ولم يظهر من تلك الجريدة إلا نحو السبعة عشر عدداً ، ولم تساعده الأقدار في الزيادة على هذا المقدار . إذ من المعلوم أن لكل خير مانعاً بل موانع والله عن عباده العاجزين يدافع . وقل ما شئت في جودة هذه الجريدة ، وعبارتها البارعة المفيدة ، المشتملة على المقالات الفريدة ، البديعة المثال التي لم ينسج بعد لها على منوال ، ثم توجه حضرة الشيخ محمد عبده إلى لندره عاصمة بلاد الانكليز ، واجتمع بكبار الوزراء بها ، ثم رجع إلى باريس ، ومنها إلى تونس الغرب ، ومنها إلى بيروت . وهو الآن مقيم بها ، وقد انقضت مدة نفيه ، إلى أن يقضي الله أمراً كان مفعولاً . وسافر مصطفى بك النجدي إلى الأستانة ، فهو مقيم بها إلى الآن . وتوجه الشيخ عبد الرحمن عليش إلى دمشق ، ونزل ضيفاً مكرماً على حضرة الأمير السيد عبد القادر الجزايري ، أسكنه الله فسيح الجنان ،

فأكرم مثواه وبالغ في قراه . إلاّ أنه لسوء البخت ونحوسة الوقت عاجله المنون فلعبت به الظنون وتوهم ما لا يكون ، فرجع إلى بيروت ثانياً عنانه وتوجه إلى الأستانة وأقام بها مدة في أرغد عيش . ثم دعت الحال إلى انتقاله إلى رودس فسافر إليها وأقام بها إلى الآن .

وتوجه أحمد أفندي رشوان إلى الشام مراراً ، وأقام بها مدة طويلة وفي ضواحيها ، وسافر منها إلى حمص وحلب وحماه وإنطاكية واللاذقية وطرابلس ، وسافر معنا أيضاً إلى صيدا وصحبنا في التوجه إلى دمشق وفي مرورنا على الناصرة وطبرية . وما زال يقضي الأيام والليالي بالسياحة والسفر والتنزه ، إلى أن مضت مدته فتوجه في هذا العام إلى مصر .

وكذلك محمد أفندي الصدر ، بعد مضي السنة التي هي مدة نفيه رجع إلى وطنه .

وكذلك الشيخ علي أبو حسين ، وشيخ العرب حسين ، وآدم آغا بعد مضي السنتين اللتين هما مدة نفيهم سافروا إلى مصر .

وكذلك إبراهيم أفندي اللقاني ، وحسن أفندي الشمسي ، والشيخ أمين أبو يوسف الدمياطي ، بعد انقضاء الثلاث سنوات التي هي مدة نفيهم ، رجعوا إلى بلادهم .

وباقي الجماعة الذين لم تفرغ مدتهم التي هي ما بين أربع سنوات أو خمس أو ثمان ، باقون في محلات إقامتهم إلى أن تفرغ المدة ، أو يأتيهم الفرج الإلهي من عند الله القادر على فرج العبيد ، الفعال لما يريد ، وهو القاهر فوق عباده وهو الحكيم الخبير .

وحيث كان هذا النفي عقيب الحادثة واشتعال لهيبها واشتغال القلب بها واحتراق الفؤاد بما حصل بسببها من الإهانات والتعذيب والتبعيد والتقريب .

كان كل من الجماعة الملكية والجهادية ينسب هذا الأثر المحزن المسيء للطائفة الأخرى . ويقول كان الأولى في المسألة هكذا وهكذا .

وبهذه المقالات حدثت هناك حزازات في نفوس هؤلاء الذوات . وقلما اجتمعوا في مجلس إلاّ واشتعل نارها ، وانتشر شرارها. ومع كل ذلك فإنه لا يغني حذر من قدر . وقد تم الأمر وانقضى ولا يعاد ما مضى . ولا يجدي كثرة القيل والمقول بعد الوقوع والنزول . وبالحقيقة فليس أحد منا إلاّ وقد دخل في هذه المسألة . إما أولاً وإما آخراً . والمقاصد والنيات يعلمها عالم الخفيات . والدرجات أيضاً متفاوتة في قوة الحركة وضعفها والمباشرة وعدمها . (وما أبرىء نفسي) من الدخول وإنما أبرئها من قصد السوء فما كان القصد لنا في التداخل أخيراً إلاّ مجرد المدافعة عن الأهل والوطن والملة . والله أعلم بالسرائر ، وهو المطلع على ما في الضمائر .

وبالجملة فلولا هذه الأحقاد في الفائت بدون طائل لكانت إقامتنا بهذه المدينة تعد من الفرص التي ينتهزها الإنسان عند التغرب عن الأوطان وتقلبات الأزمان . فقد استحصلنا على معارف كثيرة من العالم ومشاهدة مشاهد ومعاهد ومعالم ومنازه طبيعية فائقة ، وجبال عالية شاهقة .وأوقفتنا هذه الرحلة على كثير من أخلاق الناس وعوائدهم بما لا نقف عليه ونحن بمصر في طول عمرنا . فيا ليت هذا النفي كان صافياً من كدر هذه المنافرة ، ليكون مشتملاً على محض الفوائد الوافرة . ولكن الوقت غير قابل للصفا ولا مسعف بالوفا — شعر :

ومكلف الأيام ضد طباعها   متطلب في الماء جذوة نار

وعلى كل حال ، فالاقتصار في المقال أولى من التمادي في هذا المجال ، وإلاّ انجررنا إلى الوقوع في الغيبة إذا استقصينا ما وقع في هذه الغيبة . ولم تزل الأشراف تبتلى بالأطراف من قديم الزمان ، والله المستعان على ما كان .

ذكر الذهاب الى صيدا
وغيرها من البلاد الشامية

قد علمتم ما وقع بين الإخوان من كثرة القال والقيل فعند ذلك قلنا قد وجب الرحيل وطاب التحويل . فاستخرنا الله سبحانه وتعالى وعزمنا على التوجه إلى صيدا (لأنها أقرب مدينة أمينة إلى بيروت) بقصد تمضية بعض أيام بها ترويحاً للروح وتنفيساً عن النفس واستجلاباً للسرور والأنس . وكنا إذ ذاك في دار قريب من منزل السادات حماده ودار سعادة فخري بك المصري بن محمود باشا متسلم بيروت سابقـاً ، وكان ناظر الماليـة المصرية أسبق من ذلك . وتلك الدار ، منسوبة لرجل يقال له الشيخ صالح طبارة ، دار محفوفة بالأشجار فيها بركة ماء مدرار ، وعلى جميع أسطحتها دوالي العنب دانية الجنا حلوة المجتنى ، بحيث أن الجالس في حذاء شبابيكها يتناول قطوف العنب وثمر الليمون وغيره ، وزهر الورد والياسمين وباقي الرياحين . فلما أن صممنا على السفر أغلقنا باب الدار على ما فيها من الأثاث والمتاع خوفاً عليه من الضياع . واستأجرنا خيولاً من المكارية وسافرنا إلى صيدا صباح اليوم فما وصلنا إلا وقد صارت الساعة العاشرة أو أكثر . وطريقها على شط البحر أو قريب منه . وفيها محلات للاستراحة يقال لها في اصطلاحهم (الخانات) تنزل الركاب فيها للأكل والشرب لأن فيها حوانيت لبيع الأشياء التي تلزم للمسافرين من خبز ولبن وعلف للمواشي ، وفي أثناء الطريق قريباً من صيدا خان مشهور بخان سيدنا يونس ، عليه السلام ، وفيه مزار له . يقال

إن هذا المحل هو الذي خرج فيه من البحر بعد التقام الحوت له ، والعلم عند الله تعالى .

ولقد نابنا في هذا الطريق مشقة شديدة من السير لصعوبة الأرض بالنقارات التي فيها وهي كناية عن صخور وأحجار صغار وكبار معترضة في وسط الطريق المسلوك وليس هناك طريق آخر غيره إلاّ طريق الجبل . وهي أدهى وأمرّ . وما زلنا نعجب من هذه الطرقات إلى أن سافرنا إلى القدس ، فعلمنا أن طريق صيدا بالنسبة إلى الطرق التي في جبال القدس والخليل ونابلس من أسهل ما يكون في تلك البلاد ، ثم أننا في أثناء السير وصلنا إلى نهر يقال له (نهر الدامور) ينحدر الماء منه نازلاً من الجبل انحداراً شديداً . ولقد سمعنا قبيل سفرنا من بيروت أنه غرق في هذا النهر رجل شامي وولده أخذهما التيار وألقاهما في البحر لكونهما أرادا قطع النهر من قرب مصبه في البحر الملح . ولذلك أبعدنا عن المصب وقطعناه إلى الجانب الآخر ونزلنا بصيدا في بيت الحاج إبراهيم الديماسي . أحد الأخوان الصاوية من تلامذة الشيخ محمد الجسر الطرابلسي . تعرفنا به في بيروت من حضرة السيد محيي الدين حماده ، وقد أرسل له وصية في جواب من طرفه يعرفه فيه بقدومنا وإرادتنا النزول في داره.وقد حصل . ودخلناها فوجدناها على شط البحر مشرفة عليه وأخلى لنا منها الدور العلوي بتمامه لأجل جلوسنا ونومنا ومن معنا من الأتباع .

وصار الرجل وولده الشيخ أحمد وعياله في خدمتنا ليلاً ونهاراً وتواردت علينا أهل البلد للزيارة والتسليم .

فمنهم . قائمقام صيدا إذ ذاك . وهو حضرة أحمد بك شكري .

ومنهم رئيس البلدية بها . وهو حضرة إبراهيم آغا الجوهري . وأولاد أخيه.

ومنهم . مفتي البلد . حضرة الفاضل الحاج عثمان أفندي الزين .

ومنهم . قاضيها إذ ذاك . حضرة العلاّمة سليمان أفندي حسبي .

ومنهم العالم العامل الصالح الورع الشيخ زكريا (خليفة الصاوية) فيها من تلامذة الشيخ محمود الرافعي ، وحضرة أخيه الفاضل الكامل الشيخ ياسين أحد المدرسين بها المنتفع به في التعليم .

ومنهم السيد الشريف العالم العامل ، الشيخ أحمد أفندي الزين ، نقيب الأشراف بها ، وسبق له مجاورة بالجامع الأزهر قديماً . وحضر على الأستاذ الباجوري . وغيره من أفاضل الوقت .

ومنهم حضرة حسين أفندي السوري وأخوه .

ومنهم عبد السلام أفندي الحلاّق وولده عبد الغني أفندي . الأول خبير بالجراحة والطب ظريف المسامرة لطيف المحاورة . والثاني ساعاتي في السوق بجوار البحر . كثيراً ما كنا نجلس عنده في دكانه لكونها في ممر الناس ومفارق الطرق منشطة مبسطة .

ومنهم الوجيه الحاج محمود المجذوب . دعانا إلى منزله العامر وصنع لنا وليمة فاخرة .

وكذلك جناب مفتي أفندي الحاج عثمان الزين . دعانا إلى منزله في طرف البلد من الجانب الشرقي مطل على الجناين والبساتين وتناولنا عنده طعام العشاء .

وكذلك حضرة إبراهيم آغا الجوهري ، دعانا إلى منزله بالبستان فرأيناه محلاً ناضراً زاهياً زاهراً .

وفي صيدا من المشاهد والمزارات المشهورة مزار سيدنا يحيى بن زكريا في أعلى الجبل في محل مشرف على البلد والبحر في غاية النضارة . بين البلد وبينه نحو النصف ساعة كلها بساتين وجناين ، وهو من الجانب القبلي وقريب منه بيت الشيخ عبد الرحمن السن ، رجل مشهور بالصلاح والخير . تلميذ الشيخ

محمود الرافعي . ولمولانا السلطان الأعظم ، عبد الحميد خان ، حسن اعتقاد فيه والتفات إليه . ولقد زرته في مروري على طريق سيدنا يحيى فرأيته رجلاً خمولاً ذا انكسار وخضوع .

ومن مزاراتها أيضاً مزار سيدنا شمعون ، في الجانب الشرقي منها على يسار الذاهب إليها في طريق بيروت قريباً من العمران على شاطىء البحر . يخرج إليه أهل البلد في الغداة والعشي لشم الهواء . وفي الجانب الغربي منها مزار الشيخ أبي روح ، خارج السور على بسيط من الأرض بجانب البحر أيضاً ، وهو محل نشيط جداً . وفي وسط البساتين من جهة القبلة مزار سيدنا صيدون ، يقولون إنه من الأنبياء أيضاً . وبها قلعة في البحر متصلة بالعمارة بواسطة جسر مبني من الحجارة ، يسمى في إصطلاح أهل مصر بالقنطرة ، وهي قديمة جداً وفيها مدافع من الحديد يرى عليها أنها قديمة العهد جداً ، وفيها مدافع أخرى مركبة على عجلات مكتوب عليها اسم محمد علي باشا ، تركها المصريون فيها من أيام دخولهم البلاد الشامية مع إبراهيم باشا المصري . وصيدا هذه بلدة صغيرة الآن بالنسبة لباقي مدن الشام وإن كانت في قديم الزمان مدينة مهولة كما يدل لذلك التاريخ والآثار . وبها من البساتين ما يروق الناظر ويدهش الخاطر، تشم في أيام الربيع زهر الليمون والبرتقان وروائحه الزكية من مسافة بعيدة وأنت داخل على البلد أو وأنت في داخل المدينة . وبالجملة فهي بلدة عذبة الماء ، جيدة الهواء ، خصوصاً في أيام الربيع لطيب نفح زهرها البديع .

وفي الجنوب الغربي منها على نحو ساعة مزار (لسيدنا داود عليه السلام) في أصل جبل عال على رأس واد هنالك به أشجار ومزارع يصب في بركة (أمام المزار) ماء نبع غزير في رأس الجبل شديد البرودة ثم يسيل من تلك البركة إلى الوادي فيسقي منه الشجر والزرع .

وفي الجنوب الشرقي في رأس جبل هناك مزار يقال إنه قبر (شرحبيل الصحابي الجليل) . فكنا مدة إقامتنا بها نأخذ الغداء منها بكرة ونذهب إلى

مزار من تلك المزارات ونمر على البساتين ذهاباً وإياباً ونقضي مدة النهار خارج البلدة إلى أن يرجعنا إليها الليل والمبيت ، لما نجده من الانشراح في الغدو والرواح.

وفيها عدة مساجد ظريفة ، إلاّ أن ألطفها بنياناً وأعظمها إتقاناً ، وأحسنها موضعاً وأتمها موقعاً ، الجامع الكبير العتيق الذي جددت فيه وأصلحت بعض خلله والدة خديوي مصر السالف (إسماعيل باشا) بواسطة المرحوم الشيخ أبي خليل أباظه ، فإنه من أهالي صيدا ولم يزل بيته فيها من أعظم البيوت . وأولاده مقيمون بها إلى الآن ولكنهم في هذا الوقت مستخدمون في خدامات الدولة العلية برتبة القائمقام بقضاوات ولاية سورية . وكان ذهابنا إليها ورجوعنا منها في سنة ١٣٠١ ألف وثلثمائة وواحدة ولم نزل مقيمين ببيروت إلى تاسع شهر ذي الحجة الحرام من سنة ١٣٠٢ ألف وثلثمائة واثنتين .

ثم عزمنا على السفر إلى طرابلس الشام للتفسح وزيارة مشايخنا وإخواننا الطرابلسيين الذين كنا نعرفهم في مدة المجاورة بالأزهر . لأن كل من حضر منهم إلى بيروت يلح علينا في التوجه إلى زيارتهم في بلدهم وكذلك من لم يحضر إليها يرسل إلينا بطلب ذلك . وعند إرادة السفر لم نجد إلاّ الوابور العثماني متوجهاً بدولتلو المرحوم (أحمد باشا حمدي) الوالي إلى اللاذقية فلم ننكث العزم لذلك ، بل قصدنا زيارة السلطان (إبراهيم بن أدهم) فإنه بجبلة ، الكائنة بجوار اللاذقية . وتوكلنا على الله سبحانه وتعالى ونزلنا الوابور وسار بنا تلك الليلة وبتناها كليلة الملسوع من شدة قيام البحر وقعود همة الوابور . فما أصبح الصباح وانتشر الضياء ولاح ، إلاّ وقد وصلنا ميناء اللاذقية . وكان في الظن أن ندرك صلاة عيد النحر بعد الخروج من البحر . فلم يساعدنا الحظ المنكود مع بذل غاية المجهود ، ومن شدة كبر البحر في ذلك اليوم كان البعض من الركاب في الوابور يلقونه إلى القلايك رمياً لبعد ما بينهما وبين سلم الوابور ، فمرة تراها مرتفعة مع الأمواج ومرة منخفضة عن السلم . وما زلنا نطلب من الله السلامة إلى أن خرجنا إلى البر فوجدنا شاطىء البحر غاصاً بأهل البلد

المقابلين بلجناب الوالي الأفخم . واستقبلنا حضرة (السيد محمد) الاسطى الطرابلسي الأصل فإنه كان مستخدماً بتلك الجهة وله منزل باللاذقية وكان معنا في هذه السفرة حضرة (السيد محمد علي) الخوجة ، أخو (السيد محمود) الخوجة ، فكتب إلى هذا الأفندي تلغرافاً يفيده فيه عن قدومنا ، فاستقبلنا الرجل بكل إكرام وإجلال واحترام ، وذهب بنا إلى منزله واشتغل بملاقاتنا وخدمتنا عن ملاقاة الوالي وخدمته . وأقمنا بمنزله نحو الثلاثة أيام وجاءنا من وجوه البلد وعلمائها من لا نعرف أسماءهم جميعاً إلاّ أننا نعرف منهم حضرة الأستاذ الشيخ (عبد الفتاح المحمود) من أعظم أهل العلم نفعاً بها ، وله نظم الإظهار ، وشرحه في النحو ، وأهدى إلينا نسخة منهما فوجدناهما في غاية الظرافة والسلاسة والانسجام . وكذلك الشيخ الفاضل العالم الكامل (محمد أفندي صالح) أديب شاعر ، ناظم ناثر ، وخطيب مسجد الولي الكبير والعلم الشهير الشيخ (محمــد المغربي) ، صاحب الكرامات البـاهرة والأسرار الظاهرة جاء من بلاد المغرب وأقام باللاذقية من عهد غير بعيد وما زال بها مشتغلاً بالإرشاد والتعليم ، إلى أن انتقل إلى دار النعيم ، ودفن في أعلى بقعة في البلد كانت محل قلعة قديمة . فترى على مسجد هذا الولي وضريحه من البهجة والرونق والنور الواضح المشرق ما يدركه كل ذي نظر ولا يخفى إلاّ على فاقد البصر. والجالس في هذا المزار المتلألىء بالأنوار يرى البلد والبحر أسفل منه في غاية النضارة .

ومن جملة من اجتمع بنا فيها حضرة قاضيها ومفتيها ، وحضرة الأستاذ الشيخ (عبد الوهاب الصوفي) وولده ، وهو رجل عالم فاضل صالح حنفي المذهب ، كان مجاوراً في الأزهر مدة استاذنا الشيخ (الباجوري) ، وكان له مرتب عظيم في الأزهر نحو الألف القرش ، إلاّ أنه زاد به الشوق والحنين إلى وطنه فلم يستطع صبراً على الإقامة بمصر فترك دروسه ومرتبه ورجع إلى بلده . ولقد رأيناه وحاله في الدنيا حال الفقراء ولورعه وصلاحه لا يرضى

بالدخول في الحكومات . إلاّ أنه من بيت شهير يقال له بيت الصوفي منهم الشيخ (محمد صالح) المتقدم الذكر ، والشيخ عبد اللطيف الصوفي أخوه موظف في الحكومة بوظيفة لا أتذكرها الآن .

وأخبرني الشيخ (عبد الوهاب) المذكور ، انه في مدة مجاورته بالأزهر اجتمع بحضرة الوالد وتلقى عنه طريقة الخلوتية ولم يزل مشتغلاً بعهد الأستاذ الوالد ووِرده إلى الآن لا يترك ذكره وقراءة الفواتح والدعاء الصالح له ولأولاده عقب كل صلاة . ولقد فرح بنا هذا الشيخ فرحاً شديداً ، وكلفنا دخول منزله لقصد حصول البركة من حسن عقيدته ، مع أننا والله ، مفتقرون لدعاء مثل هذا الشيخ والتبرك بمقابلته ومصافحته . وله ولد أسمر اللون مشتغل بالعلم أخبرنا أنه من جارية تسرى بها في مدة المجاورة فرزق منها بهذا الولد النجيب .

ومن جملة أعيان البلد أولاد هارون عائلة مشهورة دعونا إلى منزلهم وصنعوا لنا وليمة عظيمة وزادوا في الاحتفال والإجلال وكذلك (محمود بك) الخازندار جاء لزيارتنا مراراً عديدة .

ومدينة اللاذقية هذه أشبه شيء ببلاد مصر في بساتينها ولون أرضها ووجود الطواحين الشبيهة بطواحين بلاد مصر على الحيول ، وكذا النواعير أي السواقي . وبعد أن أقمنا بها ثلاثة أيام تركنا جناب الوالي في أشغاله وتنظيماته واستأجرنا دواب من المكارية وتوجهنا لزيارة السلطان (إبراهيم) بن أدهم في بلد قريب منها يقال لها جَبَلة . وكان معنا حضرة (محمد أفندي علي) الخوجه (وأبو رضا السيد عبد القادر) كيوان من تجار دمشق وذلك بعد ظهر الجمعة وصلاتها في مسجد الأستاذ (المغربي) . فما وصلنا جبلة إلاّ قريب الغروب ونزلنا في بيت (محيي الدين) أفندي صهر الخوجه محمد علي ، وبعد الغروب توجهنا لزيارة ضريح ابن أدهم رضي الله عنه وأرضاه ، فوجدناه مزاراً عالي المنار واضح

الأنوار، يدهش الناظر وينعش الخاطر، تظهر عليه أبهة الملك والسلطان والفتوة والإحسان . وفي مسجده من الآثار والبنيان والاتقان ما يشهد لهذا السلطان بأنه قد خدمته ملوك الزمان .

ففي دوائر الحرم عدد كثير من الخلوات المعدة لنوم الغرباء والنزلاء برحابة الرحب ، والواردين على مورده الزلال العذب ، والوافدين على بلاد الشام من الهند والسند والعرب والأعجام . وفي دائرة الحرم حمام عذب الماء مجرب للشفاء ، وفي وسطه بركة ماء كبيرة جداً ، وحولها من شجر السرو شجرات كأنها في العلو منارات . وكنا في مدة الإقامة بجبلة نصلي غالب الأوقات بمسجده الشريف ومزاره المنيف. ونبسط أكف الضراعة والابتهال في التوفيق لصالح الأعمال وبلوغ جميع الآمال . ولقد أنشأ الفقير قصيدة استغاثية وشكوى حال واقعية، وجعلتها في صورة عرضحال بسبب ما وقع لنا من الغربة والارتحال ، وقدمتها لجنابه وألقيتها في رحابه ، متوسلاً إلى الله بكل أحبابه ، ومفاتيح أبوابه . وها أنا أذكر لك هذه القصيدة بتمامها ، وإن لم أكن قد أجدت في نظامها، فإن الشيء يحسن بحسن موضوعه ، والتابع يشرف بشرف متبوعه . وهي هذه :

جئت والوقت بالمكارم أظلم	أبتغي العون من جناب ابن أدهم
الإمام الهمام رب المعـــــالي	بازخ المجد في الطراز المقدم
مأمل الآملين في كل خير	ملجأ الخائفين ان أفرط الهم
معدن الجود في الوجود فزره	فحماه للكل مغنى ومغنم
حرم الأمن كعبة اليمن لكن	بيتـــه للوفود غير محـــرم
قطب غوث يغيث من حل فيه	ويحـــل المقود مـــا لم يحتم
ما أتى حيه طريد خطوب	يشتكيها الا وأجـــلى وأنعم
بحر فضل يعم فيض عطاه	كل راج لـــذلك اليم يمم
جئت في حالة افتقـــار وذل	وانكسار والله بـــالحال أعلم

وفؤادي عـلى الضريح ينادي … مـا لهذا الجريح غيرك مرهم
مسني الضر من عوادي زمان … وقد الجمر في الضمير وأضرم
من مجيري ان جار دهري جهاراً … واجترى عـادياً علي وأجرم
فالتفت سيدي لعبـد ذليل … وتعطف واسمح له وتكرم
رد عنه كيد الزمان ودارك … أرض مصر فالكرب فيها تجسم
حل فيهـا من العداة عوادي … قـد تعدى عدوهم وتحكم
والزمان الخؤون أخنى عليهـا … وأحال الغريم لكن لمغـرم
يـا امام العلوم أنجد مريداً … هو بالحب في جنابك مغرم
قد عرضنا عليك قصة حال … ثم ننهي في الحال عما تقدم
فهي عند السلطان ترفع شكوى … وهو أحنى على الرعايا وأحلم
جئت ضيفاً في حيكم ونزيلا … زائراً ذلك المقـام المعظم
فارتحالي للشام غـير حـالي … وانتحالي أوهى فؤادي وأوهم
أنت باب للفتح والمنح حقاً … والنوال العميم منك لقد عم
فتحنن يا ابن الكرام علينـا … علّنا من حوادث الدهر نسلم
شد يا أدهم الرجـال عليهم … خيل عزم على النزال مصمم
واعترضهم ان جئت عارض رمح … هو أقوى على الدفاع وأقوم
عظم الكرب والبـلاء علينا … وعزيز الإسلام بالذل سلم
فالنزال النزال واجلب عليهم … وأبدهم بجيش سر عرمرم
بشرتني بشائر الظن فيكـم … ونسيم القبول لمـا تنسم
وتغنى حادي الركائب يشدو … بسرور عـلى صفاه وزمزم
يا فريداً في الزهد والمجد جمعاً … يا وحيداً في الجود مثلك يرحم
فتعطف يا قطب وارحم ودافع … عن نزيل وقل مرادك قد تم
صلى ربي على المشفع طـه … أحمد الرسل والكريم المكرم
وعلى الآل والصحابـة طرا … وعليهم رضوان ربي وسلم

وقد أنشأ حضرة أخي الشيخ أحمد قصيدة استغاثية بجنابه ووضعها في رحابه وهي هذه :

الى علياك كم جزنا البوادي ... وجبنا كل منعطف ووادي
أتينا للكرامة من بعيـــــد ... فإنك ذو الكرامات البوادي
دخلنا للحمى ولسوف نحمى ... من القوم العدا ومن العوادي
أحاطت للخطوب بنا جيوش ... أضرت بالجسوم وبالفؤاد
وحاربنا الزمان بكل كرب ... على جرد من البلوى جياد
رمى فأصاب منا كل شهم ... وما طاشت سهام للأعادي
وجرد سيف عدوان وبغي ... واغمده بأعناق العباد
وأغرى أهله بذوي المزايا ... فبدد شملهم في كل نادي
ولم يزل الزمان على عتو ... يعاملنا بأنواع العناد
ومن كان الزمان له طريداً ... تقهقر عن متابعة الطراد
وما نال المؤمل من دفاع ... وهيهات الوصول الى المراد
توجهت القلوب إليك غرثى ... وحاشا أن ترد بغير زاد
رفعنا قصة الشكوى خضوعاً ... بخفض جناح ذل واعتقاد
ومن حق اليقين نرى قبولاً ... وسراً جازماً بالاستناد
نصبنا راية الفوز المرجى ... على الأعدا بحسن الاعتماد
ومن كانت شكايته لمولى ... هو الأستاذ يظفر بالمعادي
هو السلطان إبراهيم نجل ... لأدهم والجواد ابن الجواد
غياث المستغيث وعون عان ... ومأمن خائف وأجل هادي
إمام في العلوم وفي المعالي ... وبحر في المعارف والأيادي
همام كامل بطل شجاع ... كريم كافل غوث المنادي
فحدث عن مكارمه وبالغ ... وداوم ما استطعت على التمادي
فإنك عاجز ما دمت حياً ... ولو أفنيت أنواع المداد

وكيف ينال من يرمي بأرض نجوماً وهي في السبع الشداد
وكن بشفـــاعة المختار راج بلوغ القصد في يوم المعاد
عليه الله صلى مـــا أعيدت إلى علياك كم جزنا البوادي

ولقد زارنا من أهل جبلة حضرة مفتّي أفندي الشيخ طه ومن وجهاء البلد وأعيانها المعتبرين ، وله شهرة بالسخاء والفتوة ، وهو ناظر وقف السلطان (إبراهيم) الذي يدير حركة الضريح والمسجد والحرم ، ويقري الضيفان والوفود بأنواع الكرم . ولذا قال فيه الشيخ (حسن أفندي) الدجاني مفتّي (يافا) عندما زار مقام السلطان (إبراهيم) وسئل عن أهل جبلة :

يا سائلي عن جبلة ومن بها من الكرام
قلت لــــه مقتصراً طه أفندي والسلام

ولقد اجتمعنا في حرم السلطان (إبراهيم) برجل من أكابر (علماء الأفغانستان) على جانب عظيم من الورع والزهد والتجرد عن الدنيا ، اسمه الشيخ (عبد الرحيم) وإن كانت شهرته باسم (عبد الباقي) في أصل بلده نوشهر من عمالة (باشاور) الداخلة الآن في حكومة الانكليز . وقد زارنا في القايات بعد مدة طويلة من السنين ولم يزل كل هذا الزمن متذكراً لأسمائنا ، واسم البلد ، حتّى جاء إلى بلاد مصر وسأل عن البلد وحضر عندنا في سنة ١٣٠٧ في ١٠ شعبان مكث عندنا ثلاثة أيام وتوجه إلى الأقطار الحجازية من طريق القصير . ولقد دعوناه للاقامة فلم يرض إلاّ بهذه الأيام الثلاثة فقط فسبحان العليم بحال عباده الصالحين .

وتعرفنا من أهل جبلة بحضرة الشيخ محمد سعيد أفندي ، إمام ضريح السلطان الأدهمي ومدرس بمسجد الشريف . وهو رجل صـــالح دين ظريف على أكمل الأخلاق المرضية والأوصاف الكاملة المحمدية . ثم بعد أن أقمنا بها

نحو الثلاثة أيام حضر الوالي الأفخم في وابوره المخصوص وأجرى ما يلزم إجراؤه عن المكاشفات والملاحظات لأحوال ذلك القضاء ، وبات ليلة عند القائمقام ، وسافر صباحاً ونحن معه إلى طرابلس . فمر بالطريق على قضاء المرقب ونزل بها نحو ساعة . وهي بلدة صغيرة الآن إلاّ أن بها قلعة قديمة تدل على أنها كانت في الزمان السالف من البلاد الحصينة ولها مبان وقلاع متينة . ثم نزل أيضاً على طرسوس ، وهي مدينة كبيرة على شاطىء البحر ، يظهر على صورتها القائمة أنها كانت قديماً من المدائن الشامية ذوات الشأن . إلاّ أننا لم ننزل من الوابور إلى البر في هذين الموضعين بل رأيناهما ونحن بالبحر . فبعد أن نزل بها الوالي أيضاً وأقام بها نحو الساعة أيضاً رجع وسافر الوابور بنا فمررنا على جزيرة إرواد وهي جزيرة في وسط البحر ، في محاذاة طرسوس تماماً ، وليس فيها أرض خالية من البناء ، فعجب لهؤلاء القوم يقيمون بين أمواج متلاطمة وأهوال متعاظمة ، ولاسيما في أيام الشتاء وتزايد الأهوية والأنواء ، كيف تسكن لهذه السكنى قلوبهم ، ولا تتجافى عن المضاجع جنوبهم . ولقد سمعنا بأن تعيشهم من الغوص على إخراج السفنج من قاع البحر ، ويلقون بأنفسهم إلى التهلكة في هذه المخاطر المهلكة . ولكن الله سبحانه قد أقام العباد فيما أراد . ثم لم نزل سائرين في البحر إلى أن وصلنا عشاء إلى ميناء طرابلس ، وخرج جناب الوالي إلى البر باحتفال لا يقدر قدره ولا يمكن حصره . ووجدنا حضرة السيد (عمر أفندي الملا) منتظراً لملاقاتنا على شاطىء البحر فسرنا معه إلى أن ركبنا في كروسة الترامواي المعدة هناك لركوب المسافرين وغيرهم ونقلهم من المينا إلى البلد بأرخص أجرة واهية ، فإن أجرة النفر من المينا إلى البلد أو من البلد إلى المينا قرش واحد فقط ، وهذا من مزايا طرابلس العظيمة . ولما وصلنا إلى المدينة ذهبنا معه إلى منزله وأقمنا به إلى أن تناولنا طعام العشاء ثم حضر على الفور ، بعد بلوغ خبر الحضور ، جناب العالم العلاّمة والحبر البحر الفهامة ، مفرد عصره ووحيد دهره ، الأستاذ الكبير والعلم الفرد الشهير ، والكوكب الأزهر المنير ، شيخ العلماء بطرابلس بلا نكير ، الشيخ عبد الغني

أفندي الرافعي ، وحضرة الأستاذ الأمجد والملاذ الأوحد، نسل الأماجد الكرام وسلالة الأفاضل الفخام، جنابالشيخ عبد الرزاق أفندي الرافعي ، نجل العالم العامل الولي الكامل الشيخ محمود الرافعي . وحضرة الوجيه الأفخم والسيد الأجل الأكرم الشيخ عليأفندي الميقاتي ، نجل العالم المرشد والعلم المفرد، مربي المريدين صاحب العلم والدين ، الشيخ رشيد الميقاتي . واستدعانا الشيخ الأكبر عبد الغني الرافعي إلى الذهاب معه إلى المنزل ، فتوقف في ذلك صاحب البيت الأول وهو حضرة عبد القادر أفندي الملا ، وما زال يستعطف خاطر الشيخ في البقاء عنده فلم يجد نفعاً معه . وكان في نيتنا قبل الوصول إلى طرابلس بل قبل القيام من بيروت أن يكون نزولنا في منزل حضرة الشيخ عبد الرزاق السالف العهد بمعرفته في الجامع الأزهر ، ولسابق المعاهدة معه عندما شرف إلى بيروت في العام قبله . ولكنالجميع لم يقدروا على معارضة الشيخ عبد الغني في مرغوبه ومطلوبه ، فإنه لجميع أهل البلد بمنزلة الوالد والولد ، فذهبنا معه إلى داره العامرة الزاهرة المنورة بأنواره الظاهرة، فما زال يلاطفنا بجميع ملاطفاته ويتحفنا بلطائف معلوماته، وبديع نظمه الغريب ونثره الفايقالعجيب، حتى حان وقت المنام واستأذن القوم للقيام، وانقضى ميقات السهر وإن كنا لم نقض بعد واجب ذلك السمرالذي هو ألذ مفاكهة من جني الثمر . فتركنا وطلع إلى الحرم ونحن في شوق إلى طلعة هذا المحترم، نتلو شكراً فضلإيناسه ونستضيء بسناء نبراسه . فلما لاح الفجر وضاء الصباح ونادى المؤذن بحي على الفلاح ، نزل وأيقظنا بنفسه من النوم ، وبدأ بنا قبل أولئك القوم، فتوضأنا وصلينا معه في جماعة ، وحمدنا الله شكراً على التوفيق لهذه الطاعة . ولم تزل تلك حاله وحالنا حتى آن سفرنا وارتحالنا . وكان من طيب أخلاقه الكريمة وأعراقه الفخيمة، يتولى في بعض الأوقات شؤوننا بنفسه المرضية وذاته الرضية . وكان في غالب الأوقات يسمعنا في كتب التصوف وكلام القوم ما هو أطيب في النفوس من لذة الطعام والشراب والنوم ، ولا يدع أنفاسه تذهب سدى إلا في موعظة أو إرشاد أو هدى . ولا يترك الوقت يضيع فيما يورث المقت من لهو

الحديث أو حديث اللهو أو الكلام اللغو أو الغفلة والسهو . حتى انتفعنا برؤية أحواله كما انتفعنا بسماع أقواله . بلغه الله في الدارين غاية آماله . ومن حرصه على لزوم منزله كان لا يسمح لنا في إجابة الدعوة لأحد من أهل البلد،حتى نسترخص منه حتى حضرة الشيخ عبد الرزاق ابن عمه .

وجاءنا للسلام جملة من العلماء الأعلام والأمراء الفخام منهم : الشيخ حسين أفندي الجسر ، نجل العالم العامل والولي الواصل ، الشيخ محمد الجسر الذي اشتهر في البلاد الشامية بالكرامات الواضحة والأعمال الصالحة ، مثل الشيخ محمود الرافعي والد الشيخ عبد الرزاق ، والشيخ حسين المفتي الدجاني في يافا ، فالثلاثة كانوا نوابغ وقتهم في القطر السوري ، كما حكى لنا الثقاة الذين عاشروهم وعاصروهم ، عم بهم النفع واقتدى بهم الجمع ،وكانوا في المحبة والإخاء كالأخوة الأشقاء ، يعاضد بعضهم بعضاً في المناصرة ولم تؤثر فيهم نفاسة المعاصرة . ودعانا أيضاً حضرة الشيخ حسين أفندي المذكور إلى منزله المعمور،وأكرمنا غاية الكرامة وحضرنا حضرة الذكر عنده فكانت كرامة ثانية ، وكذلك حضرنا مجلس الذكر في بيت الشيخ عبد الرزاق أمام ضريح والده الأستاذ الشيخ محمود الرافعي،فرأينا من حسن هذين الذكرين ما تقر به العين وينجلي به عن القلوب نقطة الغين ، أدام الله النفع بهذين الفاضلين ولطف بنا وبهم في كلا الدارين .

ومنهم الأستاذ الكبير والمرشد الشهير أستاذنا الشيخ (محمد القاوقجي) فإنه تنزل وجاءنا زائراً على ضعف قواه وعظم تقواه وتقدمه في السن وبعد منزله . فجزاه الله عنا كل خير وصرف عنه كل ما يخشى من الضير .

ومنهم السيد علي أفندي العمري صاحب الشهرة الكبيرة والكرامات الشهيرة التي تغني شهرتها عن الذكر ويحار في فهمها العقل والفكر .

وبالجملة فإنه رجل منسوب إلى عالي الجناب سيدنا الفاروق عمر بن الخطاب، وأنعم بهذا النسب فهو من أعلى الرتب .

ومنهم الشيخ عبد الفتاح الزغبي ، عالم فاضل من سلالة الأفاضل من آل بيت السيد الجيلاني ، بيت شريف القدر والمباني . والجماعة الزغبية في تلك النواحي لهم شهرة بالصلاح والولاية إلى الغاية . نفعنا الله بسر عباده الصالحين إلى يوم الدين .

ومنهم حضرة الشيخ أحمد أفندي سلطان ، رجل كبير القدر والعمر ظريف النثر والشعر . محنك مجرّب . مدرب مهذب مؤدب . له عشرة تامة بحضرة مولانا الشيخ عبد الغني أفندي . وكان قد تولى نيابة البلد سابقاً وعزل . وهو رجل ظريف النادرة لطيف المسامرة، ومن كلامه خطاباً لبعض أصحابه:

لما تعالت عن الأشباه صورته أضحى بشرع الهوى قلبي يوحده
أراد قتلي بسيف اللحظ من مقل أو لا فإني على الحالين أحمده

ومنهم الشيخ عبد الله الصفدي ، عالم أزهري صالح ورع محبوب عند أهل البلد ، سليم الصدر من كل أحد . ومحل سكنه بالمينا . فدعانا إليه مع جناب الأستاذ الشيخ عبد الغني فتوجهنا إليها في كروسة الترامواي عصر النهار فما رجعنا إلى البلد إلاّ بعد صلاة المغرب بجامع المينا . وحصل لنا في الذهاب والإياب غاية النشاط والانبساط برؤية البساتين عن يمين الطريق وشماله،ونضارة الأرض في الطول والعرض . وكانت هذه الوليمة من أعظم الملاذ ولا سيما بصحبة هذا الأستاذ ويا نعم الملاذ .

ومنهم العالم الكبير والعلم الشهير البالغ غاية الذكاء والنجابة الذي لا يماثل في التعليم ولا يشابه حضرة الشيخ (محمود أفندي) نشابه ، فلقد تفضل بزيارتنا

بمنزل الشيخ (عبد الغني) وزرناه في الجامع لاجتهاده في التعليم واشتغاله في أغلب أحواله بالتدريس ، على مذهب الإمام ابن ادريس ، أدام الله النفع بهم أجمعين .

ومنهم ، الشيخ العالم الفاضل الأزهري (درويش) أفندي التدمري صاحبنا في المجاورة أيام الطلب . وكان من أخص تلامذة أستاذنا الشيخ (الأشموني) . ولما رجع إلى البلاد اشتغل بما يتعيش منه وهو الوكالة في الدعاوى والمرافعات وقد تغيرت هيئته الخلقية والخلقية عن حاله الأول فصار ضخماً سمين البدن مشهوراً باللسن بعدما كان نحيفاً لطيفاً خمولاً ضعيفاً . وترك العلم والتدريس وضيع ذلك الوقت النفيس . فسبحان الذي بيده التغيير والتبديل وهو الهادي إلى سواء السبيل .

ومنهم ، الشيخ (عبد القادر) الكلاس العالم الأزهري المنفي في الحوادث الأخيرة إلى بلده . واجتمع بنا في بيت الشيخ ثم زرناه في المدرسة فوجدناه مشتغلاً بالقراءة والتعليم وعنده طلبة يأخذون عليه في كتب متعددة . ومدرسته المقيم بها مدرسة ظريفة جداً مطلّة شبابيكها على بستان عظيم مثمر وكذلك مدارس طرابلس كلها عظيمة من بناء الملوك القدماء من سلاطين مصر والشام .

وجامع البلد الكبير في متوسطها له صحن واسع مثل صحن الأزهر أو أكبر ،وفي دوائره أروقة ولواوين من كل جانب وخلاوي للمعلمين والمدرسين . وأعظم خلوة به خلوة الشيخ (علي أفندي رشيد) ، فيها مكتبة عظيمة وساعات دقاقة لمعرفة الأوقات حيث أنه الوقت المعد لإعطاء المؤذنين النداء على أوقات الصلاة ودخولها . وخطيبه حضرة الشيخ عبد الفتاح الزعبي ، وهو فصيح اللسان واضح البيان يخطب من إنشائه لا من دواوين غيره . فلله دره من خطيب ماهر لبيب حضرنا صلاة الجمعة عنده بالمسجد الجامع بحضور والي الولاية الأكرم حضرة دولتلو (أحمد باشا حمدي) الأفخم ، فأطنب في الوعظ

حتى خشع الجمع وانصتوا له السمع ، وحث على الطاعة والتقوى والتمسك بما هو السبب الأقوى ، من استعمال العدل والإنصاف وترك الجور والاعتساف ، حفنا الله وإياه بجميل الألطاف وحفظنا والمؤمنين من كل ما يخاف .

ومنهم الشيخ عبد الحميد الحفار ، أحد أخواننا الأزهريين ، كان مجاوراً هو وعمه العلاّمة الشيخ (عبد القادر) الحفار بالجامع الأزهر مدة من الزمان حتى حصلا كتب الفقه على مذهب الإمام أبي حنيفة والمعقول . ولقد كان حضرة الشيخ (عبد القادر) المذكور يحضر معنا على شيخنا العلاّمة الشيخ (الانبابي) كتاب سلم العلوم في المنطق ، ولم يكن يعرفه أحد في الأزهر أصلاً . ثم جاور بالمدينة المنورة واشتهر بالعلم فيها وهو جدير بهذه الشهرة لمزيد فضله وذكاء عقله وصنع لنا ابن أخيه الشيخ عبد الحميد المذكور وليمة فاخرة دعا إليها كثيراً من المشايخ والأحباب . جزاه الله عنا أجزل الثواب .

ومنهم الشيخ محمود منقاره ، وأخوه ، وهما من أهل العلم والفضل مشتغلان بالقراءة والتعليم في مدرسة من مدارس البلد العامرة بالعلماء والطلبة . فإن مدارس طرابلس ، بالنسبة لغيرها من باقي مدن الشام ما عدا دمشق ، معمورة مأهولة بأهل العلم . فترى غالبهم مختصاً بمدرسة لجلوسه وقراءته وتعليمه واجتماعه على إخوانه وأخدانه زيادة على اشتراكه مع أهل العلم في الجامع الكبير .

ومنهم الشيخ عبد الله المسقاوي ، وأخوه الشيخ عبد القادر المسقاوي . فالأول من الطلبة الأزهريين ، والآخر حضر ببلده وتقلد أخيراً وظيفة خوجه في المدرسه السلطانية ببيروت . وكان في معية حضرة الشيخ (حسين أفندي الجسر) لما توظف في تلك المدرسة بوظيفة مدير المدرسة السلطانية ونعم المدير في ذلك الوقت ونعم المدار . فلقد ظهر على التلامذة في تلك المدة الوجيزة من النجابة وسرعة الإجابة ما لا يدرك في زمان طويل . إلاّ أنه لسوء الحظ لم

تساعده صحته على الإقامة ببيروت وحصل له انحراف في مزاجه ، فتوجه ثانياً إلى طرابلس ليشتغل بعلاجه ورزقه الله الصحة والعافية وجعل مدة عمره وافرة وافية .

ومنهم الشيخ (محمد الحسيني) طالب علم أزهري ، اجتمع بنا أيضاً في بيروت حين ما جاء إليها زائراً لرحمه فيها حضرة الشيخ عبد الغني أفندي البنداق . وصار يتردد علينا معه مدة الإقامة بها . وأخذ من الفقير منظومتي في المقولات المسماة بغاية النشر في المقولات العشر ، وصنع عليها شرحاً وجيزاً إلا أنه كاف بالمراد واف بالمفاد شاف للفؤاد ، وأرسله إلى بيروت قبل سفرنا إلى طرابلس . فلما قدمنا على بلده احتفل بنا غاية الاحتفال وأقبل على مؤانستنا أتم إقبال .

ومنهم الشيخ محمد صالح الرافعي ، ابن أخي الشيخ عبد الرزاق ، شاب شريف مكب على طلب العلم آناء الليل وأطراف النهار ، ذكي الفطنة يشتغل على الشيخ الجسر الذي هو وحضرة الشيخ محمود نشابه لا نظير لهما في الاشتغال وتربية الطلبة ، فيجد الطالب عند كل منهما ما رامه من الفنون وطلبه . وقد صار الآن الشيخ حسين أنفع الاثنين .

ومنهم عدد كثير من السادة الرافعية لا يحضرنا الآن ذكر أسمائهم جميعاً .

منهم أولاد الحاج علي الرافعي ، وأولاد الشيخ سعيد الرافعي ، وأولاد الشيخ عبد الرزاق الرافعي ، والشيخ حامد وأخوته ، وأولاد الشيخ عبد الغني وهم الذكي الألمعي الشيخ محمد ، والشيخ عبد الفتاح وأخوتهما . فإن جميع هؤلاء لرؤيتهم حالة المشايخ معنا في شدة الالتفات إلينا والاعتناء بنا كانوا لا يتأخرون عنا ولا يقصرون في مراعاة خاطرنا . وكان حضرة الشيخ عبد الغني بنفسه يرغب أن يذهب معنا إلى متنزهات البلد مثل المحل المسمى عندهم (بالتل) وهو في الحقيقة تل مشرف على أرض حمراء وبساتين خضراء ومياه

زرقاء ، ومحل دوار القارب في خارج البلد قريب من التبانة في الشمال الشرقي من البلد على شط غدير صغير وعليه جسر نضير . وحواليه بساتين زاهرة ناضرة تقر به كل عين ناظرة ، ومحل القلعة موضع عال مشرف على سائر بيوت البلد وأسواقها ومساجدها وبساتينها ومزارعها وفيه قشلاق للعسكر ومقبرة قديمة بها قبور السادة الزعبية . والجالس فيه يرى البحر والمينا وما بينهما من المساكن والجنائن . فهذا كله سبب في نضارة هذه القلعة وعدها من متنزهات البلد . وفي منخفض الوادي من الجهة الجنوبية منها محل نضير فيه تكية ، تسمى تكية المولوية ، من أعظم المنازه أيضاً لأنها على شاطىءالوادي وتحتها الأنهر المنحدرة إلى البلد وعليها طواحين كثيرة وأشجار نضيرة وفي هذا المحل نفسه بركة ماء بنوفرة عظيمة ترى المياه منها دائماً مدفوعة لا مقطوعة ولا ممنوعة .

وبالجملة فقد حصل لنا من الانشراح والسرور والأفراح النافية للهموم والأتراح ،بالإقامة في تلك البلد ما لا يقدر أن يعبر عنه أحد ، وذلك من عدة جهات :

(أولاً) من الاكرام والتوجهات والاعتناء من أهلها والالتفات .

(وثانياً) من الاجتماع بأهل العلم والجنس إذ في ذلك راحة الروح والنفس وكما لا يخفى (الجنس للجنس أميل) وصحبة العلماء أكمل وأفضل .

(وثالثاً) من كون الشيخ لم يدعنا في غالب الأوقات نضيع الزمن بدون المطالعات وقراءة كتب الآداب الجامعة والوصايا النافعة . فكنا نجمع بين أدب الدروس وأدب النفوس .

ومن جملة ما سمعناه منه في حال مجالسته وخلال مؤانسته ،قوله منشئاً مرتجلاً ، وقد خطر به خاطر عند القيام من النوم :

أما والذي تعنو النواصي لقهره ... وتخضع إجـــلالاً لعز جنابه
لما لذت في ضري وفقري وفاقتي ... وفي كل حاجاتي إلى غير بابه

وكتب لحضرة سعيد أفندي الأسطواني ، أحد علماء دمشق ووجوهها الكبار ، حينما كان بطرابلس ونحن بها ، وتوجه إليه الأستاذ لزيارته فلم يجده في المنزل :

سعينـــا عـــلى قصد الزيارة بكرة   لنقضي حقوقاً يقتضيها الهوى العذري
فلم نحظ من سوء الحظوظ بأنسكم   فهل أنت يا تاج العلا قابل عذري

ولقد عاود زيارته مرة أخرى ونحن معه فاجتمعنا به فوجدناه رجلاً كامل العقل كبير القدر كبير السن .

(وقال) رداً على حضرة الشيخ عبد الودود معلم أولاد سلطان المغرب لما اجتمع به في الحج الشريف وهو بمعية أولاد السلطان وقال له المعلم المذكور في فضل المغرب :

للغرب فضل شهير   ولي بذاك أدلّـــه
الشمس تغرب فيه   ومنه تبدو الأهلّه

فأجابه الأستاذ على البديه بقوله :

للغرب فضل شهير   والشرق أفضل منه
تسعى الدراري إليه   والشمس تصدر عنه

وكتب لحضرة الشيخ درويش التدمري الطرابلسي وقد نسي الأستاذ عنده مجموعاً وقد نسي الآخر عنده كراساً :

بيني وبينك في المحبة نسبة   قد أظهرتها حكمة التوزيع
عندي لكم كراسة من ودكم   تذكي الغرام وعندكم مجموعي

فأجاب محاولاً في الجواب :

مجموعك الظرف البديع بمهجتي   أحني عليه من الغرام ضلوعي
واحفظوا كراسة مــن ودنا   ما ضركم لو كان ثم جميعي

وكتب إلى الأمير عبد القادر الجزائري وقد أهدى إليه ماء زهر :

ولما رأيت الدهر عاكس ذا الحجا   تجاهلت حتى ظن أني لا أدري
وجئت بمــاء الزهر أهديه نحوكم   وكنت كمن يهدي المداه إلى البحر

وله ، وقد أهدى لآخر بردقاناً وماء زهر الليمون .

ولما رمت أن أهدي إليكم   قليلاً من جني بعض الجنان
تقاطر زهرهــا عرقــاً حياء   ولاح الـــبردقــان ببردقان

وأنشدني لبعضهم :

لا تفخروا يا ذوي الأنساب في نسب   مع الذنوب التي لا ترضى مولاكم
أما سمعتم لقولي إن أكــرمكم   عند المهيمن يوم العرض ألقاكم

ومما أنشدنيه من كلام السلطان سليم ، رداً على البعض في قوله :

نحن أناس قد غدا طبعنــا   حب علي بن أبي طالب
يعيبنــا النــاس على حبه   ولعنة الله عــلى العائب

فأجابه :

ما عيبكم هــذا ولكنــه   بغض الذي لقب بالصاحب
وكذبكم فيــه وفي بنتــه   فلعنــة الله عــلى الكاذب

ولحضرة الأستاذ الشيخ عبد الغني نظم رقيق في الطبقة العليا من الشعر إلا أنه للآن لم يجمع . ولقد حملت ولده الشيخ محمداً على جمعه وجعله في ديوان خاص خشية الضياع وعدم الانتفاع ، فإنه من أحسن الذخائر التي تشتمل عليها الدفاتر . فكم له من قصيدة نبوية وأشعار مدحية ومقاطيع غزلية ،

ومقالات فائقة ومقامات رائقة، ولاسيما في كلام القوم. ولقد أهدى إلينا كتاباً له في آداب الطريق أصله من جمع الشيخ أبي حامد القصبي السيد حسن ، والد السيد الإمام القصبي الطنطاوي شيخ العلماء بالجامع الأحمدي . ولعدم مساعدة الوقت له على ترتيبه أعطاه لحضرة ولده في الطريق السيد رشيد الميقاتي والد الشيخ علي أفندي رشيد المتقدم ذكره آنفاً في علماء طرابلس . وهو أيضاً لم يساعده الزمن على تهذيبه ، فأعطاه لحضرة الشيخ عبد الغني المومى إليه فلم يزل عنده في ضمن الأوراق ، إلى أن رجع في سنة ثلاثمائة بعد الألف من اليمن ، حيث كان فيه موظفاً بوظيفة رئيس مجلس في صنعاء اليمن . وأقام بمكة المشرفة مجاوراً بها عـــدة شهور . فخطر على باله أن يشرع في ترتيبه وتهذيبه في حرم الله ، فشرع في ذلك أمام الكعبة المشرفة وبعد أن أكمله سماه (ترصيع الجواهر المكية في تزكية الأخلاق المرضية) وأرسل نسخته إلى مصر فطبعت وأحضرها معه ولده الشيخ محمد فأعطانا نسخة منها هدية . وفي وقت مناولته النسخة إياي أخذ القلم وكتب من رأسه تحت الطرة هذين البيتين والاسم الكريم :

يا ابن عبد الجواد يا تاج هذا الـ   عصر مجداً وواحداً في المفاخر
هاك هذي الجواهر الغر فضلاً   فبحق للتاج تهدى الجواهر

ولقد كنت وأنا في زمن المجاورة بالأزهر رأيت له شرحاً بديعاً على (بديعية الصفي الحلي) ضمنه قصائد غراء من كلامه ومقاطع حسناء من درر نظامه . فسألته عنه فأجابني بأنه فقد منه ولا وجود له عنده ، وذلك لأن حضرة الشيخ الآن صار معظم شغفه بمطالعة كتب التصوف وآداب النفوس لا آداب الطروس .

وممن زارنا من أعيان طرابلس حضرة عبد العزيز بك ، نجل صالح بك السلكة . وحضرة محيي الدين بك ناجي ، نجل عبد القادر باشا . وحسن أفندي

كرامة أخو مفتي أفندي طرابلس حالاً . وجملة آخرون من الأفندية لا يحضرني أسماؤهم الآن .

ومن التجار ، حضرة الحاج محمد القرق ، رجل كامل محب للعلماء والفقراء دعانا إلى منزله وضيافته ليالي وأياماً فلم نجب دعوته إلاّ في ليلة العزم على السفر فبتنا عنده تلك الليلة وأصبحنا مصممين على التوجه إلى بيروت في الوابور بطريق البحر . فما نشعر إلاّ وقد حضر الشيخ علي أفندي رضا ، شيخ القلمون سياسة وتفقهاً وتجارة ، فألح علينا في التوجه معه إلى بلده لسابق تعرفه بنا في بيروت ، فلم نجد بداً من إجابته ، ولا سيما انه توسط عندنا بحضرة الشيخ وغيره من الأخوان والمشايخ . فأحضر لنا دوابّ للركوب وركب معنا أيضاً مولانا الشيخ عبد الغني الرافعي ، وبعض المحبين من أهالي طرابلس . وسرنا حتى دخلنا بلده قريب الظهر ، ومسافة ما بينها وبين طرابلس نحو الساعة ، فوجدناها بلدة صغيرة على شاطىء البحر في أحسن موضع وأظرف موقع . والسمك بها كثير جداً لأن أهلها مشغولون بصيده ولهم مراكب مختصة بهذا الأمر . فأقمنا عنده يومين في غاية الأنس وارتياح النفس .

إلاّ أنه قد تأخرت عنا التحارير والبوستة من مصر ، في تلك المدة التي أقمناها بطرابلس ، فصرنا في قلق وطيش ولم يصف لنا بها العيش . ولولا ذلك لأطلنا مدة الإقامة لحصول الأنس والكرامة . ولكن أبت المقادير إلاّ أن نجري مجراها ونسأله تعالى تحسين عقباها . فحينئذ التزمنا القيام من تلك البلد ولكراهتنا الركوب في البحر استكرينا دواب من المكارية ، وسرنا على طريق البر في جبال شاهقة ، وانخفاض وارتفاع ، وحصل لنا من المشقة ما أبعد علينا هذه الشقة ، حيث أن الطريق وعر جداً . ومررنا على محل عال يقال له (المسيلحة) صعدنا فيه نحو النصف ساعة وانحدرنا منه نحو النصف أيضاً . وكان وقت اجتيازنا به وقت الظهيرة ، واليوم صائفاً جداً . فما فرغنا منه إلاّ وقد قاربنا على الهلاك من شدة الحر والعطش والصعوبة ، ولم يكن به شجر يستظل به

المسافر أصلاً . فحين أدركنا ظلال الشجر وقعنا على الأرض كالأموات .
ولما حصلنا على الافاقة نوعاً توجهنا إلى جهة (البترون) وكنا مررنا على ضياع كثيرة منها (ذكرون) و (أنفه) و (شكه) و (الجبة) وتغدينا في (البترون) وسرنا إلى (الجدايل) ودخلنا في وقت الغروب (عمشيت) ثم (جبيل) . وبتنا في خان من خاناتها في الجانب الغربي منها خارج البلد في أول الدرب . وقمنا منه ليلاً نحو الساعة الثامنة وسافرنا فما زلنا ترفعنا نجاد وتخفضنا وهاد ، وركبنا غارب الخطر في هذا السفر ، ولم يستتم السير إلى الصباح ونزلنا في خان على جانب الطريق لما أدركنا من المشقة وغلبة النوم ، فنمنا إلى صباح اليوم . وسافرنا حتى وصلنا بلدة على شاطىء البحر في سفح الجبل يقال لها (جونيه) وهي بلدة ناضرة زاهرة بها عمارات على الطراز الجديد كعمارة بيروت الآن . وما زلنا سائرين إلى أن وصلنا إلى أصل (نهر الكلب) الواصل إلى بيروت ، ومنبعه في رأس جبل شاهق ، شاهدنا الماء منحدراً منه إلى الأرض وفي أصل الجبل محل شغل الكبانية ومجمع المياه وآلات كبسها حتى تجري بقوة الكبس إلى بيروت ومنها توزع في قساطل من حديد إلى البيوت والمزارع والحياض العمومية التي هي على طرف البلدية كما تقدمت الإشارة إليه . ثم مررنا على مزرعة بالقرب من المدينة بنحو الساعتين يقال لها (ضُبَيّه) أنشىء بها الآن عدة مقاه ولوكندات ، وصار هذا المحل يعد من المتنزهات الظريفة في الصيف لما فيها من المياه الجارية والمزارع النضرة والنباتات الخضراء .
ودخلنا المدينة في الساعة الحادية عشرة من ذلك اليوم وأقمنا بها في أرغد عيش صافٍ وأزيد إنعام من الله الكريم وافٍ ، إلى أن دخل موسم زيارة القدس الشريف وكنا في كل عام نتقاعد عنه بالتسويف .

مطلب زيارة القدس ولواحيها

فشددنا ركائب العزم والحزم وركبنا مطايا التصميم والجزم ، وحدا بنا حادي الغرام والشوق حتى أثار كامن القوة والطوق . ونزلنا عصر يوم الجمعة في جمادى الثانية سنة ١٣٠٢ ألف وثلثمائة واثنتين من الهجرة في وابور الخديوية المصرية المسمى بالرحمانية تفاؤلاً بالرحمة . فمكثنا طول الليل به إلى الصباح فوصلنا (يافا) عندما أضاء نور النهار ولاح . وكانت من فضل الله حركة البحر في المينا ساكنة وركاب الفلوكات فيها مطمئنة آمنة ، مع أن العادة في تلك المينا أن يكون البحر في هياج واختباط وتلاطم أمواج ، ولكن قد أدركتنا فيها الألطاف الخفية فوصلنا البلد بغاية الأمنية . وقصدنا منزل الأستاذ العالم العامل الشريف الكامل ، حليف التقوى والصلاح وأليف الهدى والنجاح ، حضرة الشيخ إبراهيم أفندي أبي رباح ، من أهل طريق الصوفية الأكابر ، الوارثين لها كابراً عن كابر . فقابلنا بالإكرام والترحاب وحططنا رحلنا في ذلك الرحاب . وبادر للسلام علينا كثير من الأحباب والأخوان والأصحاب ، ولا سيما صاحب الفضيلة والخلال الجميلة والمراتب الجليلة ، ولدعمه ذي المناقب ، الشيخ علي أفندي أبي المواهب ، نجل القطب الرباني الشيخ حسين أفندي الدجاني ، أحد المرشدين العارفين من رجال الطريقة الغارفين من بحار العلم والحقيقة . وكان حضرة الشيخ إبراهيم ، والشيخ علي المومى إليهما من طلبة العلم بالأزهر في أيام مجاورتنا به ونعرفهما ويعرفوننا بدون اجتماع

متعارف . وكانا من أهل الذكاء التام والمعارف يشتغلان بعلوم الآلات والآداب ، ولهما على تحصيل العلم التفات وانكباب . فأقمنا عند الأول الليلة الأولى ، ودعانا الثاني في الليلة الثانية . وبيوتهما متجاورة بل متلاصقة . فبتنا هاتين الليلتين في أكمل سرور وحبور وقرة عين وتذكرنا بهما عهوداً بالحمى ، وقضينا ذلك الوقت بحسن المحاضرة ولطيف المذاكرة ، التي هي أرق من نسيم الصبا مرّ على زهر الربى .

واجتمع بنا في منزليهما كثير من أهل العلم والأدب والحسب والنسب ولا سيما بلدينا المصري الدمياطي حضرة مصطفى أفندي الأرنؤوطي ، من جملة المنفيين معنا في الحادثة المصرية ، وأقام ببندر (يافا) لقربها من ثغر دمياط ، حتى يكون ذلك أنجز لمقصوده في إدارة حركة التجارة في البضاعات المصرية مثل الأرز وخلافه ، وأقرب المواصلات اللازمة لتلك الجهات . وفضلاً عن ذلك فقد نال من لطف هؤلاء السادة ما أذهب عنه وحشة الغربة وأنساه بلاده . ولقد صنع لنا حضرته وليمة عظيمة عالية المقدار غالية القيمة . ودعا إليها حضرات المشايخ العلماء وبعض التجار والأمراء . فجزاه الله عنا أحسن الجزاء . وبعد أن أقمنا هذه الليالي الثلاث في غاية الأنس عزمنا على التوجه في الكروسة إلى القدس ، وكنا خمسة أشخاص بدون انتقاص . فاستكرينا كروسة مخصوصة بليرة إنكليزية يجرها ستة من الخيل ، وسادس ركابها سايق العربة ومدير سيرها . وسافرنا في ضحوة النهار ولم نزل سائرين في أرض سهلة إلى أن وصلنا إلى (الرملة) فنزلنا بها لأجل استراحة الدواب وعلفها ، واشتغلنا في هذه البرهة بزيارة من بها من الصالحين ومزارات من قيل بدفنهم فيها من النبيين ورؤية بعض آثار السالفين من الأمراء والسلاطين . فأخذنا رجلاً من أهلها العارفين بها وما زلنا ندخل معه مشهداً بعد مشهد ومعهداً عقب معهد ، إلى أن حان أوان الذهاب واستراحت تلك الدواب . فكان من ضمن من دخلنا مزاراتهم وحظينا بزياراتهم ، حضرة سيدنا الفضل بن العباس في

ضريح على يسار طريق الذاهب إلى القدس من يافا ، وهو لعمر الحق مزار مشرق جلي الأنوار . وضريح زين العابدين ، وضريح الشيخ أبي العون ، وضريح الشيخ العليمي ، وضريح السيدة أم العباس ، ومزار نبي الله أيوب عليه السلام . وغالب هذه المزارات في وسط المزارع والأشجار وعما قريب يحدث عليها الاندثار ولا يبقى لها آثار . ومنها مزار نبي الله صالح ، وهو بجانب الجامع الأبيض المشهور ومنارته الغريبة الشكل المربعة الأضلاع ، التي هي في غاية المتانة والكبر والارتفاع . وهي والمسجد من بناء السلطان (ابن قلاوون) من سلاطين مصر في سنة ٧١٨ سبعماية وثماني عشرة كما رأينا مكتوباً على حائط المنارة بالحفر والخط بارز . ولم يبق من الجامع الآن إلاّ حائط السور وبعض أروقة . وهو مبني على مسجد آخر مثله في الشكل الفوقاني كالتحتاني فتأمل غريب هذه المباني . وهكذا المسجد الأقصى ، الظاهر من على وجه الأرض بناء بني أمية ، على حذاء البناء الأصلي تحت الأرض . ويقال إنه من بناء نبي الله سيدنا سليمان بن داود عليهما السلام .

والرملة هـــذه هي المشهورة في التواريخ بفلسطين تسمى بها ولاية عظيمة في الملك من قديم الزمان ، ولعدم طول مسافة المكث لم نستطع استيعاب المزارات والآثار كلها ، ولم نتمكن من دخول البلد بل خرج إلينا منهـــا بعض أهاليها من طلبة العلم الذين كانوا في مصر مجاورين بالأزهر من ذرية الشيخ خير الدين الرملي صاحب الفتاوى الخيرية المشهورة في مذهب الحنفية .

ومنهم أخو الشيخ ، القاضي بيافا الآن ، كان يوم خروجنا من يافا واصلاً ليها حاضراً من الأستانة العلية . وجاء التلغراف من بيروت يفيد حضرة الشيخ لمفتي أبي المواهب بقدومه في ذلك اليوم . وهو أيضاً من طلبة العلم الأزهريين . إلاّ أنه لعزمنا على السفر للقدس الشريف لم ننتظر حضوره ومقابلته ، ثم بعد ذلك توجهنا إلى القدس في الكروسة ترفعنا جبال وتخفضنا أودية لم نرَ في عمرنا جبالاً مثل هذه ولا كنا نظن أن على ظهر البسيطة نظيرها فسبحان الخلاّق

العظيم الرزاق الكريم . ومن شدة علوها لم نستطع في بعض الأحوال رقي تلك الجبال ونحن راكبون على الكروسة فكنا ننزل ونمشي حتى نقطع تلك القطع الشاهقة . ولم نزل بتلك الحالة إلى أن دخلنا القدس ليلاً بعد الساعة الرابعة . ولم نجد بالبلد محلاً صالحاً للمبيت إلاّ مزار سيدنا داود ، على نبينا وعليه السلام . فإنه كما أخبرنا بعض الناس في يافا والقدس معد لنزول الزوار وأهل الأسفار من سائر الأقطار. فحملنا رحالنا ونحن ملطخون بأوحالنا ، لنزول الأمطار ومائها المدرار، على خلاف العادة الجارية في غالب السنين الماضية . وطرقنا باب المزار على من فيه من الخدمة والزوار فكأنهم كانوا على انتظار، ففتح لنا الباب ودخلنا الرحاب، فوجدناه مزدحماً بأجناس من الناس رجالاً ونساء وصغاراً وكباراً . فجلسنا معهم كآحاد الفقراء والدراويش . فجاء قيم المزار قبل الاستقرار وطلب منا الصعود إلى محل عال في أودة يقال لها (الإبراهيمية) من بناء إبراهيم باشا المصري أيام كانت البلاد الشامية في ضمن الحكومة المصرية . فرأينا ديواناً واسعاً مفروشاً وفي جواره أيضاً أود صغيرة ومرافق لقضاء الحاجة . فبتنا تلك الليلة بغاية المشقة الزائدة من شدة البرد واتساع المحل . وتغطينا بكل ما معنا من الأغطية والملابس فلم يجد نفعاً ولم نجد به دفعاً. فلسوء الحظ الناقص جاء على خلاف العادة هذا البرد القارص.

ولما طلع النهار وأضاء المحل واستنار، جاءنا رئيس الخدمة الداودية وهو حضرة الشيخ محمد كمال الدين الداودي وسلم علينا ورحب بنا وطلب لنا القهوة ، فرأينا عليه لوائح المروءة والنخوة ، وأمر الخدامين بتهيئة محل في الدور التحتاني بجوار ضريح نبي الله داود (عليه السلام) . وأعد لنا فيه ما يلزم من الفرش والأغطية الفاخرة فجزاه الله عنا كل خير في الدنيا والآخرة . وجاءنا للسلام أقاربه الكرام وأعيان المحل الفخام، السيد بكري أفندي وأولاده ، والحاج علي وأولاده ، والشيخ عبد الرؤوف الداودي الذي كان في الأزهر معنا مجاوراً ، وله معرفة بنا في ذلك الوقت ، وهو أخو السيد بكري المتقدم .

فبالغ الجميع في إكرامنا والقيام بما يلزم من الخدم لنا فرأينا ذلك من أكبر نعم الله علينا ، حيث وجدنا في كل جهة توجهنا إليها من يعرفنا في مصر . وكان من أشدهم حرصاً على مراعاة خاطرنا حضرة الشيخ عبد الرؤوف المذكور ، وحضرة الشيخ حسن بن الحاج علي ، فإنه من أهل العلم المشتغلين بالطلب ، وكما لا يخفى من أن الجنس للجنس أميل . ثم توجهنا في ذلك اليوم إلى زيارة الحرم المقدس ، والمسجد الأقصى الأنفس . فألفينا به راحة الروح وقرة العين وطيب النفس . ومحل سيدنا داود هذا خارج سور البلد في الجهة الجنوبية .

وقد بنى هذا السور السلطان سليمان فأتقنه غاية الاتقان وشيد أساس ذلك البنيان بما لم يرَ مثله في قديم الزمان .

حرم البيت المقدس

فأما المسجد الأقصى فمحاسنه لا تحصى وهو في مقابلة قبة الصخرة من الجانب القبلي ، وهو قبلة أهل الشام وتحته المسجد القديم ينزل إليه بدرج كثير وهو مسجد كبير وفيه من العمد العجيبة النزر اليسير ، بخلاف المسجد الفوقاني فإن عمده من الرخام الملون ورؤوسها مطلية بالذهب الأحمر الوهاج في غاية الرونق الأنيق والابتهاج ، مكتوب على محرابه بالخط الكوفي (سبحان الذي أسرى بعبده ليلاً من المسجد الحرام إلى المسجد الأقصى الذي باركنا حوله لنريه من آياتنا انه هو السميع البصير) . ومنبره أعجوبة من أعاجيب الدهر وخطيبه من قديم الزمان يكون من عائلة مشهورة هنالك يقال لهم بيت ابن جماعة ويخطب في جمعة الموسم بذكر قصة الإسراء والمعراج ، وكذلك يقرأ في الصلاة من سورة الإسراء فيحصل للمصلين من هذه الخطبة وهذه القراءة أثر عظيم من الخشية والاتعاظ بتلاوة هذه الألفاظ .

وأما قبة الصخرة فهي شمال المسجد ، فبعد أن تخرج من الأقصى تمشي في رحبة واسعة جداً مفروشة بالبلاط وفي وسطها بركة ماء وافرة الكبر ، وعن شمالك شجر الزيتون وفيه شجرة قديمة جداً يزعمون أنها من عهد بناء المسجد ، ولا أظن ذلك صحيحاً ، وبعد ذلك تنتهي إلى درج صاعد إلى محل الصخرة يبلغ نحو العشرين درجة . فإذا طلعت فوق هذا الدرج وجدت رحبة أكبر وأنضر من الرحبة الأولى وعليها بلاطات واسعة كثيرة عليها محاريب

من بناء بعض الملوك تسمى مصلى (ثم ترى قبة الصخرة) هائلة منقوشة بالذهب وقطع الصيني الملون بالأخضر والأزرق والأحمر في أكمل البهجة والنضرة والحسن الأوفر .

ولما دخلناها قابلنا بها حضرة رئيس الخدمة الشيخ عبد الله أفندي الدنف ، رجل كبير السن عليه هيئة السلف، فأظهر لنا مزيد الحب والشغف، وأمر بعض أقربائه بمرافقتنا وتعريفنا محلات الزيارة في الحرم وما أحاط به من قبة السلسلة وقبة المعراج .

ومهد سيدنا المسيح في محل منخفض ، في شمال المسجد الأقصى من الشرق ، وباب التوبة وباب الرحمة ، وهما الآن لطول الزمان قد أشرفا على الانهدام ، ولذلك بني عليهما بنيان متين بالحجارة ومحل كرسي سليمان(وباب حطة) والقبة التي هناك ومحل ربط البراق عند باب المغاربة وعنده مسجد في داخل الحرم يقال له مسجد المغاربة أيضاً « وهؤلاء المغاربة موجودون بالقدس الشريف ينتسبون إلى أبي مدين الغوث » وذلك ، زيادة عما في نفس الصخرة وقبتها من الآثار الشريفة،فإن فيها قطعة بلاطة زرقاء اللون تضرب إلى الخضرة على باب القبة الجوانية،يقال ان تحتها قبرسيدنا سليمان بن داود عليهما السلام ، وفيها مسامير غائصة في الحجر لم يبق منها إلاّ نحو الأربعة يقول العامة عنها انه في آخر الزمان لا يبقى من هذه المسامير شيء ظاهر إلاّ غاص في هذا الحجر . ولا ندري هل لذلك الكلام صحة أم لا .

وأما ذات الصخرة ، فهي الآن مرتكزة على بناء حولها من الجوانب الأربعة ، وتحتها خلاء ومحراب يقف الزائرون فيه ويصلون ويدعون ، وقد صلينا ودعونا . والحمد لله فنسأل الله تعالى القبول ونيل المأمول .

وهي قطعة حجر واحد في طول عشرين ذراعاً وعرضها قريب من ذلك

وسمكها نحو الثلاثة أذرع ، وفيه أثر القدم الشريف وآثار اخير يقال انها محل يد جبريل ، والعلم عند الله تعالى .

وحرم البيت المقدس واسع الخطة جداً . ويقول بعض الناس إنه أوسع من الحرمين الشريفين (حرم مكة والمدينة) لو دخلا فيه لوسعهما

وفي أسواره منارات كثيرة وأبواب مثل باب المغاربة المتقدم وباب القطانين والباب العتم والباب الشمالي . ومن داخله جملة مدارس وزوايا وأروقة . وفي وسطه أسبلة وبرك للوضوء وسقاية الماء وجملة أود وخلاوي في رحبة قبة الصخرة من فوق . وجملة أود أيضاً في الساحة السفلى المنخفضة تحت القبة ، من الشمال الغربي ، يسكنها المجاورون في المسجد الأقصى لطلب العلم ، وكذلك الأغراب المسافرون من الزوار . وقد عرضوا علينا أخذ أودة منها فلم نرض بمفارقة محلنا في الداودية لكثرة السيول والأمطار الفائقة الحد في ذلك الوقت . وغالب الحرم مكشوف ليس عليه سقف . ومن اخواننا الأزهريين المشغولين بالقراءة في الحرم الشيخ علي الغوري ، وأخوه الشيخ أبو السعود أفندي وله أودة مجاورة للصخرة في غاية الظرافة والنصرة عزم علينا بأخذ مفتاحها على الدوام لنستريح فيها عند مجيء الحرم فلم نرَ حاجة إلى ذلك .

وبالجملة فحرم القدس (وهو كما لا يخفى ثالث الحرمين الشريفين ولا تشد الرحال لغيرها) لا يتمكن من الوصف وصفه . فكلما دخل إليه أحد ظهر له من المحاسن فيه ما لم يكن ظهر له من قبل ، فسبحان من وضع فيه هذا الجمال وحلاه بحلية البها والجلال ، وجعل عليه من الأنوار ما يخطف الأبصار ، ويذهل العقول والأفكار ، ويورث الخشية والاعتبار .

ولقد أرسل إليه الآن مولانا السلطان الأعظم (عبد الحميد خان) ستة عشر ألف ليرة لتصرف في ترميم بلاطه، وتبليط الخالي من البلاط. ورأيناهم في وقت الموسم مشتغلين بهذا الترميم ولكن الظن أن هذا المقدار لا يفي بقدر

النصف من مساحته مع أن الباقي الآن بدون شغل كله خال من البلاط بالكلية لا جديد فيه ولا قديم ، وقد نبت العشب والحشيش في أرضه . فنسأل الله سبحانه تعالى أن يوفق له أهل الخير من المسلمين فيكملوه أو يطلبوا له من حضرة أمير المؤمنين زيادة عما أنعم به ، أسبغ الله نعمه عليه وأجرى الخير الجزيل على يديه .

كنيسة القيامة

وفي أثناء إقامتنا بالقدس الشريف مررنا يوماً على كنيسة النصارى المشهورة (القيامة) وحولها من نصارى الشام ، وقبط مصر ، ونصارى أوروبا ، خلق كثير يتكبدون من المشاق ما لا يطاق في سبيل هذه الزيارة لتلك القيامة التي لا تجدي نفعاً لهم يوم القيامة ولا سيما ان موسم القدس في غالب السنين يوافق فصل الشتاء وما فيه من الأمطار والسيول وبرد الهواء فسبحان من أعانهم على هذا العناء في زيارة ذلك البناء الخالي من كل شيء إلاّ التصاوير والنقوش (التي هي صنعة أيديهم) ورؤية النور المجسم المحرق في يوم سبت النور المشهور فيما بينهم .

عود على بدء

ثم انه بعدما صفا الجو، وهو كما يقولون الطقس ، وخفت الأمطار نوعاً ركبنا الدواب وتوجهنا لزيارة المعاهد الموجودة (بطورزيتا) . وهو جبل عالٍ جداً مشرف على القدس وحرمة . فالواقف عليه يرى القدس وحرمه الشريف كأنه بين يديه . وفيه من المزارات محل ارتفاع السيد المسيح إلى السماء ، وكما يزوره المسلمون يزوره النصارى أيضاً : وفيه مزار في مغارة منخفضة وعليها قبة على ظاهر الأرض ، يقال إنها ضريح سيدنا سليمان الفارسي الصحابي الجليل .

وفيه مزارات أخرى لم أتذكرها الآن.وفي قبة الجبل أيضاً كنيسة لدولة المسكوب . بنوها في عهد قريب بغاية الزخرفة . وبعد نزولنا من الطور رأينا في أسفل الجبل بناء على شكل قبة يشتمل على نحو الخمس صخرات فقط ، والصخرة العليا محدبة مرتفعة تسميه العامة بطرطور فرعون ، وهو على شاطىء الوادي المشهور بوادي جهنم ، في شمال الحرم من الجهة الشرقية . وكذلك هو أيضاً في شمال الداودية التي فيها مزار سيدنا داود على جبل عال في الجانب القبلي من القدس خارج السور كما تقدم . وفي أسفل هذا الجبل عين مشهورة بعين أيوب يستدلون بفيضانها في أيام الشتاء على استكمال المطر النافع لأراضي الشام في ذلك العام . ولقد فاضت ونحن بالقدس في أيام الموسم ، ففرح الناس فرحاً شديداً واستبشروا بالخصب والرخا ، فهي عندهم كالنيل بمصر إذا

وفي كفى . وفي مقابلة هذه العين عين أخرى تسمى عين سلوان ، ذكر صاحب أنس الجليل في تاريخ القدس والخليل،انه ورد فيها حديث بأنها من الجنة ، وماؤها أشبه المياه بماء زمزم . نزلنا إليها وشربنا من مائها ولله الحمد شكراً على هذه النعمة . وقلت فيها ونحن على أعلى الدرج النازل إليها هذين البيتين :

إن لم أرد في رحاب القدس مورده   فيا جفائي وهـذا عين سلواني
لكنني فيه لم أصدر بحر ظمى   وأصدرتني روياً عين سلوان

وزرنا المقبرة التي بجوار سور الحرم من الشرق وفيها بعض الصحابة والعلماء الأقدمين . وقريب منها قبر السيدة مريم ابنة عمران . والمقبرة التي بالداودية .

وفيها من العلماء والصالحين خلق كثير ، ولكن كثر تداول الأيدي من النصارى والإسلام واليهود على هذه البقاع ، وتقادم العهود ، صير المعاهد بها مجهولة مشتبهة . إلا المشاهد التي لا يمكن إخفاؤها ولا جحدها ، ولو تقادم عهدها . فهذه هي التي تزار إلى الآن وعليها ما يحفظها من البنيان ، وكل من عليها فان . ولقد حضرنا هناك في الحرم الاحتفال بطلوع الصنجق (البيرق) لسيدنا الكليم واجتمع الناس من الأمراء والذوات والعلماء والباشاوات ، واصطفت العساكر على الجانبين من باب الأقصى إلى باب قبة الصخرة . ومعهم سعادة رؤوف باشا ، متصرف القدس . وخرجوا به من الباب الشمالي وركب معه المفتي لكون خدمة مولد سيدنا موسى الكليم على بيت الحسيني من قديم ، وهو منهم بل أكبرهم ، وبعض الأمراء والتجار . فصار الحرم مزدحماً بالزوار وأرباب الإشارات ويقال لهم السيارات وكذلك الطرقات في حوالي الحرم وكان طلوعه بعد صلاة الجمعة في أول الموسم وما رجعوا إلا في الجمعة الثانية . وبعد صلاتها عمل له احتفال كالأول ، واصطفت العساكر على هيئتها النظامية من باب المسجد الأقصى إلى باب قبة الصخرة .

وكنا إذ ذاك واقفين على الباب مع حضرة شيخ الخدمة الشيخ عبد الله الدنف ، وكبار أهل البلد فساروا بالصنجق إلى أن وصلوا إلى قبة الصخرة ودخلوا به إليها ، ودخلنا معهم . وقفل الباب خشية الازدحام وكان هذا الختام . وبعد ذلك انصرف الناس إلى بلادهم وجبالهم .

وأما زيارتنا لحضرة سيدنا موسى الكليم فكانت في الجمعة التي بعد طلوع الصنجق وقبل نزوله . فخرجنا من القدس ضحوة النهار وركبنا دواب من المكارية من أقبح دواب البرية ، فسرنا تحت الأمطار والأخطار ، الملجىء لذلك كون طريق الكليم لا تسلك ولا تؤمن إلاّ في أيام الموسم . وما زلنا في جبال وأودية إلى أن وصلناه قبيل الغروب ،ودخلنا للزيارة في شدة الزحمة ونزول الرحمة ،وطلعنا إلى ديوان عال مشتمل على عدة أود معدة للزائرين في تلك الأيام . ووجدنا مفتي القدس جالساً معهم في إحدى الأود . فاستقبلنا بغاية كل إكرام واحترام وأخرج لنا وللحاضرين كافة عشاء من مطبخه . ولما حان وقت النوم أرسل إلينا فرشاً وألحفة للغطاء . وبات غالب الزوار في الصحراء تحت المطر ، لأن البناء الموجود حول ضريح سيدنا موسى غير كاف لإيواء هؤلاء الجمع . وفيه هنالك بعض خيم صغيرة يسمونها شوادر لا تكفي ولا تدفي ،بل بلغنا أن بعضها اقتلعه الهواء فلم يعرف بعد إلى أين ذهب وفي أي موضع وقع ، وذلك لشدة الرياح العاصفة والأهوية القاصفة . وبتناها ليلة نابغية نعاني جهد البلاء ونتلوى من شدة اللأواء . ولما طلع النهار واستنار ، ركبنا دوابنا بعد أن زرنا الضريح الأنور في جانب الكثيب الأحمر . وتوجهنا تجاه القدس ولم تزل الأمطار تنزل علينا كافواه القرب وقد أيقنا بقرب العطب لما شاهدناه من هذه الكرب ،ولكن الله سلم وتفضل وأنعم . ولا يمكنني أن أصف لك ما حصل للزوار في صعود تلك الجبال الشاهقة وكل نفس زاهقة وكل رجل زالقة ، حتى كنت في بعض الأحيان يحصل لي الاياس ، وتضيق مني الأنفاس ، وأنقطع في السير عن الناس ، وأرى أن ترك المشي والوقوف

أولى من السير مع هذا العناء الذي آخره كما كنت أظن الفناء . ولقد بلغنا أن بعض الزوار انقطع في الطريق من التعب والبعض حل به العطب . ومات جملة من شدة البرد وأرسل المتصرف من طرفه عساكر وغيرهم للتفتيش عمن تخلف بالاعياء أو الموت وأحضروهم إلى القدس في اليوم التالي .

وكيف أصف لك المشي على رؤوس الجبال وتحتها الأودية البالغة الغاية في الانخفاض التي لا يستطيع الإنسان أن ينظر إليها وإلاّ أخذته الدوخة والإغماء، فضلاً عن ضيق الطريق وامتلائه بالأحجار وتزحلقه بكثرة ماء الأمطار . وصارت الشمسيات لا بقاء لها في الأيدي ولا ثبات وضاع أغلبها في الأودية من الهواء .

وبالجملة ، فما دخلنا القدس إلاّ بعد الغروب ، وتفرقنا فلا يلوي أحد منا على أحد ولا والد على ولد، وصرنا من أول النهار إلى آخره في ماء واصل إلى الأبدان لم تدفعه كثرة الثياب الثقيلة ، فلا حول ولا حيلة . ولما أردنا تغييرها في القدس لم نستطع خلع بعضها إلاّ بشق الأنفُس أو شقّ الأنفُس. ومكث ما كان معنا من الفرش والغطاء منشوراً مدة من الأيام ولا يجف . ومضت علينا أيام الموسم ونحن من كثرة الأرياح في المساء والصباح وتراكم الغيث الغزير المدرار إناء الليل وأطراف النهار ، لا نستطيع الوصول إلى الحرم إلاّ في بعض أوقات إذا حصلت في ذلك الحال فترات . حتى أن جناب الفاضل الأكرم والصديق الأفخم والشهم الأوحد والكريم الأمجد ، حضرة الشيخ يوسف أفندي الفاهوم ، نجل العلاّمة الهمام والسيد المقدام جناب الشيخ أمين أفندي الفاهوم صاحب المقام المفهوم، مفتي الناصرة في الحالة الحاضرة، جاء في هذا العام لزيارة القدس ولم يسبق له زيارة في غير هذه السنة ، مع قرب البلاد وتوافر الأهبة والاستعداد، وذلك لأن حضرة المشار إليه أسبغ الله نعمه عليه ، كان رفيقنا في أيام الحضور بالجامع الأزهر . وكنا نحضر التحرير والمنهج على شيخنا وأستاذنا المرحوم المغفور له الشيخ خليفة السفطي . فعندما

شعر بقدومنا إلى الديار السورية وإقامتنا في بيروت أرسل إلينا تلغرافياً ، على يد حضرة عزتلو عبد القادر أفندي القباني ، يستدعينا للوفود إليه والقدوم عليه، لأجل الضيافة والإكرام وزيارة القدس الشريف معه في ذلك العام . فلم يساعدنا الوقت على ما طلب وإن كان ذلك عندنا غاية الأرب . فأرسلنا إليه بإبداء الأعذار في التأخر عن هذا المزار، وهكذا صار يدعونا في كل عام إلى أن يسر الله المرام وعزمنا على التوجه العزم التام . فعندما أردنا القيام من بيروت ، حررنا له جواباً نفيده فيه أن موعد الاجتماع بكم إن شاء الله تعالى موسم القدس الشريف بدون تسويف . فحضرنا نحن إلى بيت المقدس قبل حضوره بيوم أو يومين وقدم هو في يوم الجمعة وقت طلوع الصنجق فرأيناه على بعد في ذلك المجمع فاشتبه علينا بادىء الأمر لكثرة شيبه وظهور الكبر عليه ، مع عهدنا به شاباً غض الشباب ، ممتلىء الإهـــاب ، فأخذنا من حاله الاستعجاب .

بيت لحم

وبعد أن سلمنا عليه طلب منا الإقامة معه في دار بجوار الحرم كان قد أرسل من قبل قدومه تلغرافاً لبعض أصدقائه فاستكراها له ولمن معه من الأصحاب والخـــدم . وكان في معيته جملة من الخيالة نحو العشرة أو يزيدون فلم نرض بهذا الطلب مراعاة لخاطر الجماعة الداودية ولا سيما الشيخ محمد كمال الدين ، فإنه لما سمع بأن الشيخ يوسف الفاهوم حاضر العام إلى القدس لأجل الزيارة والمقابلة معنا لسابق المعرفة معه من مصر ، بادر بوصيتنا والتأكيد علينا في عدم الخروج من مزار نبي الله داود ، ورجعنـــا إلى منزلنا الأول وأقام هو بداره مع جماعته وحال بيننا وبين الاجتماع به شدة الأمطار والوحل في الطريق . فكنا لا نجتمع به إلا على سبيل الندرة في المسجد الأقصى أو في قبة الصخرة . إلى أن عزمنا على زيارة الكليم فرافقنا في الذهاب والإياب ، وكذلك حينما

عزمنا على زيارة الخليل أشار علينا بالمبيت أول ليلة في بيت لحم حتى نزور مولد السيد المسيح ويخف علينا السير ونستريح . فكتب له بعض أعيان النصارى في القدس وصية منه إلى رئيس الدير في بيت لحم وأرسل بها مخصوصاً قبل قيامنا من القدس ، فركبنا من عصر اليوم ودخلنا بيت لحم قبل الغروب فاستقبلنا أهل الدير وأدخلونا إلى محل الولادة وموضع النخلة في جانبه ، وقد زخرفا بأنواع الزخارف البديعة ومحل الولادة عليه صحائف الفضة مدور الشكل في وسطه دائرة منخفضة عما حولها بيسير ، ورأينا في الدير كثيراً من طوائف النصارى يدخلون طائفة بعد طائفة ومعهم الحرس من عساكر الدولة العثمانية خوفاً من وقوع بعض فشل أو خلل . ورأينا صورة المسيح موضوعة في ألواح معلقة على حوائط الدير من كل جانب ومنهـا تصويره مصلوباً وفي بطنه وبدنه ورجليه مواضع دق المسامير . وتصويره على حجر أمه عرياناً مـائل العنق والرأس وبعض بدنه ملقى على الأرض . وتصويره واليهود يضربونه ويمثلون به والدم سائل من جميع أعضاء بدنه . وتصويره طفلاً (صغيراً بريئاً) رضيعاً . وتصويره طفلاً مشدود الوسط في خدمة يوسف النجار يعلمه صنعة النجارة وعلى رأسه ما يشبه القبعة ، وتصوير أمه العذراء البتول وفي جانبها صورة يوسف النجار وهي تنظر إليه .

الخليل

ثم ان الرئيس أمر لنا بالمسافرخانه المعدة للمسافرين . فدخلناها فوجدنا فيها لكل واحد تختاً وناموسية ، وكرسياً للجلوس ، وكرسياً آخر عليه شربة ماء وطشت وإبريق للوضوء . ثم دعينا لتناول طعام العشاء فنزلنا لأودة السفرة فرأينا فيها طرابيزة وعليها أنواع الطعام من لحوم وأطبخة وحلواء فأكلنا ورجعنا إلى محلنا الأول ونمنا إلى الصباح . ثم خرجنا خارج الدير وقد أعد لنا الخدم الركائب وسرنا على بركة الله متوجهين إلى جهة الخليل نصعد في جبل وننحدر في واد حتى وصلنا إلى الخليل ، إلا أن طريقه أسهل سلوكاً من طريق

الكليم . وبعد أن خرجنا من بيت لحم مررنا في الطريق على يمين الذاهب إلى الخليل بضريح السيدة راحيل أم سيدنا يوسف الصديق وعليه قبة صغيرة فزرناها ، ومضينا في صوب مقصدنا حتى وصلنا إلى عين مساء على يمين الطريق يقال لها (عين سارة) امرأة سيدنا إبراهيم ، وبعدها على نحو ساعة أو أكثر من البلد دخلنا في بساتينها ومزارعها ووجدنا كروم العنب فيها لا تحد ولا تعد ومن ذلك كان العنب بها رخيصاً جداً ، فإن الرطل الشامي بها يساوي عشرين فضة وهو مقدار نحو خمسة أرطال مصرية ونصف . ودخلنا الخليل قبل العصر ونزل بنا الشيخ يوسف علي ابن قاضي البلد الشيخ محمد أفندي علي ، وهو رجل من أهل العلم الأزهريين كان له معرفة به في أيام الطلب بالأزهر . وبعد أن استقرت ركائبنا في منزله وكان في محل شغله خارج المنزل أرسل أهله إليه يعلمونه بمجيئنا وتوجهنا نحن لزيارة خليل الرحمن فدخلنا المسجد ، وهو كما قيل من بناء سيدنا سليمان ، وآثاره باقية فيه إلى الآن . فرأينا على ضريحه قبة وبابه من فضة ،وعليه من المهابة والإجلال ما لا يفي بذكره المقال .

الضريح المسجد

ومن داخل هذا الضريح المسجد وقبة ضريح سيدنا إسحاق وفي محاذاته ضريح زوجته (رفقة) وعليها قبتان ومدفنهما في داخل مغارة تحت الأرض لها منور مفتوح من الجانب الغربي .

وأما سيدنا يعقوب فهو وزوجته في محل آخر من المسجد في مقابل ضريح الخليل . وسيدنا يوسف في محل آخر أيضاً ،في الجهة القبلية ، منفرد في جانب على حدته وعليه من الجمال اليوسفي والمحاسن البهية ما يبهر عقول البرية ، دخلناه فوجدنا به المصاحف الجميلة وهي موضوع عليها العلامات في سورة يوسف فقرأت السورة بتمامها في رحابه وأهديتها لروحه الكريمة زيادة في ثوابه. ولما

صلينا بالمسجد صلاة العصر وجدنا به بعض دروس منعقدة في تعليم العوام . وبلغنا أن حضرة الشيخ خليل أفندي التميمي قريب الشيخ التميمي الأزهري ، الذي كان قديماً مفتّي الديار المصرية ، من ذرية الصحابي الجليل سيدنا تميم الداري يقرأ دائماً دروس العلم في ذلك المسجد وفي بيته أيضاً وكان في ذلك الوقت منحرف المزاج فتوجهنا نحن وحضرة الشيخ يوسف أفندي لزيارته وعيادته تبركاً به والتماساً لدعوة خير منه . فإنه مع كونه مقلداً بوظيفة الإفتاء في الخليل إلاّ أنه أنزه نفساً عن أن يتعاطى شيئاً من حطام الدنيا فيه أدنى شبهة من حرام ، وهكذا يصفه أهل الشام بزيادة الورع والعفة . فلما دخلنا عنده قابلنا مقابلة عظيمة ورأينا عليه مخايل الصلاح والتقوى لائحة وهو من التقلل والخمول في جانب عظيم، مع كمال الدراية والمعرفة ولا سيما في فقه أبي حنيفة . وما زال يؤانسنا ويلاطفنا ويقص علينا بعض أحواله في أيام المجاورة في الأزهر وهو في صحبة بلديه الشيخ التميمي ، المفتّي بمصر إذ ذاك

الرجوع الى القدس

ولما أن أردنا الانصراف خرج معنا إلى خارج الدار ولسانه منطلق بالدعاء والابتهال في صلاح حال مصر وبلاد الإسلام . وفي الصباح توجهنا من الخليل راجعين إلى القدس ، ومررنا في الطريق على بلدة يقال لها (حلحول) ، وفيها ضريح نبي الله يونس ، عليه السلام ، فدخلناه للزيارة فوجدنا به عمارة جديدة لم تكمل بعد . والبلد على ربوة عالية وهي على يمين الذاهب إلى القدس . وتحتها عين ماء عذبة جدّاً ، جارية على الدوام ليلاً ونهاراً ، يقال لها عين الدروة . ثم وصلنا إلى القدس في يومنا ذلك وأردنا بعد إكمال هذه الزيارة الرجوع إلى محل الإقامة فألح علينا حضرة الشيخ يوسف أفندي في الذهاب معه إلى بلدة الناصرة ، ونحن لما شاهدناه من صعوبة الطريق في تلك البلاد لم ينشرح صدرنا لهذا الأمر ، إلاّ أنه أبدى رغبة شديدة وظهر لنا من حاله اننا إذا لم نذهب معه وجل قصده في حضور الموسم في هذا العام

إنما هو الدعوة يحصل له تغير خاطر وكسوف طبع بين أهل البلاد . فتوكلنا على الله وأجبنا دعواه،واستكرى لنا دواب من القدس وتوجهنا على طريق نابلس ، ومررنا علىضياع كثيرة منها : سلواد ، وعين بيرود ، وسبسطة بلدة صغيرة فيها مشهد لسيدنا يحيى الحصور في مغارة وعليها بناء قديم جداً يقال إنه من بناء الملكة هيلانة ، ويدل على ذلك ما فيه من الصور والصلبان وغيرهما والله أعلم بالحال .

ونزلنا في وقت الظهر للغداء بخان في منتصف الطريق بين القدس ونابلس. وما دخلنا البلد إلاّ بعد ساعتين ونصف من الليل وقد وهت منا القوى والحيل وضعفت عزائم الخيل ، وذلك بسبب وعر الطريق فنصعد عالياً وننزل وادياً ، والصخور معترضة في وسط المسالك تعوق كل مار وسالك وتورطه في سبيل المهالك . ولولا ألطاف السيد المالك، لما خلصنا بلا ريب من ذلك. ونزلنا في هذه المدينة على بيت أولاد الشيخ زيد من السادة القادرية ، ولهم شهرة قديمة بالصلاح والتقوى والعلم . فاستقبلنا أحدهم وهو الشيخ سيف الدين وأدخلنا داره الخاصة به دون أخوته ، وهم الشيخ أحمد زيد والشيخ منيب أفندي وأولاد عمه .

ومنهم ، الشيخ عبد الغني أفندي ، رجل من العلماء الصالحين له معرفة تامة بعلم الفلك والميقات . ولم نلبث إلاّ قليلاً وقد حضر العشاء لكونهم كانوا على استعداد من قبل بواسطة تلغراف أرسله لهم الشيخ يوسف من القدس يعلمهم فيه بالخروج منه في ذلك اليوم والحضور عندهم فيه بنبأ على تكرار الدعوى منهم له في القدس مراراً عديدة بالتحارير والتلغرافات . وقد حضر لملاقاتنا وزيارتنا في بيت سيف الدين المذكور عدد لا يحصى من أمراء البلد وعلمائها ووجوهها .

فمنهم ، الشيخ أمين أفندي المفتي الأزهري . وجناب سعيد أفندي الحسين من بيت عبد الهادي من مشاهير العشائر في سالف الزمان . حتى قيل انه السبب

في حماية إبراهيم باشا المصري في أيام حرب الشام ، والمحاصرة له ، ولولاه لما خلص من غوائل أهل الشام . وسعيد أفندي المذكور رجل كبير السن كبير القدر كريم النفس صاحب مروءة تامة،ولطف أخلاق وطيب أعراق. ولذلك انه لما رأى علينا أثر الاعياء والتعب والشعوثة والغبارة من وعثاء السفر ، أمر بإخلاء الحمام تبعه ليلاً وأخذ لنا الإذن من الحاضرين بالمجلس من ذوات وأمراء ، وذهب بنا إلى الحمام في حذاء داره ، وغيرنا فيه ثيابنا ، ورجعنا إلى المنزل الأول . وصنع لنا في الليلة الأخرى وليمة حافلة دعا إليها جناب المتصرف خليل بك الأسعد ، ورجال الحكومة معه ، وغالب الوجوه والأمراء، والقاضي والمفتي . وكانت ليلة مشرقة مرونقة لسماحة نفس هذا الرجل وأقاربه . ودعانا في الليلة الثانية حضرة الشيخ أمين أفندي المفتي وبالغ في تهيئة العزومة فوق ما يلزم ودعا كل من كان حاضراً في الليلة السابقة وزيادة . ومع كل ذلك لم نغير مركزنا الأصلي في النوم فكنا بعد انقضاء السهرة نرجع إلى بيت سيف الدين ونراه وأنجاله وعياله في الانتظار ،قائمين بكل خدمة بغاية الأدب والحشمة، مجتهدين في كل ما يدخل السرور علينا . فيذهبون بنا إلى مزارات الصالحين ومدارس المعلمين والمتعلمين . فزرنا في هذا البلد ضريح الأسباط ، اخوة سيدنا يوسف ، وعليه من النور ما يشرح الصدور . وفيها أيضاً محل حزن يعقوب ، وفيها ضريح أبي يزيد البسطامي ، وفيها مسجد كبير عمري ، ومسجد آخر فيه العلماء المدرسون وطلبة العلم المشتغلون من مذهب أبي حنيفة ومذهب الإمام أحمد بن حنبل . فإن الحنابلة في نابلس وجبالها كثيرون جداً ، دون غيرها من بلاد الشام . وشيخ الحنابلة الآن عندنا بمصر من تلك الجهة ويسمى الشيخ يوسف تعلم أيضاً في نابلس ، ثم ثانياً في دمشق ، كما أخبرونا عنه بذلك . وزرنا حضرة الشيخ مصلح أفندي نايب رئيس شعبة المعارف بها ، في خلوة في ذلك المسجد معدة لقراءة دروسه ومطالعتها . وهو ممن سبق له طلب العلم بالأزهر ورأينا غيره كثيراً من الطلبة الأزهريين .

ولما دعينا لزيارة المدرسة البلدية ، وتوجه معنا حضرة الشيخ مصلح أفندي

وأخوه الشيخ عبد الحميد أفندي ، رئيس بلدية الناصرة الآن ، وولده الشيخ عباس خطيب مسجدها ، وله إلمام بالعلم . وأخوه الشيخ عبد اللطيف أفندي مشغول بأمر الزراعة ،وكذا ولده الشيخ خضر ، والشيخ يوسف له شركات في الزرع وأراض واسعة جداً وهذا سبب زيادة ثروته العظيمة التي لا تضاهى في تلك النواحي . وله معاملات وديون على كثير من مشايخ العشاير وأعيان البلدان هناك . ولذا كان كبير المقدار عندهم مسموع الكلمة فيما بينهم مهاباً معتبراً عند الحكام . وله ولد كبير يتولى بعض شؤون المنزل يسمى عمر يقرأ ويكتب ويحسب ، وولد أصغر منه يقال له راغب وغيرهما ، ومع كثرة الخدم والحشم والعبيد ، تراه يخدم الضيوف بنفسه وأولاده وأخوته ولا يفرق بين ضيفانه بالغناء والفقر ، بل الكل على مائدته سواء ، يطعم الجميع من اللحوم وأنواع الحلواء . وأقمنا عنده مدة اثني عشر يوماً فلم نتناول طعاماً عند غيره إلاّ مرتين مرة عند عمه الشيخ عبد الحميد أفندي ومرة عند علي آغا شاويش وأخيه عمر أفندي من أولاد ضافر المشهور في تلك البلاد بالشجاعة والقوة وكان أميراً من أمراء العشائر في نواحي عكا وغيرها .

مطلب ذكر محل إقامة المسيح بالناصرة

وزرنا في الناصرة محل إقامة السيد المسيح وأمه السيدة مريم. فإنهما أقاما بها نحو السبع عشرة سنة . ومن ثم قيل لاتباع المسيح نصارى نسبة إلى هذه البلدة ، كما هو مذكور في الكتب والتواريخ . وعلى هذا المحل دير كبير للنصارى دخلناه ورأينا موضع سكن السيد المسيح ووالدته السيدة مريم . وهو عبارة عن مغارة فيها موضعان منقوران من الجبل متصل أحدهما بالآخر وهما باقيان بحالهما إلى الآن .

وأما البناء الذي فوقهما في الدير والكنيسة ، فهو في غاية الزخرفة والتزويق بالنقوش والمعادن الذهبية والفضة وغيرهما . وقبل أن نزور ذلك الموضع حضر لزيارتنا رئيس الدير والمطران الموجود بهذه البلدة المقدسة عند النصارى ، وذلك إكرام منهما لحضرة الشيخ [illegible] أنا ضيوفه من الاقطار المصرية. وأهدى إلينا الرئيس تنكاً من صفيح فيه نشوق من صنعة أهل الدير ورهبانه يزرعون دخانه عندهم ويسوّونه بأيديهم وهو عجيب اللون والنكهة جداً .

ثم لما أردنا السفر تكدر حضرة الشيخ يوسف غاية الكدر وشدد علينا في الإقامة عنده إلى انقضاء المدة ، فلم نجبه إلى ذلك وأبدينا إليه الأعذار التي منها أخــذ الأخبار وتناول التحارير والمكاتيب الحاضرة لنا من العيال بسهولة لداعي كون البلد مرسى الوابورات على الدوام .

ومنها أننا مستأجرون بيتاً في بيروت، والباقي من الإيجار مدة طويلة .

ومنها أننا ألفنا تلك البلد وأهلها ووافقت سكناها صحتنا من أول الأمر إلى هذا الوقت .

وأما هواء بلدكم وماؤها فلم نرهما موافقين لصحتنا مثل تلك . فحينئذ رخص لنا في السفر إلاّ أننا ترددنا في التوجه إلى بيروت رأساً أو إلى دمشق ثم إليها وسألنا عن المسافتين في طريق البر فأخبرونا أنهما سواء .

مطلب التوجه إلى دمشق

فصممنا على زيارة الشام أولاً بالمرة فانتظرنا سفر القافلة واستكرينا دواب منها وسافرنا إلى جهة (طبرية) فدخلناها قبيل الغروب من ذلك اليوم . ومررنا في الطريق على ضيعة يقال إن فيها مزار سيدنا يونس ، عليه السلام ، فدخلناها ومعنا أهلها بخيولهم يتسابقون عليها على عادة أهل مصر في استقبال العزيز عليهم ، وكذلك أخوة الشيخ يوسف وبعض رجاله وخيالته . ووجدنا ذلك المزار عبارة عن قبة صغيرة ومن داخلها غار يقال إن فيه قبر نبي الله يونس ، فزرناه ودعونا الله بما أردناه من خيري الدنيا والآخرة . وشربنا عند هؤلاء القهوة وسافرنا إلى طبرية ومعنا هؤلاء المودعون حتى أنزلونا في دار الحاج محمد الطبري . وهي دار معدة لنزول الضيوف والمسافرين وصاحبها من بيت علم قديم وأجداده من أكابر العلماء ، وعندهم مكتبة عظيمة لا نظير لها كلها بخطوط الأفاضل والمؤلفين ، ولكن لطول الزمان عليها تمزق غالبها وتشتت واقتسمتها تلك العائلة اقتسام الطعام صبرة فصبرة . فإن قريبهم الشيخ عبد السلام (مفتي طبرية الآن) دعانا في أول ليلة للنوم عنده فاطلعنا على ما أدركه من هذه المكتبة ووقع في قسمه منها . فرأيناه مما يرثى عليه ويؤسف من حاله فإنك ترى المجلد فيه عدة قطع من عدة كتب . وهو مشغول بتصليحها وترتيبها .

(ولن يصلح العطار ما أفسد الدهر) .

ومن زيادة لطف هذا الشيخ عزم علينا بكل ما نختاره من هذه المكتبة فلم نرض ومع ذلك أعطانا كتاب (المرقاة في أسمائه صلى الله عليه وسلم) تأليف الإمام جلال الدين السيوطي . وقد قرأه عليه جماعة من العلماء وكتبوا ذلك في آخره وصدق عليه المؤلف بخطه الشريف وكذا في غالب أوراقه كتابة بخط الشيخ يقول (بلغ قراءة في تاريخ كذا كتبه مؤلفه) ، وبعض زيادات بخطه أيضاً . وأعطانا (شرح لامية العجم) للشيخ أبي البقا العكبري وبعض رسائل أخر . ودعانا الشيخ عبد السلام المذكور للمبيت عنده الليلة الثانية فأجبناه رغبة في الاستراحة والاستحمام في حمام طبرية المشهور ، وهو خارج البلدة بمسافة نصف ساعة ، فركبنا دوابنا وتوجهنا إليه ظهر اليوم الثاني بعد صلاة الجمعة في مسجدها الذي على شاطىء البركة . فرأينا هنالك جماعة من الأفندية النابلسية ومنهم شاب ظريف من طلبة العلم بالأزهر يعرفنا من مصر ، فبالغ هو وأصحابه في كرامتنا وخدمتنا في دخول الحمام والتوصية لقيم المحل علينا ، وأحضروا لنا بشاكير نظيفة من عندهم ندخل فيها . فلما دخلنا إلى الحمام وجدنا بركة عظيمة مستديرة من الرخام وعليها نحو الخمسين رجلاً أو أزيد ، وكأنه لم يكن فيها أحد ، وفي جانب هذه البركة (أود) صغيرة وفيها برك كذلك فمن أراد الانفراد سلخ ثيابه فيها واقتصر على الاستحمام بها . إلاّ أن البركة الكبيرة أنفع وأقل سخونة لكثرة النازلين فيها . ومع هذا لم نستطع نزولها إلاّ بشق الأنفس لشدة حرارتها الفائقة الحد ولولا صب الماء البارد عليها وكثرة اغتسال الناس فيها لما أمكن نزولها لمثلنا أصلاً فسبحان الصانع الحكيم .

ويقال إن الذي بنى هذا الحمام الجديد على هذه العين المعدنية الحارة خلقة حضرة إبراهيم باشا المصري أيام حكمه في بلاد الشام . وفيه هنالك محل استحمام قريب من هذا يقال إنه من بناء سليمان .

وفي جنوب طبرية بناء قديم فيه عمارة جديدة الآن يقال إنه ضريح السيدة سكينة ابنة الحسين رضي الله عنهما وقد زرناه والحمد لله .

وأخبرني بعض أهل طبرية انه في مدة قريبة رأى في بيته أثر بناء قديم فوجد فيه لوحاً من حجر أبيض وعليه كتابة بالعربي محصلها (هذا ضريح أبي هريرة صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم) فتوجهنا لزيارة هذا المحل ورأينا هذا اللوح بأنفسنا .

وهذا ربما خالف ما ذكرناه في هذه المجموعة من أن مزار السيد أبي هريرة موجود في طريق بغداد على شاطىء نهر الفرات . ولا يعلم الحقيقة إلاّ الله سبحانه وتعالى .

وأظن أنه يمكن التخلص من مثل هذه المعارضة بأن تعدد المزارات يكون سبب تعدد المعاهد لهذا الميت. فالبعض منها محل ولادة،والبعض محل إقامته وسكنه ، والبعض محل تعبد مثلاً ، والبعض محل دفن ، وبعضها محل له نفسه ، وبعضها محل لأحد ذريته وسميه .

وبحيرة طبرية هذه ، ماؤها عذب خفيف على المعدة ، وفيها سمك عظيم . وهي قريبة في المقدار من بركة قارون التي في الفيوم بالبلاد المصرية . والبلد نفسها ليست كبلاد الشام في البرودة ، بل كبلاد مصر في الحرارة . ثم بعد إقامة يومين في طبرية توجهنا إلى دمشق ومررنا على جب يوسف عليه السلام ، فرأيناه فوق ربوة عالية كالبئر مردوم منه نحو النصف . وتحت هذا الجبل خان قديم وقشلاق عسكرية خارب الآن في الجانب الشرقي من مدينة (صفد) ولم نزل سائرين إلى أن وصلنا إلى نهر الشريعة قبل الغروب بنحو الساعة . وبتنا في ذلك المحل عند القنطرة المسماة (بجسر بنات يعقوب) وفي هذا الجسر قول السيدة عائشة الباعونية :

بنى سلطاننا برقوق جسراً   بأمر والأنام له مطيعه
مجاز في الحقيقـــة للبرايا   وأمر بالمرور على الشريعه

ونهر الشريعة هذا هو (نهر الأردن) المذكور في التواريخ القديمة .

وفي الصباح توجهنا في الطريق ، ومررنا على (جبل الجيلان) وكانت (جبا) عن يميننا من الجانب الجنوبي ، وأسفنا على عدم مرورنا عليها لأجل زيارة الشيخ سعد الدين الجيباوي ، المشهور بالولاية والكرامات .

ورأينا في هذا الجبل خياماً كخيام الأعراب فسألنا عنهم فقيل لنا (انهم أكراد) نازلون في هذا المنزل من قديم الزمان ويظن أنهم نزلوا فيه مدة السلطان صلاح الدين الأيوبي . ولم نزل في السير إلى أن وصلنا إلى القنيطرة، بلدة قديمة كانت خراباً فأعطتها الدولة الآن للشراكسة المهاجرين من بلادهم يعمرونها ويزرعون فيها ، ودخلناها في وقت الظهيرة إلاّ أن المسافة بينها وبين البلاد المعمورة طويلة جداً ، فلم نجد بداً من المبيت بها تلك الليلة فنمناها بقهوة حادثة النشأة لعدم وجود محل فيها لنزول المسافرين .

ورأينا على شاطىء نهرها زهر البابونج المعروف في الطب فجمعنا منه جملة وافرة . وفي الصباح توجهنا إلى جهة (سعسع) وهي مدينة قديمة خربة ليس فيها كثير من الناس بل أفراد قليلة من الأعراب ، وعندها مياه غزيرة وأرضها صالحة للزراعة . لكن لقلة العالم في تلك البلاد تجد كثيراً من الأرض الواسعة والمسافات الشاسعة خالية من الزرع والشجر لخلوها من السكان . ولو كانت في بلاد مصر لكانت مزارع عظيمة غالية القيمة .

ولم تزل الأمطار تنزل علينا من وسط النهار إلى الليل فدخلنا بلدة بالقرب من دمشق يقال لها (عرطوس) وبتنا في خان غير نظيف خوفاً من المشي ليلاً مع الجهل بالطريق وتراكم الأمطار . وطلبنا من صاحب الخان خشباً أو حطباً نوقده للتدفي عليه وتجفيف ثيابنا المبتلة فأحضر لنا الحطب،ومكثنا طول الليل في تنشيف الثياب إلى أن طلع النهار وآن أوان الذهاب . فركبنا الدواب وسافرنا إلى دمشق فدخلنا من ذلك الوقت في ضواحي المدينة حتى وصلنا ضيعة بجوارها

يقال لها (المزة) ، فنزلنا في مقهى بها وشربنا القهوة واسترحنا نوعاً من عناء هذا السفر . ثم ركبنا ودخلناها ضحوة النهار ونزلنا في بيت الحسيب النسيب السيد سعيد أفندي الكيلاني ، من أمراء دمشق وأعيانها ، كان رئيس مجلس البلدية بها ، وتعرفنا به في بيروت حين كان بها لتبديل الهواء لانحراف صحته. رزقه الله الصحة والعافية والمعيشة الهنيئة الصافية . فاستقبلنا هذا الأمير بكل إقبال وبشر وإجلال وجاءنا للسلام علينا كثير من العلماء والأمراء والتجار الكبار . وكان أول مبادر حضرة شيخ العلماء الأعلام ورئيسهم بدمشق الشام ، رجل التدريس والتعليم ، حضرة أستاذنا الشيخ سليم كبير آل بيت العطار ، أهل المجد والشرف والفخار ، من السادة الأكابر كابراً عن كابر ،وهو شيخ متقدم في السن عليه أبهة العلم وامارات الذكاء والفهم ، وعليه تأدية وظيفة علمية في جامع السليمانية في الأشهر الثلاثة : رجب وشعبان ورمضان .

ولقد حضرنا درسه يوم الخميس به وهو خارج البلد قريباً من (المرجة) وسمعنا قراءته في صحيح البخاري وعليه أكابر أهل البلد يحضرون .

فابتدأ المقرىء في قراءة الحديث الأول وثنى حضرة الأستاذ بتفسيره والكلام عليه تعليقاً بدون مطالعة في كراس ، على عادة القدماء من المشايخ ، إلاّ أن المقري والشيخ طوّلا في الديباجة والمقدمة التي تعمل قبل قراءة الحديث الشريف تطويلاً فوق العادة فما مضى ثلثا ساعة إلاّ وقد كمل الدرس وأقبل عليه الحاضرون لتقبيل يده . ولما وقع بصره ، حفظه الله تعالى ، على الفقير وأخيه أمرنا بالقرب منه . فجلسنا بجانبه في الحلقة وفيها من المشايخ الكبار المتقدمين في السن أصحاب الوجاهة خلق كثير وجم غفير .

وبالجملة فهو مجلس حافل منور مراعى فيه حرمة الحديث حق المراعاة وهكذا دروسهم جميعاً .

وجاءنا أيضاً حضرة الأستاذ الشيخ منيني أفندي عالم كامل أديب فاضل

من بيوت العلم والشرف خلفاً عن سلف . يقرأ هو أيضاً صحيح البخاري تحت قبة النسر بالجامع الأموي .

وحضرنا درسه أيضاً بعد ظهر يوم الجمعة ، وتوجهنا إلى داره قريباً من المسجد إجابة لدعوته السابقة . فرأينا منزلاً كبيراً واسعاً وبركة عظيمة في صحن الدار محاطة بالأشجار والأزهار . ودخلنا إلى مندرة في الصدر وبها مكتبة شريفة مشتملة على كتب قديمة من آثار أجداده ومؤلفاتهم.وأطلعنا على كتاب اللغة يقال له سبعة أبحر من تأليف جده جمع فيه كثيراً من مواد اللغة التي في الكتب المتداولة كالصحاح والمصباح والقاموس .

وكان مولانا الشيخ سليم العطار أول من فتح لنا باب العزومات كما أنه أول من بادر بالتسليم والزيارات .

وجاءنا حضرة الشيخ سليم أفندي الكثبري ، نجل الشيخ مسلم الكثبري ، محدث الشام قديماً وعليه المعتمد في صحة الحديث والسند ، فهو من بيت علم قديم مشهور بالحديث والتدريس والتعليم .

ولقد حضرنا على حضرته درس البخاري بعد صلاة العصر تحت قبة النسر أيضاً وحضره خلق كثير .

وكان المقري في مجلسه أخوه الأصغر ، وهو مجلس مبارك ببركة أجداده منور .

وهو أيضاً دعانا إلى منزله وبالغ في الترحاب والإكرام وتنويع الطعام . شكر الله همته وأجزل عليه نعمته .

وجاءنا أيضاً جناب الشيخ أمين أفندي النابلسي ، من ذرية القطب الشهير والبدر المنير ، العلم المفرد والعلاّمة الأوحد ، صاحب المدد القدسي والفتح الأنسي ، سيدنا الشيخ عبد الغني النابلسي ، نفعنا الله بسره وبركاته وأعاد علينا من نفحاته .

وهو أيضاً صنع لنا وليمة دعا إليها أكابر العلماء والأمراء ، وزاد في تأنقها وحسن رونقها . ولا غرو فهو من بيت السماحة والكرم ولطف الشمائل والشيم .

وزارنا أيضاً حضرة الأستاذ العلاّمة والقدوة الفهامة ، السيد الكامل المعتبر حضرة والدنا الشيخ عمر من سلالة آل بيت العطار وخلاصة أصلهم الذكي المعطار .

ولقد كنا تشرفنا برؤية جنابه والاجتماع به في بيروت في العام الماضي وقضى معنا بها شهر الصيام واستأنسنا برؤيته ومحادثته في تلك الأيام .

وحضرنا بعض دروسه في الزاوية التي على شط البحر المشهورة (بالمجيدية) فرأينا منه علماً باهراً وجواباً حاضراً ، وذهناً وقاداً وفكراً نقاداً ، وكريم أخلاق ذكية أذكى من النفحات المسكية ، ومعرفة تامة بعوائد المصريين ولا سيما الأفاضل الأزهريين . فإنه أقام بمصر مدة من الزمان وكان يجتمع فيها بحضرة الشيخ أكرم الأفغاني . وتلقى عنه بعض العلوم كالتصوف وغيره .

ودعانا إلى منزله أيضاً كباقي المشايخ وأكرمنا إكراماً كبيراً ، وصار يتودد إلينا ويتردد علينا كثيراً . ويذهب بنا إلى بعض المزارات بنفسه ، ويجتهد في إذهاب الوحشة عنا بأنسه .

ومنهم ، العالم الصالح التقي الناجح ، الشيخ بكري العطار ، نجل صاحب الهيبة والوقار الشيخ حامد العطار وولده النجيب حضرة الشيخ أديب والشيخ إبراهيم العطار .

ومنهم ، نجل المرادي الشهير صاحب القدر الخطير والفضل الكبير ، كان في بيتهم قديماً افتاء دمشق ولهم المآثر والمفاخر فيها .

ومن أجدادهم مؤلف تاريخ القرن الثاني عشر (المسمى بسلك الدر) وهو تاريخ كبير من مجلدين .

وكان الشيخ أحمد البربير العلم الشهير الذي هاجر من بيروت لعدم صفاء العيش له فيها . (وصنع في هجو أهلها بيتين سمعتهما من قريبه أبي إبراهيم البربير) وهما :

بيروت مقبرة العلوم وحفرة أضحت على أهل العلوم سعيرا
كم عالم قد مات من ضغطاتها ورأى هنالك منكراً ونكيرا

(ونزيلا على بيت المرادي) وهو الشيخ عبد الرحمن أفندي مفتي الشام إذ ذاك وعمل مقالة في المحاكمة بين الماء والهواء على رسمه .

وله رسالة أيضاً في أبحر العروض سماها (اقتباس آي القرآن في مدح عين الأعيان) . كلها مدائح في الشيخ المرادي ، منها في بحر الطويل :

لقد شرف الله المرادي سيدي بخلق عظيم بات كالزهر الغض
وأورثه مجد السراة جدوده (ولله ميراث السموات والأرض)

ومنها في البسيط :

أعداءُ سيدنا مفتي دمشق بغوا فضيق الله في الدنيا أماكنهم
واقفر الله منهم شامنا زمناً (فأصبحوا لا نرى إلاّ مساكنهم)

وعندي هاتان الرسالتان بخطي كتبتهما من أحد أقارب البربير ببيروت .

وممن زارنا من أعلام العلماء ومشايخ الطرق والفقراء ، وإن كانوا في الحقيقة السلاطين والأمراء ، حضرة والدنا الشيخ محمد الخاني ، عالم عامل وورع كامل . وولده الأديب الأريب الفاضل النجيب ، الشاعر الناثر المجيد ، حضرة صديقنا الشيخ عبد المجيد ، كانت له سابقة المعرفة بنا من قبل في بيروت وقد كان حضر بها لمصالح تخصه فاجتمع بنا وصار يتردد علينا فرأينا فيه من الأدب والأنس ما تقر به العين وتطيب به النفس. فتسلينا بما يلقيه علينا من مفاكهة الآداب وكلماته الرقاق العذاب عن مجاورة الأحباب والأتراب .

وعددنا التعرف به من أعظم المعارف لأنه علم في اللطائف والظرائف ، فكم له من ضمير مستتر في إشارة وبراعة ظاهرة في عبارة . يهدي إلينا من صلاته العوائد ، جملاً كلها من فرائد الفوائد ، ومضى على هذا الأمر من غير مضارع في إبداع كلامه البديع بديه البدائع .

وذكرنا عهوداً بالحمى وأبرد غليل القلب من بعد الظما ، ولكنه أبعد النجعة من بعد ما أبدع ، وما سلم حتى ودّع . ورجع إلى مسقط رأسه ومصباح نبراسه ، وأودع القلب غراماً لا ينطفي لهيبه ولا يسكن وجيبه . وكيف وقد فارقه حبيبه وباعده طبيبه . إلاّ أنه لم يزل واصلاً حبال المودة على طول ذلك العهد والمدة فيرسل إلينا برسائل الأشواق التي هي وسائل العشاق ، مشتملة على فرائد الدر المنظم وذخائر الكنز المطلسم ، فتحرك من أشواقنا إليه ما كان ساكناً وتبدي من لواعج الغرام ما كان كامناً ، فتعجزنا بإعجازها وإيجازها عن الرد عليه ولا نجد في مجازها طريقاً على الحقيقة يوصلنا إليه . ومن تدبر الأمر في عدم المكاتبة وجد سببه ما كان يعجزنا به من رقيق المخاطبة وليس هو، معاذ الله ، من الجفا ولا من قلة الوفا . ولولا الاستعجال وضيق المجال لحلينا جيد هذه المجموعة بحلي هذا المقال المزري بعقود اللآل ، وهي محفوظة في الصدور فضلاً عن حفظها في السطور . وسنزين بها إن شاء الله تعالى الخاتمة نسأله تعالى حسن الخاتمة .

ولنرجع الآن لما نحن فيه من الزيارات والدعوات فنقول :

إن حضرة الشيخ الخاني الكبير دعانا للكرامة في محله على لسان نجله فتوجهنا نحن وحضرة السيد سعيد أفندي الكيلاني وبلغنا من الأنس بهم والمجابرة منهم غاية الأماني .

وممن زارنا أيضاً حضرات الأماجد الكرام والأماثل الفخام ، ذوي الأصل الكريم الفاخر والفرع النضير الزاهر ، أنجال مولانا الأمير السيد عبد

القادر وهم حضرة الأمير محمد باشا وحضرة الأمير محيي الدين باشا وحضرة الأمير الهاشمي . وزرناهم في دورهم الناضرة التي هي بالمكارم عامرة .

ومنهم ، السادة الأيوبية حضرة الشيخ محمد سعيد والشيخ محمد علي والشيخ خليل أفندي وكلهم موظفون في وظائف سامية في باب الحكومة العالية .

وأما أخوهم صاحب السعادة حضرة أحمد أفندي مكتوبجي الولاية فكان إذ ذاك في بيروت بمعية جناب الوالي فخامتلو المرحوم أحمد باشا حمدي . ولما بلغه توجهنا إلى الشام أرسل إفادة لأخوته حتى يقابلونا بالإكرام والإجلال والقبول والإقبال . وقد أوفوا بهذا الطلب وصنعوا معنا فوق ما يجب ، وصنعوا لنا ضيافة في غاية الظرافة ، ودعوا لها كثيراً من الأمراء والعلماء الأعلام وكان فيمن دعوا حضرة قاضي ولاية الشام العالم الهمام جناب صاحب السماحة أسعد بك وكانت عزيمتهم في آخر الليالي كالواسطة في عقود تلك اللآلي . وفي فجرها أصبحنا متوجهين إلى بيروت في الكروسة التي يسمونها (الدالي جنص) كما سنأتي عليه في غير هذا المحل من هذه المجموعة إن شاء الله تعالى .

ومنهم ، العالم العلامة المحقق الفهامة ، أستاذنا الشيخ محمد الطنطاوي ، المصري الأزهري ، عالم الشام حالاً وقالاً وقبولاً وإقبالاً . له اليد الطولى في علوم الآلات والقدح المعلى في علم الفلك والميقات . فله فيه شهرة بلغت السماك في السما بل رقى عن ذلك بينهم وسما . وكنا قد رأيناه ونجله الشاب الماهر الشيخ عبد القادر في أول سنة وردنا فيها بلاد الشام في بيروت . واجتمعنا به مراراً كثيرة في بيوت كبيرة، ودارت بيننا وبينه مذاكرة وأحاديث علمية ومحاورة،فرأيناه عالماً متفنناً وشيخاً متقناً ، إلا أن فيه إعجاباً بنفسه وإغراباً فيما يبديه في درسه . ولولا تحتم السفر علينا في يوم قيامنا من الشام بواسطة قطع التذكرة من الكبانية ودفع الدراهم لما قدرنا على الخلوص منه بدون إجابة دعوته مع كثر تشديده وإلحاحه فما زلنا به وبنجله حتى تحصلنا على

سماحه . فجزاه الله على هذه الفتوة أحسن ما جازى به أهل المروة .

ومنهم ، أولاد الشيخ الخطيب وهم حضرة الأفاضل الشيخ أبي الخير ، والشيخ أبي الفتح ، والشيخ أبي الفرج ، من العلماء المنتفع بهم في التعليم والقراءة والتفهيم ورددنا الزيارة عليهم في المدرسة الالباجية .

ومنهم ، الشيخ بدر الدين بن الشيخ يوسف المغربي البيباني ، مدرس السنانية الآن ، وهو من نوادر هذا الزمان ، فإنه شاب صغير السن لم يشتغل كثيراً على المشايخ في الدروس إلاّ أنه بجودة حافظته اشتغل بنفسه وانقطع للمطالعة إناء الليل وأطراف النهار . فصار من أهل العلم والاعتبار يقرأ الكتب العظيمة الكبار . ويلقي على الطلبة جميع الدروس تعليقاً بدون نظر في كراسة أو كتاب . وحضرناه ليلة وهو يقرأ شرح البخاري فمكث أكثر من ساعة يقرر في المسائل ويشرح الحديث عن ظهر قلب . وبعد أن زارنا في منزل السيد سعيد أفندي الكيلاني رددنا الزيارة في مدرسته الملازم لها وهي مدرسة (دار الحديث) ؛ التي كان يقرأ فيها الإمام النووي ، رضي الله عنه . وكانت تخربت واستولى عليها رجل نصراني فانتزعها منه الأمير عبد القادر وأصلحها بواسطة الحكومة والشهامة النبوية وصارت على ما هي عليه عامرة بالعلم والعمل وطلع فيها بدر الدين وحل ، بعد أن كان أفل منها وارتحل . فالحمد لله على هذه النعمة بالحصول على آثار الأئمة والأخذ بثأر هذه الأمة . ولما قصد الإمام السبكي زيارة الأمام النووي بالشام وسافر من مصر فوجده قد انتقل إلى رحمة الله تعالى فطلب أن يدلوه على محل درسه فأدخلوه إلى دار الحديث فقال :

وفي دار الحديث لطيف معنى أردد في جوانبهــا وآوي
وأرجو أن أنال بحر وجهي مكانــاً مسّه قــدم النواوي

ومنهم الذكي الأديب والألمعي النجيب الشيخ سعيد أفندي المنير ، نجل

الشيخ محمد المنير ، وهو من بيت شهير بدمشق قديماً ، وكنا قد اجتمعنا به في بيروت من مدة سابقة هو وجناب الشيخ أمين أفندي النابلسي وأخذت من هذا الأخير كتاب جده المسمى (سحر الأحداق وبث الأشواق) بخط يده الشريفة وطالعته عن آخره وجمعت منه مجموعة من مختار كلامه ودرر نظامه . وأخذت منه أيضاً كتاباً آخر بخط جده اسمه (زهر الحديقة في ذكر رجال الطريقة) يعني الطريقة المحمدية فمتعت ناظري في رياض أزهاره وقطفت الشهي من يانع أثماره. فمما رأيته في أثناء المطالعة ما ذكره ابن كمال باشا فيترجمة جار الله الزمخشري من كلامه في مدح تفسير (الكشاف) :

إن التفاسير في الدنيـــا بلا عدد وليس فيها لعمري مثـــل كشاف
إن كنت تبغي الهدى فالزم قراءته فالجهل كالداء والكشاف كالشافي

ومنه ما ذكره في ترجمة (مَعْمَر) « بفتح الميمين وسكون العين المهملة » بضبط ابن خطيب الدهشة في تحفة ذوي الأرب وهو معمر بن عباد السلمي من القدرية ، وهم طائفة ينكرون ان الله تعالى قدر الأشياء في القدم وعلم سبحانه أنها ستقع في أوقات معلومة وعلى صفة مخصوصة على حسب ما قدرها سبحانه ، وسموا القدرية لإنكارهم القدر ، قال النووي : وقد انقرضوا بأجمعهم ولم يبق أحد من أهل القبلة على ذلك والحمد لله . نقله التلمساني في حاشية الشفاء وقال النجم الغزي في (حسن التنبيه في التشبيه) المعمرية أصحاب معمر بن عباد السلمي سموا أنفسهم أصحاب المعاني وهم أعظم القدرية فرية في نفي الصفات والقدر . وقالوا إن الله لم يخلق شيئاً غير الأجسام والعرض من اختراعات الأجسام ، اما طبعاً كحرق النار ، أو اختياراً كالحيوان يحدث الحركة . إلى غير ذلك من مقالاتهم الشنيعة .

واجتمعنا في موسم القدس الشريف بجناب نابلسي زاده السيد محمد رشيد من ذرية الأستاذ الشيخ النابلسي أيضاً واطلعنا على كتاب من كتبه بخطه يسمى

(الرحلة القدسية) ذكر فيه رحلته من الشام إلى القدس ذهاباً وإياباً يوماً فيوماً حتى رجعوا إلى دمشق . وذكر فيه قصائد غرراً ونثراً كالدرر، فهو لا شك كتاب من كتب الأدب وديوان من دواوين العرب، وكم لهذا الإمام من مؤلفات عظيمة القدر في النظم والنثر .

ولقد طالعت وأنا في بيروت كتابه المسمى (ديوان الدواوين) وانتقيت من مختاراته مجموعة صغيرة . ورأيت له في دمشق ديواناً صغيراً يقال له (سجع البلابل وسحر بابل) ، وشرح بديعيته المسماة (نسمات الأسحار في مدح النبي المختار) طبع في الشام على ذمة أحد ذريته الأخيار مقابلاً على مسودة المؤلف بخطه .

ومنهم الأجل الأفضل والأمجد الأكمل العالم الشهير والمحقق النحرير الشيخ علاء الدين نجل الشيخ محمد عابدين صاحب حاشية (الدر المختار) المسماة (رد المحتار) وقد أكملها بعد وفاة والده . بلغه الله غاية مقاصده وهو رجل من أكابر الوجهاء وأعيان الأمراء، معتبر عند الحكام في تحرير الأحكام .

وكذلك زارنا من بني عمه الشيخ أحمد عابدين من أكابر العلماء أهل الصلاح والدين . وكذلك أخوه الكريم صاحب الخلق العظيم . ومنزل الشيخ علاء الدين في القنوات ومنزل الشيخ أحمد عابدين في سوق ساروجة . كما أن منزل الشيخ سعيد أفندي الكيلاني في هذا الحي المسمى بسوق ساروجة .

ومنهم الأستاذ الأوحد والعلاّمة الأمجد الشيخ طاهر أفندي الجزايري المغربي (مفتش جمعية المعارف بولاية سوريا السنية حالاً) . وهو من الذكاء والفطنة على جانب عظيم وبواسطته تقدمت المعارف والمدارس في الولاية إلى الغاية . فقد سعى في تمهيد طرق التعليم بإحداث الطرق السهلة في التفهيم حتى انه جمع كتباً سهلة المأخذ من فنون شتى كالأدب والطبيعة والتاريخ وغيرها لتكون أقرب لفهم المبتدئين من التلامذة .

ولقد رأينا من الكتب المطبوعة على ذمة المعارف شيئاً كثيراً منه : قصص الأنبياء ، وتواريخ ظهورهم . ومنه ، حل المنظوم للثعالبي . ومنه ، (الفوايد الجسام في الكلام على الأجسام) في الطبيعية على طريق المؤلفات الجديدة بأوروبا إلاّ أنه يتعرض لرد ما عساه يكون مخالفاً للدين الإسلامي . ومنه ، كتاب (مد الراحة لأخذ المساحة) تأليف الشيخ طاهر أفندي المذكور وأهــدى الينا نسخة منه مطبوعة في مطبعة المعارف . وغير ذلك مما لم أتذكره الآن .

ومنهم الشيخ محمد بن المبارك المغربي الجزايري ، عالم ماهر وأديب شاعر ، رأيت له ونحن في بيروت (مقامه) في رثاء الأمير عبد القادر سماها (لوعة الضمائر ودمعة النواظر في رثاء الأمير عبد القادر) . ومقامة أخرى ظريفة في المحاكمة بين الغربة والإقامة والحضر والسفر . وجاءنا في الشام زائراً ومسلماً فرأينا منه رجلاً صالحاً كأبيه ذا قدر نبيل وفكر نبيه . ولم يزل في عنفوان شبابه يدأب دائماً في تحصيل آدابه .

ومنهم حضرة الشاعر الأديب والناثر النجيب الشيخ محمد أفندي الهلالي الحموي ، نزيل الشام وواحدها الآن في الشعر والنظام ، دخل علينا زائراً في بيت الكيلاني ولم نكن رأيناه من قبل فأخبرنا الحاضرون بأنه الهلالي المشهور ، فقلنا مرحباً به وأهلاً وسهلاً ، طالما كنا نشتاقه اشتياق الظمآن للماء العذب والمهجور للقرب .

ولقد جمع الله بيننا وبينه واذهب نواه عنا وبينه،وكتبت له على البديه هذين البيتين :

في جلق كم رأينا   ذا بهجة أو جمال
لا سيما إذ نظرنا   أنوار وجه الهلال

(الهلالي)

وكتب لحضرته على البديه أيضاً حضرة أخي الشيخ أحمد هذين البيتين :

في آخر الشهر جئنا دمشق ذات الجمال
فكان أمر غريب وذاك رؤيا الهلال

(الهلالي)

فطلب المهلة في الرد لعدم اكتفائه بالقليل من كلامه .

فلما أصبح الصباح جاءنا بقصيدة مطولة يحكي بها الحالة بجملة لا مفصلة ، وكتبها بخطه مبتدأ بقوله (يا بديع) قبل النظم وهي :

مالي وما للقيان وشرب صافي القنان
يا ساقي الراح مهلاً لقد عقدت لساني
أرح بذكر حبيبي روحي وروح جناني
قد كنت أسمع قدماً إن المدام معاني
يديرها كأس لفظ مرصع في الجمان
حتى حظيت بهذا مشاهداً بالعيان
حققت ان الحميا من بعض سحر البيان
وكان للسحر عهدي في بابل ملكان
مالي أرى لهما في دمشق أعلى مكان
من أرض مصر إلى جلق لقد أتياني
كنزان علماً وفضلاً بحران يلتقيان
لله درهما إذ بالدر قد أتحفاني
وأهدياني ولم أسـ تحق ما أهدياني
شعراً على الزهر يسمو بالحسن واللمعان
من فكرة حين ترمي ناراً بغير دخان
تكاد تعبدها الـ سامعون كأوبذان

مدحاً غنيت به عن ... لبس الطراز اليماني
يحق لي أن أباهي ... بـــه ملوك الزمان
لأني صرت عبداً ... لمن هما ملكاني
محمد في الوفا أو ... ل وأحمد ثـــاني
لا بل هما فرسان ... بالسبق يوم رهان
مذ أشرقا في دمشـ ... ـق مطالعـــاً غيباني
رميت بالشك حتّى ... كاد الورى لن يراني
وهل ينير هلال ... إذ بـــدا القمران
يا مفردان بـــــا ... عـــالمان يا علمان
من لي بصيد الثريـــا ... أو لمسها بالبنان
عذراً فحق اعترافي ... بالعجز أن تعذراني

وسمعت له تخميساً على بيتي عنترة في الغزل والحماسة وهما بتخميسهما :

أنا دون وصلك يا مليحة باذل ... روحي ولو أن الأنام عواذل
هيهات يشغلني بغيرك شاغل ... ولقد ذكرتك والرماح نواهل
منّي وبيض الهند تقطر من دمي

لك قامة ما زلت أعشق لدنها ... ولأجلها أهوى الرماح وطعنها
يا ظبية ضحكت فأبدت سنها ... فوددت تقبيل السيوف لأنها
لمعت كبارق ثغرك المتبسم

وله تخميس آخر على بيتين هاهما بتخميسهما :

عودوا المحب ولو بطيف خيالكم ... يا قاطعين به حبال وصالكم
ناشدتكم بجميلكم وجمالكم ... يا سادتي هل يخطرن ببالكم
من ليس يخطر غيركم في باله

كونوا كما شئتم فلي ظن حسن ... بجنابكم ولو انني ذقت المحن

هذا وان احرمتمو جفني الوسن حاشاكمو أن تغفلوا عن حال من
هو غافل في حبكم عن حاله

وحكى لنا هو عن نفسه ان غضب مرة من أبيه فأنشد له بيت شعر قديم فأشاع الناس عنه أنه هجا أباه ، وليس الأمر كما ذكر . والبيت هو :

لو كان مثلك في زمان محمد ما جاء في القرآن برّ الوالد

وله قصائد ظريفة جداً ومقاطيع في أعلى طبقات البديع ولا سيما في المجون. وبلغني أن ديوانه قد جمع في الشام وأرسل إلى مصر مع أبي خليل القباني رئيس (الكميدا) (التشخيص) للروايات القديمة لأجل طبعه هناك .

فلعل الخبر صحيح فتنشر نسخة هذا الديوان الجديد المنظوم كنظم الدر النضيد .

وله قصيدة رائية في هجو أهل حماه في غاية البلاغة والانسجام .
وهو رجل خفيف النفس ليس عنده كبر ولا إعجاب بشعر . نرجو الله أن يوفقنا وإياه لما يحبه ويرضاه .

ومن الذوات سعادة محمد سعيد باشا (أمير الحاج الشامي) وهو من أكابر أهل الثروة والكلمة بدمشق ونواحيها .

ومنهم سعادة هولو باشا والد صاحب العزة أحمد عزت بك (مفتش العادلية بولاية الشام سابقاً) وقد تقدم ذكره آنفاً وهو أيضاً من مشاهير المياسير وردنا عليهما الزيارة في بيوتهما العالية المنتظمة على النسق الجديد .

وأما جناب مفتي أفندي الديار الشامية وهو الأستاذ الأعظم والملاذ الأفخم حمزاوي زاده السيد محمود حمزة ، من بيت الشرف والمجد قديماً وفيهم نقابة الأشراف من سالف الأعصار حتى أن الشاعرين البليغين ابن كيوان وابن منجك باشا لهما قصائد مديح في جدوده الأكرمين وسلفه الطاهرين .

فقد زرناه في داره لداعي انحراف في مزاجه الشريف ولما دخلنا عنده احتفل بنا وأكرم مقابلتنا وبالغ في التلطف معنا . فجزاه الله عنا كل خير ، ويدفع عنه كل سوء وبأس . وألبسه من حلل العافية أجمل لباس .

وقد كان صنع أخي الشيخ أحمد (لغزا) في اسم بلدتنا (القايات) واطّلع عليه جملة من أهل الأدب ببيروت وأجاب عنه الشيخ محمد الحريري الحموي الآنف الذكر نظماً . وأخذه حضرة صديقنا الشيخ حسين أفندي موسى الحافظ المصري الذي انفرد في هذه البلاد بالصيت والصوت الحسن والإجادة في التجويد وذهب به إلى دمشق محل إقامته فاطلع عليه جملة من أدبائها وعلمائها .

ومنهم الأستاذ المفتي والشيخ أديب أفندي العطار والشيخ عبد المجيد أفندي الخاني صاحبنا الأسبق فأجاب كل منهم بجواب .

فأما سيادة المفتي فأجاب نظماً وكذلك حضرة الشيخ عبد المجيد .

وأما حضرة الشيخ أديب أفندي العطار فأجاب عنه نثراً ، ولولا خوف الإطالة لذكرنا اللغز والأجوبة جميعها كما هي . ولكن لا بأس بذكر اللغز وجواب الأستاذ المفتي الآن . فأما اللغز فهو :

وما شيء سباعي تراه	بأوله لقد بدأ الهجاء
بلام قبلها ألف تجده	تعرف لا يقارنه نداء
وتلقاه لدى الأعلام مما	أظلته من الأرض السماء
وأربع أحرف منه توالت	غدت فعلا يقوم به اللقاء
وباقيه على الترتيب يأتي	مع الياء الإشارة والنداء
وإن فككته حرفاً فحرفاً	تألف ماضياً منه ابتداء
وثانيه من الأفعال ماض	يرى في قلبه مال وماء
وثالثه من الأعلام فرد	على كل البلاد له احتواء
وإن صفحته تلقاه فعلاً	على الأسماء لاح له اعتلاء

ثلاثتها حروف باتفاق ورابعه وأوله سواء
وخامسه ينوب مناب فعل وسادسه به وصل البناء
وسابعه لدى التصحيف فعل لقابله الإقامة والثواء
وجملته إذا صحفت فيها غدت جمعاً لغاية ما تشاء
أجب عما به أبدا ولوعي ولي منه ابتداء وانتهاء
وهذا لغز من أضحى غريباً ببلدتكم وليس له ذكاء

وأما الجواب فهو :

سلام من محب والثناء على شهم له تم الذكاء
أتانا منه لغز لا يضاهى على الدر النظيم له اعتلاء
باسم آب من قد رام عداً لأحرفه وليس بذا امتراء
على القايات دندن إن ترقى من التركيب ما فيه احتواء
وإن تحذف ثلاثاً أوليات بدت آيات حسن وازدهاء
وخامسه إذا ما يرقى يخلف لطود قد سما منه العلاء
جوابي باختصار مثل وقتي نهاري ضيق وكذا المساء
فدم فرداً مفيد للبرايا وفي القايات تم لك الهناء
وعش بالعز موصول الأماني ونل من كل خير ما تشاء

وممن جاءنا زائراً من أهالي الشام حضرة السيد راغب أفندي الخوجه بن السيد رشيد الخوجه ، وهو أخو حضرة محمود أفندي ومحمد علي أفندي الخوجه المتقدم ذكرهما في أهل بيروت إقامة لا أصلا ، لأن البلد الأصلي هو الشام وإن كان لهما دار عظيمة تعد من السرايات والقصور المشيدة في حي (الباشورة) وكذلك لأخيهما السيد راغب المذكور دار كبيرة من أعظم دور دمشق المزخرفة .

واجتمع علينا في الشام خلق كثير لا نحصي عددهم ولا نعرف أسماءهم جميعاً .

فمنهم السيد ياسين الرشاش والشيخ رضا الدقاق والشيخ عيسى الخالدي النقشبندي الصالحي من العلماء العاملين المشهورين بالورع والدين والشيخ أسعد أفندي الصاحب نجل أخ الشيخ خالد النقشبندي المشهور في بلاد الشام وبغداد وبلاد الروم بالعلم والتحقيق والإرشاد في الطريق وله مؤلفات تشهد بفضله .

فمنها رسالته المسماة (العقد الجوهري في الفرق بين الكسب الماتريدي والأشعري) وهي مكتوبة في الكتب عندنا . وقد رثى بقصيدة مشروحة مطبوعة يقال لها (مرثية خالد) يوجد شرحها كثيراً بمصر والشيخ أسعد أفندي الصاحب هذا شيخ تكية النقشبندية الآن بدمشق .

ومنهم أبو خليل القباني صاحب الكميدا (التشخيص) بالشام ومصر .

ومنهم أبو أحمد الجراح المشهور بفن الجراحة في الشام وكان يسهر معنا في منزل الشيخ سعيد أفندي الكيلاني .

مطلب ذكر المساجد والمشاهد والمزارات الموجودة بدمشق

ولنشرع الآن في ذكر المساجد والمشاهد والمزارات التي رأيناها وزرناها في دمشق على حسب الطاقة فنقول :

الجامع الاموي

إن أول محل زرناه ورأيناه فيها هو المسجد الأموي الذي هو من بناء بني أمية وهو كالجامع الأزهر في الاتساع ، إن لم يكن أكبر منه ، فيه مقصورة عظيمة بالجانب الشرقي منها مسجد سيدنا يحيى بن زكريا عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام وفيه رأسه الشريف كما ذكره ابن جبير في رحلته المسماة (تذكرة الاخبار عن اتفاق الأسفار) فقد طالعتها بأكملها في بيروت سنة ١٣٠١ . وقد وقعت لي نسختها مطبوعة في بلاد أوروبا وهي مشتملة على ذكر الشام والعراق والحجاز ومصر ونقلت منها بعض المزارات الشامية والمصرية في أوراق عندي فقال فيها :

إن من مشاهد دمشق مشهد رأس سيدنا يحيى بن زكريا عليهما السلام وهو مدفون بالجامع المكرم في البلاط القبلي قبالة الركن الأيمن من المقصورة الصحابية رضي الله عنهم .

ومثله في كتاب (الإرشادات إلى أماكن الزيارات) لابن الحوراني وهو

مطبوع في مطبعة المعارف بدمشق. وأهدى الينا نسخةمنه حضرة العلاّمة الشيخ علاء الدين بن عابدين فطالعته بأجمعه ولله الحمد .

وفي الجانب الشرقي من الجامع الأموي مشهد رأس الإمام الحسين ابن الإمام علي بن أبي طالب ، وعليه بناء عظيم عال منور إلى الغاية وفيه المنارة الغربية التي كان الإمام الغزالي يتعبد فيها .

وفي أمام الجانب الشرقي بركة ماء فيها نوفرة عظيمة يخرج الماء منها بقوة زائدة فوق العادة ليلاً ونهاراً

وفي أمام الباب الغربي دكاكين لباعة الكتب والمجلدين في الطريق الموصل إلى (باب البريد) المشهور الذي قيل فيه قديماً :

ما بين جانبها وبين بريدها   قمر يغيب وألف شمس تطلع

وأما الميضة والمرافق فهي خارجة عن الجامع الأموي في الجامع الغربي منه وبينهما طريق مسلوك .

ومن أراد ذكر المزارات التي حول المسجد الأموي مفصلاً فليرجع إلى (كتاب الإشارات إلى أماكن الزيارات) المتقدم ذكره .

ودخلنا مدرسة الملك الظاهر قريباً منه ، فوجدنا قبة ممتلئة بالكتب المجموعة من الأوقاف التي كانت مفرقة معرضة للضياع وقد جمع الباقي منها وجعل في هذه البقعة حتى صارت مكتبة عظيمة ينتفع بها أهل العلم وعليها مغير مخصوص تحت نظر جمعية المعارف . ووجدنا بها في ذلك الوقت حضرة العالم الفهامة الشيخ طاهر أفندي الجزائري جالساً بها مشتغلاً بالنقل والجمع . فصار يطلعنا على الكتب الغريبة القديمة .

ثم خرج معنا لزيارة مشاهد الصحابة والعلماء والصالحين الموجودة في

جهة (باب توما) و (باب شرقي) فزرنا أولاً ضريح السلطان صلاح الدين الأيوبي رحمه الله رحمة واسعة وجزاه عن أهل الإسلام خير الجزاء

وهو أيضاً قريب من الجامع الأموي من جهة الشمال، وزرنا في ذلك الجانب من قبور الصحابة قبر خولة بنت الأزور الصحابية ، وشرحبيل بن حَسَنْة كاتب الوحي بقرب باب توما وقبر ضرار بن الأزور الأسدي، شهد فتح دمشق ومات بها ودفن ظاهر دمشق خارج باب شرقي على جانب الطريق في (محلة الجزما) كما في كتاب الإشارات .

وفي مقبرة (باب توما) الشيخ ارسلان الدمشقي المشهور بالولاية وعنده من قبور الصالحين خلق كثير .

وزرنا في الجهة الشمالية مقبرة أبي الدحداح وفيها قبر أبي الدحداح الصحابي وقبر عبد الرحمن بن أبي بكر الصديق وغيرهما من الصحابة والصالحين .

وزرنا في الجانب القبلي مقبرة (باب الصغير) وفيها كما قال صاحب الإشارات خلق كثير من الصحابة والتابعين : والعلماء العاملين ، والأولياء والصالحين ، لا يحصى عددهم .

فممن زرناه بها من الصحابة الكرام (أوس بن أوس الثقفي) من أهل الصفة.

ومنهم سيدنا بلال الحبشي مولى الصديق ، ومؤذن الإسلام . والدعاء في هذا الموضع مستجاب كما في الرحلة والإشارات .

ومنهم أبو الدرداء . ومنهم معاوية بن صخر بن أبي سفيان القرشي الأموي .

ومنهم معاوية الصغير وقبر السيدة سكينة بنت الحسين وقبر السيدة زينب بنت الإمام علي بن أبي طالب وقبر السيدة حبيبة أم المؤمنين وقد نص عليهما ابن جبير الأندلسي في الرحلة .

أما صاحب الإشارات إلى أماكن الزيارات فذكر أنه يقال ان ثلاثاً من أزواج النبي صلى الله عليه وسلم بمقبرة باب الصغير .

وتوجهنا في يوم الجمعة قبل الظهر إلى المحل المشهور (بالقدم) لأجل زيارة سيدنا موسى على ما قيل من أنه مدفون بذلك المحل ، وهو في خارج من طريق الميدان فزرناه والحمد لله .

قال صاحب كتاب الرحلة : وعلى قدر ميلين من البلد مما يلي القبلة على قارعة الطريق الآخذ إلى بلاد الحجاز ومصر (مسجد الأقدام) كان بعض الصالحين يرى النبي يقول فيه (هنا قبر أخي موسى) والكثيب الأحمر بمقبرة من هذا الموضع بين عايله وعويله (كما ورد في الأثر) قال صاحب الإشارات :

ومن المزارات الجليلة قبر موسى بن عمران كليم اللهعليه السلام بدمشق ، وقال مكحول (بدمشق خمسمائة قبر من الأنبياء وقبر موسى بدمشق) وقال عبد الله بن سلام (بالشام من قبور الأنبياء ألف قبر وسبعمائة قبر وقبر موسى عليه السلام بدمشق) قاله الربعي في مصنفه .

والمشهور في دمشق أن قبر موسى عليه السلام بالكثيب الأحمر بقرب قرية يقال انها (مسجد القدم) وهو معروف مشهور .

وللحافظ (الشمس بن طولون) في ذلك جزء لطيف نحو كراسة جمع فيه أقوال العلماء سماه (تحفة الحبيب بأخبار الكثيب) واعتمد فيه أن موسى الكليم بهذا الكثيب المذكور اهـ . المقصود منه ، والله أعلم .

وزرنا مقبرة الصوفية بالجانب الغربي من دمشق وفيها قبر الإمام (ابن تيمية) وقبور أخرى . وغالب قبور هذه المقبرة مندرسة الآن .

وزرنا قبر سيدنا (دحية الكلبي) في قرية (المزة) غربي دمشق على نحو ساعة منها . ثم طلعنا إلى الصالحية وجبل قاسيون وتفرغنا لزيارة المشاهد التي

بها يوماً كاملاً . فابتدأنا بزيارة الشيخ الأكبر محيي الدين بن عربي الطائي، صاحب المقامات والكرامات والمكاشفات الظاهرة والخوارق الباهرة ، سلطان أهل الحقيقة وشيخ مشايخ الطريقة ، له في التوحيد القدم الراسخة وفي المعارف الإلهية الذروة الشامخة ، وكم له من مناقب شريفة وفضائل عالية منيفة ، فرضي الله عنه وعنا به ونفعنا ببركة علومه . وقبره في داخل قبة عظيمة لها أطواق وشبابيك مطلة على البساتين والجنائن . يرى الجالس فيها تلك الأشجار المثمرة والغياض المزهرة ويشم نفحات أزهارها العطرية ويندهش من حسن مناظرها الفطرية . فكأنه في جنة عالية قطوفها دانية . وعلى قبره الشريف مقصورة من نحاس أصفر وكواكب الفضة المطلية بالذهب الأحمر . ولم نرَ في بلاد الشام ضريحاً يشبه أضرحة آل البيت بمصر إلاّ هذا الضريح الأنور والمزار الأزهر. ومعه في هذه القبة قبر الشهم الهمام والبطل المقدام ، الأمير عبد القادر الجزائري ، وهذه مزية اختصه الله بها لا يدركها غيره ولو بلغ السها .

ومن عجيب الاتفاق أن والد الأمير اسمه (محيي الدين) فكأنه دفن مع والده . وقد تخيل هذا بعض الشعراء الذين صنعوا له المراثي والمدائح بعد موته رحمه الله تعالى . وأما مسجد الشيخ الأكبر فإنه بجوار الضريح . وهو من أجمل مساجد الصالحية مشرف على بساتينها وما وراءها من الأشجار والأنهار في أرض الغوطة إلى مدينة دمشق . فسبحان من وهب لهذه البقعة تلك البهجة التي تتروح بها الأرواح وترتاح لها المهجة . ثم بعد أن خرجنا من زيارة هذا الضريح، توجهنا إلى زيارة القطب الأوحد والعلم المفرد، قدوة أهل الطريق وشيخ المشايخ وطود العلوم الراسخ ، صاحب المنح القدسي والنفح الأنسي ، الأستاذ الشيخ عبد الغني النابلسي نور الله مضجعه وضريحه وروّح روحه وجعل من الرحيق المختوم غبوقه وصبوحه — آمين . وهو مدفون في داره بالصالحية ولم تزل عمارة الشيخ بها موجودة الآن . وعلى ضريحه قيم من ذريته . يتولى القيام بخدمته . ويتلقى الزوار بالترحاب . ويفتح لهم ذلك الرحاب .

العالي الجناب . الذي هو مجمع الأحباب . ومركز الأقطاب . ومحل الدعاء المستجاب . ومنزل السادة الأنجاب . وبعد أن فرغنا من زيارة هذا الإمام وأروينا بعض الظما والأوام من موارد النفحات في هذا المقام . والمورد العذب كثير الزحام . وإن كان الشخص لا يمكنه أن يفي بواجب الشوق له والغرام . توجهنا لزيارة السادة الأكراد الأيوبية في قبة مخصوصة بهم ورأينا قبورهم مسنمة مفتوحة من الجانب الغربي وتحت هذا القبر المسنم قطن كثير مندوف . وأخبرنا بعض من هنالك أن رجل أحدهم ظاهرة من تحت القطن وانه لا يمكن تغطيتها أصلاً بالقطن ولو وضعوا ما وضعوا منه فوقها ، فأعدنا النظر وأمعناه فوجدنا الحال كما ذكر ، ورأينا الرجل اليسرى يعني قدمها ظاهرة بأجمعها موضوعة على حائط القبر الشرقي مستندة إليه . وكرامات الأولياء والصالحين لا تنكر ولا تحصى ولا تحصر ، ولكن أن نقدر أن نقطع بأن هذا الأمر منها ولا يعلم الحقيقة إلاّ الله تعالى .

ثم بعد ذلك صعدنا في جبل (قاسيون) وزرنا ضريح نبي الله (ذي الكفل) صلى لله عليه وسلم في قبة مخصوصة به عليه السلام، وزرنا قبر الإمام (ابن مالك) النحوي في حوش تحت مشهد ذي الكفل ومعه جملة من قبور العلماء الكبار . ومغارة الدم في أصل الجبل فوق مزار نبي الله ذي الكفل بقليل . قال صاحب الرحلة الأندلسي وفي جبل قاسيون مغارة الدم لقتل (قابيل) أخاه (هابيل) بن آدم فوقها على نصف الجبل وبها صلى إبراهيم وموسى وعيسى ولوط وأيوب عليهم السلام . وفي أعلى الجبل كهف منسوب لآدم إلاّ أن العامة يقولون في هذا الزمان انه كهف أصحاب الكهف المذكورين في القرآن المجيد . وقد علمت ما ذكره ابن جبير ووافقه على ذلك صاحب الإشارات في الزيارات وأطنب في مزايا هذين الغارين وفضائلهما مما ينبغي الوقوف عليه . وقال في الرحلة المذكورة : وبين باب الفراديس إلى جبل قاسيون مدفن سبعين ألف نبي وقيل سبعون ألف شهيد . والأنبياء المدفونون به سبعمائة نبي ، والله أعلم .

ثم بعد أن نزلنا من هذا الجبل صعدنا في قبة عالية بها قبة الأستاذ الولي الكبير . والعالم العامل الشهير . الشيخ خالد النقشبندي روّح الله روحه . ونور ضريحه . فزرناه ومكثنا بضريحه حتى صلينا العصر وكنا نرى الصالحية وما فيها من الجناين والبساتين ودمشق وما حولها من البساتين أيضاً ، والمزارع وضواحيها ونواحيها كأنها تحت أرجلنا. فلله ما ألطف هذا الموضع. وما أظرف ذلك الموقع :

علو في الحياة وفي الممات وطود شامخ في المكرمات

وبالجملة فمنظر الصالحية من دمشق من أحسن مناظر الدنيا وأبهج ما يكون منها في الدرجة العليا ، ووافق طلوعنا للصالحية يوم الزيارة السنوية لمولد الخليل في قرية (برزة) الكائنة بسفح جبل قاسيون ، فصارت الزوار ترد قافلة من برزة زمرة بعد زمرة ، ومعهم النساء والأطفال ، ومشايخ الطرق والسيارات . إلاّ أن موالد الشام على العموم ومواسمها في كل أمر مرسوم ، لا تساوي المواسم المصرية في شيء من الأمور الدينية والدنيوية . ولم نخلص من الزيارات في الصالحية إلاّ وقت الغروب وقد استغرقنا جميع النهار في هذا الأمر المرغوب ، وزرنا في المدينة ضريح السلطان العادل والملك الكامل الفاضل ، نور الدين الشهيد. وفي الإشارات قال ابن خلكان في ترجمة نور الدين الشهيد ، السلطان نور الدين محمود بن سعيد زنكي بن سيف الدين الملك العادل أبو القاسم أول من بنى دار الحديث على وجه الأرض ووقف كتباً كثيرة وكان مسارعاً في الخير وبنى المدارس والمساجد ونشر العلم . وقد أوقف أوقافاً ، وكان يحب أهل الدين ، وكان حريصاً على الخير وبناء المدارس والمساجد ، وكان ثابت القدم في الحرب حسن الرمي . ولا يأكل ولا يشرب ولا يلبس ولا يتصدق إلاّ من ملك يخصه قد اشتراه أو من سهمه من الغنيمة . ولا يأخذ من الغنائم إلاّ ما أفتاه العلماء بحله ولم يتعد إلى غيره. ولم يلبس قط ما حرمه الله تعالى لا من ذهب ولا من حرير أو فضة . ومنع شرب الخمر وبيعها في جميع البلاد . وشاع ذكره

بالخير والعدل شرقاً وغرباً وفي سائر الآفاق . وبنى أسوار الشام كلها وقلاع حلب وحمص وحماة ودمشق وغيرها ، وبنى المارستانات ومن أعظمها الذي بدمشق ووقفه على المسلمين كافة من غني وفقير . ووقف (داريا) الكبرى على فقراء المسلمين . وتوفي في حادي عشر شوال سنة تسع وستين وخمسمائة ، ودفن بالقلعة بدمشق . ثم نقل بعد ذلك إلى تربة داخل المدرسة التي بناها للحنفية جوار الخوامين بالجانب الغربي . والدعاء عند قبره مستجاب ، وهذا مستفيض عند أهل العلم ، ذكره الحافظ محمد بن الحسن صاحب مجمع (الأحباب) ، والكمال الدميري في (حياة الحيوان) وصاحب (طبقات الحنفية) ، والبصروي في فضائله . وكان شيخنا أبو العباس الطيبي يقول ان ذلك مجرب وجربناه مراراً .

وبقي علينا أن نذكر حضرة الشيخ عمر السبيعي ، تاجر مشهور من أهل الصلاح والتقوى ، معتقد فيما بين أهل دمشق بحسب معاملته وسلوكه على سنن الكتاب والسنّة . جاء إلينا زائراً داعياً ، بواسطة إشعار حضرة السيد عبد الرحمن أفندي القباني البيروتي له بقدومنا إلى الشام ، فألح علينا في الذهاب إلى منزله فأجبنا دعوته وحضرنا وليمته،وبالغ ما أمكن في المؤانسة والاحتفال والترحيب والاستقبال،وكذلك الشيخ محمد خطيب دَوْمَة فإنه أيضاً دعانا إلى منزله وأبدى غاية جميله وتجمله،وتولى إكرامنا بنفسه وباسطنا بجميل أنسه . وهو رجل من أهل العلم المجاورين بدمشق لتحصيل العلوم . وقدره فيما بين أهل دومه والشام مشهور معلوم . وله اشتغال بعلم الفلك كثير ، وإن كان الماهرون فيه يسير . والله ولي التيسير وهو على كل شيء قدير .

وحيث انتهينا في ذكر الأكابر من أهل دمشق أحياء وأمواتاً وإن كنا لا نستطيع حصرهم إثباتاً ولا نأمن أنفسنا في عدهم سهواً أو فواتاً .

فلنذكر نبذة من صفات تلك المدينة وما حوته من النضارة والزينة والمباني العالية المتينة وأحوال أهلها المحمودة وعوائدهم المعهودة . فنقول :

مدينة دمشق

إن مدينة دمشق هذه طيبة التربة عذبة الماء كثيرة الأنهار ينصب فيها الماء من سبعة أبحر منها (نهر بردى) و (نهر يزيد) وغيرهما ، فترى الماء في دورها ليلاً ونهاراً منحدراً في القساطل إلى البرك ذوات النوافر . تسمع لخريره دوياً هائلاً وصوتاً عالياً ، لا يستطيع الغريب الذي لم يكن متعوداً بمثله أن ينام بتلك الدور ما لم يسكر الأبواب والمنافذ ، وهيهات أن يجدي ذلك فيه نفعاً أو يبدي دفعاً . وكل هذه المياه الموجودة في ضمن البيوت مسلطة على المرافق وبيوت الاخلية ، حتى لا يشم الداخل في بيوت الماء شيئاً من روائح القاذورات ، ولا تبقي المياه فيها شيئاً من الفضلات .

وأما عماراتها فإنها بالطين والأخشاب ، لا بالأحجار كباقي بلاد الشام إلا قليلاً منها كالمساجد والمدارس القديمة ، ومباني السلاطين والملوك والأمراء القدماء ، وبعض بيوت جديدة في هذا العصر انشئت على الطراز الجديد المعتاد الآن في مثل بيروت وغيرها من البلاد التي تقدمت في العمارة في هذا الزمان . إلا أنها مع كونها في الظاهر مبنية بالطين والخشب مزينة الباطن بالرخام الملون والنقوش الذهبية ، فلقد رأينا داراً أصلها من عمارة الشيخ المرادي « مفتي الشام قديماً » وانتقلت إلى ملك أولاد القوتلي في هذا العهد القريب ، وبها من حسن الصنعة وكمال البهجة ما يبهر العقول ويدهش الخواطر ، وتحار فيه الأعين والنواظر . فصحن هذه الدار مفروش بالرخام ، وفي وسطه البركة الكبيرة

ممتلئة بمياه ذات انسجام ، ومن حولها الأشجار الناضرة والأزهار الزاهية الزاهرة، تتساقط على الأرض حمرا وصفرا، كأنها الدنانير الحمر أو الدراري أو الدر .

وفيها قاعة من أبدع القيعان وأرفع البنيان ويمكن أن يقال في هذا المكان « ليس في الإمكان أبدع مما كان » . دخلنا إليها فوجدنا حوائطها مفصلة قطعة قطعة ، فلوح من رخام أزرق ولوح من بلور مزوق، من نوع المرآة جميل مرآه . وفي كل جانب من جوانبها ألواح من المرمر مكتوبة بالذهب الأحمر، عليها شعر يتضمن تاريخ البناء وجميل المدح والثناء . وبعد أن تناولنا القهوة والشربات ونحن بغاية الأنس والمسرات، دخلوا بنا إلى أودة أخرى هي أجدر بالمدح وأحرى . أطلعونا على عجيبة من عجائب الدهر ، وحسنة من حسنات هذا العصر ، وهي كتاب من حضرة سيد الأحباب أرسله لبعض ملوك الأعراب بخط أحد الأصحاب ، وفي آخره ختمه عليه الصلاة والسلام « محمد رسول الله » . إلاّ أنه لتقادم العصور وتكرر الدهور لا تكاد تبين خطوط تلك السطور، إلاّ بإمعان النظر وتحديق البصر . ولذلك كتبوا صورة ما فيه بالخط العربي المبين المعهود في هذا العهد حتى يكون مساعداً للقارىء على استبانة حروفه وخطه القديم الكوفي . وبالجملة فهو أثر من أبدع الآثار التي تورث المجد والفخار . وبعد أن أدركت النفس في هذه الدار حظوظها الحسية والمعنوية وشهواتها الدينية والدنيوية ، خرجنا من عندهم شاكرين والحمد لله رب العالمين .

ومن جملة مناظر دمشق الشائقة ومنازهها البديعة الرائقة، ذات النضارة والبهجة مناظر الأشجار والأنهار في (المرجة) فما أنضر هذه البقعة وأحسنها في عين الرائي :

والريح تعبث بالغصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء

يخرج إليها أهل البلد بعد العصر قبيل الغروب . ومنهم من يجلس على الجسر الممتد على نهر « بردى » . ومنهم من يجلس بجوار السليمانية . ومنهم من يجلس في تلك الغرف العالية فيرى الأنهار الجارية،ومياه تلك الجداول تتطارد في السباق وتتوارد في الاتساق على السياق، كأنما هي في الغدران خيول شهباء في الميدان.وهاتيك الرياض النضرة والغياض الخضرة، فيما بينها كبساط سندسي بسط على هذا البسيط الثني ورصع بجواهر الأزهار وحلي بحلية البهاء والبهار. (إن في ذلك لعبرة لأولي الأبصار يفعل الله ما يشاء ويختار وكل شيء عنده بمقدار) .

أخلاق أهلها وطباعهم وعوائدهم

وأما أخلاق أهلها وطباعهم وعوائدهم وأوضاعهم فهي من أجمل ما يكون في أخلاق العالم وطباعهم، من سهلة العريكة ولين الجانب مع الأقارب والأجانب. يلاقون الشخص بالطلاقة والبشر والهشاشة ، إلاّ أنهم يبالغون في التحية فوق اللازم ويزيدون في كثرة التمنّي والانحناء ، على عادة الأتراك عند مقابلة العظيم منهم . وربما دخل الزائر عليهم وأخذ مجلسه ومكث زمناً لا يمسون عليه ولا يشيرون بيد التمني إليه، حتى يكون هو الذي يبدأهم بذلك إعظاماً له وإكراماً وإظهاراً لعلوه عليهم رتبة ومقاماً ، فيطول الانتظار والتربص ويود الحاضرون التملص من هذا الارتباك والتخلص . وكذا يفعلون عند دخول الدور أو المجالس فيكثرون من التمنع والتصنع والتقديم لذي المقام الأرفع بما تضيق منه الصدور والأنفس قبل أن تملأ منهم صدور المجلس . ويكثرون من لفظة داعيكم أو عبدكم فيلتزم المخاطب في كل مرة أن يقول (أستغفر الله) . فكلما أكثر المتكلم من الذنوب اضطر المخاطب للاستغفار من الحوب ، فأعجب لهذا الأمر المقلوب والقلب المغلوب . ويقولون للعظيم (جئنا لتقبيل أذيالكم ولثم أناملكم) وهكذا من الألفاظ الفخيمة والمقالات العظيمة، وكنا لعدم التعود على مثل هذه الترسيمات نسهى عن الإتيان لهم بتلك الرسومات وهاتيك المقالات والتحيات كأنه غلب علينا الذهول والسبات .

ومن محاسنهم التودد إلى الغرباء ، وزيارة المسافرين وملاطفتهم قولاً وفعلاً ، فيصنعون لهم الولائم ، ويشددون عليهم في العزائم . ولكنهم يتحالون على امتحان أهل العلم واختبارهم بكل حيلة خفية أو جلية ولو ظهر ما أضمروه من الطوية . فيبدؤونه بالكلام والمحاورة والسؤال والمذاكرة، حتى يخبروا خبره ويقدروه قدره .

وهذه الخصلة فيهم تشبه ما يقع بين مجاوري الجامع الأحمدي بطنطا ومجاوري الجامع الأزهر بمصر . فإن الأول متى وجدوا أزهرياً بدؤوه بالسؤال، وطالبوه بالجواب لا على وجه التخلص بل على وجه الاقتضاب . ولا يخفى مقدار ما بين المقامين عند أهل البلاغة والبراعة . ولو انهم صبروا حتى تخرج إليهم مقالات المسؤول عفواً لكان خير لهم ، ولسان المرء ترجمان عقله وعنوان نبله وفضله ، والفطن يستدل بالقليل من القيل على ما خفي من هذا القبيل بدون تشديد ولا تثقيل .

نساؤها وعاداتهن

وأما أحوال النساء من أهل الإسلام فإنهن في غاية السكينة والاحتشام، فيبرزن غير متبرجات ولو كن متنزهات ومتفرجات، وعلى وجوههن المناديل وعلى رؤوسهن الإزار الطويل .

وأما نساء النصارى في الشام فهن قليلات جداً لا يعرفن فيها ولا يتبرجن تبرج الجاهلية الأولى ، كما في مثل بيروت فإنهن كنساء الإفرنج وإن كن في الأصل من جبل لبنان ، إلا أنهن قلدن الأوروباويات الآن وزدن من هذا الشأن بكل ما في الإمكان . إلا أن التكشف من أعظم الدواعي وأكبر البواعث والمقدمات ، المثيرة المهيجة المحركة لسواكن الشهوات . وقد ورد في صحيح الخبر (زناء العين النظر) .

وإنما أكثرت في هذا المبحث من القول دفعاً لما أكثرته القوم، في تفويق سهام اللوم، على هذا الستر المطلوب عقلاً ونقلاً في كتب الشريعة، طرداً للباب وسداً للذريعة، وبعداً عن حبائل الحيل والخديعة، وتجافياً عن شرك الفتنة والافتتان. ففي الحديث الشريف (النساء حبائل الشيطان).

والغالب على أهل دمشق الميل إلى اللذائذ والشهوات من مأكولات ومشروبات، وملابس فاخرة وألوان زاهرة، كالأحمر القاني والأصفر الفاقع والأبيض الناصع. ويتغالون في شم الهواء والخروج إلى البساتين وإعداد المآكل اللذيذة لذلك ويسمونه «الثيران» (السيران).

وأكثر أهل المدن الشامية على هذه الحالة إلا أن أهل دمشق أشدهم اعتناء بذلك.

الرجوع الى بيروت

ثم بعد أن فرغنا من الزيارات وقد طالت علينا الغيبة عزمنا على الرجوع للمنزل الأول والأوبة . وقطعنا تذاكر النزول في الكروسة المسماة « الدالي جنص » من كبانيتها قريباً من المرجة.بتنا تلك الليلة في منزل الوجيه السيد سعيد أفندي الكيلاني . وقمنا قبيل الفجر وتوجهنا للكبانية المذكورة . وبعد أن صلينا صلاة الصبح فيها ركبنا العربة وسرنا على بركة الله تعالى مسرورين محفوظين برؤية تلك المزارع والضياع . وكلما مضت ساعة تقف عند خان من الخانات الموجودة في طريق الكروسة كلها إلى بيروت ، ويغيرون تلك الخيول الستة بستة أخرى وهكذا نحو اثنتي عشرة مرة .

ومن أراد النزول من الكروسة لأجل قضاء حاجة الإنسان أو شراء شيء من الخان ، أو شرب قهوة أو غير ذلك ينزل ويرجع ثانياً في محله الأول .

فمررنا في طريقنا هذه على « الهامة » وغيرها من المحلات في ضواحي دمشق.

وما زلنا نسير في وهاد وأنجاد إلى أن وصلنا « سهلة البقاع » وهي أرض مبسوطة كأراضي مصر زراعية ،وبقينا سائرين فيها إلى أن وصلنا إلى «شتورة » بلدة في منتصف الطريق بين بيروت والشام وبها نهر ماء عذب صاف شديد البرودة جداً يجري بجانب الطريق والخان . فنزلنا وتغدينا وشربنا وتوضأنا منه واسترحنا هناك مدة من الزمان أكثر من باقي الخانات لنضارة هذا الموقع

وظرافة هذا الموضع . وبعد ذلك ركبنا وسرنا من ذلك المحل في صعود إلى جبل لبنان ، الذي هو من أعلى وأكبر جبال الشام ، وغالب أهله من النصارى والدروز . وله حكومة مستقلة منفصلة عن حكومة ولاية سورية ، وله منصرف مخصوص من طرف الدولة نصراني توليه دولتنا العلية بمصادقة الدول الأوروباوية ، لأسباب دعت إلى ذلك في السنة المشهورة بين أهل الشام « بسنة فوق العادة » لما حصل من القتال بين الدروز والنصارى في تلك السنة . وجاءت المراكب الفرنساوية بعساكرها وجيوشها ونزلت إلى بيروت ، وحضر من طرف الدولة حضرة فؤاد باشا وأجرى ما يلزم من التحقيقات والمجازاة والقصاص ممن ظهر منه العدوان بالقتل أو السلب أو التهييج . فمنهم من شنق ، ومنهم من قتل بالنشان ، ومنهم من نفي إلى خسارج البلاد بمدة . وكان من أشدهم نفياً من أرسلوا إلى قبرص بمحل فيها يقال له « المغوصة » . وما زال هذا المرخص العثماني ، الذي هو من أفراد أذكياء العالم وأعرفهم بالسياسة والمهارة ، يكاشف أهل البلاد من النصارى والمسلمين حتى عرف خفيّ هذه المسألة وجليها ، ولم يزل يعمل طرق الحيل ، حتى انجلت عن البلاد هذه الداهية الدهماء وانقشعت عنها غيوم الغموم والبلاء . وبارحتها الجيوش الفرنساوية راجعة إلى بلادها . بعد أن وضعت فيها أساس فسادها . وكادت تذهب من يد الدولة هذه الأرض . ولكن نقول ان بعض الشر اهون من بعض. فنسأله تعالى أن يثبت فؤاد مختار الدولة الآن بما ثبت به فؤاد ذلك الزمان . ثم لم نزل نسير في هذا الجبل صعوداً وهبوطاً ونمر على ضياعه في رؤوس الجبال وبطون الأودية إلى أن وصلنا إلى محل يقال له (رأس البيدر) مرتفع جداً ، وكان اليوم صائفاً ، فوجدنا فيه مياه الأمطار غزيرة والغيوم متكاثفة . وما خلصنا من لبنان وعقباته حتى تصرم النهار . وأخذت الشمس في الاصفرار . وتراءى لنا البحر من مسافة بعيدة وكذلك مباني بيروت وضواحيها ونواحيها . وما وصلنا الحازمية إلاّ قريباً من الساعة الحادية عشرة ، وهي محل من ضواحي المدينة على نحو ميل منها جرت عادة أهل بيروت بتلقي القادمين من الشام فيها . ولأهل الشام

جميعاً حرص زائد على استقبال العزيز القادم ولو من أهله وأقاربه . فإن كان من أهل دمشق أرسل تلغرافاً لمعارفه أو أهله في بيروت يفيدهم بقدومه في يوم كذا فيخرجون لملاقاته بالكراريس إلى الحـــازمية وينتظرون مجيء « الدالي جنص » في أواخر النهـــار . فمتى حضر نقلوه من مركبه إلى إحدى كراريسهم المستأجرة أو الملك على حسب مقدرة كل واحد . وإن كان من أهل بيروت أو خلافها متوجهاً إلى دمشق أرسل أيضاً تلغرافاً لأهله ومعارفه يفيدهم بحضوره فيخرجون لاستقباله من الهامة بالعربات أو الخيول ومتى حضر انتقل إليها ودخل البلد مع أصحابه أو أقاربه بالاحتفال والإجلال . وهذه العادة من الأمور المؤكدة عندهم حتى أنهم يرون أن من لم يفعل معه ذلك يكون محقراً في نفسه وبين أقرانه . ويلومون على القادم من ذوي اليسار إذا لم يرسل إفادة تلغرافية قبل قدومه . كما أنهم يعتنون جداً بزيارة القادم ومتى زاروه ولم يرد الزيارة على كل شخص منهم اشتد عليه الملام . وأكثروا فيه الكلام . وبالاكثر إذا كان الزائر هو القادم المسافر ولم يرد عليه المزور المقيم . وبالحقيقة فالحق معهم وهذه المكرمة العظيمة ، والمنقبة الكريمة ، مما يغفل عنها أهل مصر ولا يعطونها أدنى التفات واهتمام . ولقد سمعت كثيراً من أهل الآداب واللياقات واللطافة في بلاد الشام يعيبون على المصريين في ترك هذا الواجب . ويقولون ان العظيم إذا توجه إلى مصر من الأقطار الحجازية ، أو الشامية ، أو المغربية ، أو غيرها يسمع بالرجل من أرباب المعارف العلمية أو السياسية . فيحب رؤيته وزيارته من قبيل (العلم بالشيء ولا الجهل به) ولأجل أن يذكر في بلاده إذا رجع إليها أحسن ما رآه في سفره . فإذا تكلف المشقة في الذهاب إليه والاجتماع به وربما صرف في سبيل ذلك بعض المال . وتحمل ذل التفتيش على داره والسؤال . لا يحصل منه تأدية اللازم في الالتفات إليه . ولا رد الزيارة عليه . وقل أن يتجملوا إلاّ مع من بينهم وبينه معرفة سابقة ،مع أن الغريب هو أولى بالتأهيل وبالترحيب ، والمقابلة بصدر رحيب ، ولسان رطيب . (وأسأل مجرب ولا تسأل طبيب) والسلام . ثم لما دخلنا المدينة

توجهنا إلى دارنا التي سبق ذكرها وهي حارة الشيخ صالح طباره فأقمنا بها إلى أن قاربت مدة الاستيجار على الفراغ ، وكل هذا في سنة ألف وثلاثمائة واثنتين . فاستأجرنا داراً أخرى في زقاق البلاط يقال لها دار العرقجي جديدة البناء ، واسعة الفناء ، جيدة المناخ والهواء . وانتقلنا إليها في شهر شعبان من تلك السنة ولم نزل مقيمين بها إلى يوم كتابة هذا وهو يوم الثامن من شهر جمادى الأولى سنة ألف وثلاثمائة وثلاث من الهجرة النبوية ، على صاحبها أفضل الصلاة والتحية . وهي دار مشتملة على منزول كبير وثلاثة أود الوسطى منها ويقال لها (الليوان) في أمامها الدار مبلطة بالرخام وفي غاية الانتظام على أكمل ما يرام ، ومن داخل إحدى الثلاث خزنة صغيرة لطيفة ، وكذا من داخل الباب محل في العالي يقال له في اصطلاح أهل مصر (سندرة) وتشتمل أيضاً على حمام صغير ومطبخ ومحل أدب (بيت ماء) . وبالجملة فهي حارة نشطة نضرة أمامها الماء والخضرة ، وتحتها طابق (دور سفلي) لم نستعمله إلا في وضع بعض الأمور الخسيسة من خشب الوقود والفحم وما أشبه ذلك . وقد أكملنا فيها فصلي الربيع والصيف . وأما فصل الشتاء فقد مضى معظمه وكان شتاء بارداً ذا أمطار غزيرة يصح أن يقال فيه :

فصل الشتاء أتانا باليُبس بعد الرطوبة
فصل الربيع أغثنا فقد رجمنا بطوبة

والحمد لله قد مضى من مدة النفي ثلاث سنين ونصف والباقي نصف سنة ، نسأل الله تعالى حسن الختام بتمام العام ودوام الفضل والانعام بجاه خير الأنام .

ولنرجع للتكلم على بعض من تعرفنا بهم من أهل الشام وغيرهم لأننا لم نستوف جميعهم فيما سبق لعدم حضوره في الذهن فنقول :

إن من جملة من اجتمع بنا في بيروت حضرة السيد الكامل والشريف الفاضل ، العالم الأزهري الأمير عبد الرحمن باشا الزاهر من سادات اليمن الحضارم

أهل المجد والمكارم ، من ذؤابة عبد المطلب بن هاشم . كان أمير بلاد الآشي وحارب دولة (هولندا) مدة من الزمان ، ثم تغلبوا على تلك البلاد واستولوا عليها بعد قتال شديد وأمد مديد ، ولكن الله يفعل ما يريد لا ما ترجو العبيد . وطلبوا منه ، كما أخبرنا بنفسه ، أن يبقى حاكماً على البلاد من طرفهم فأبى إلاّ الهجرة إلى حرم الله ورسوله فخصصوا له معاشاً كافياً ومرتباً وافياً . وأقام بمكة المكرمة بغاية التعظيم والتكرمة. ثم حضر إلى الشام في العام الماضي لتبديل الهواء وأقام أياماً في بيروت فاجتمعنا به مراراً كثيرة في أوقات وفيرة . وحكى لنا كل أحواله في إقامته وارتحاله وغرائب أفعاله ونوادرأقواله،وترجمة عمره ومبتدأ أمره . وانه كان مجاوراً بالأزهر وحضر على الأستاذ الانبابي وأقام برواق اليمانية مدة طويلة وحصل بعض الكتب الجليلة ثم سافر إلى بلاده ، ومنها إلى بلاد الآشي ، ووقع له فيها ما وقع من الأمور المستغربة والأحوال المعجبة . كما أفادنا أيضاً إنه ابن أخت السيد فضل باشا المقيم الآن بالأستانة تحت رعاية مولانا أمير المؤمنين السلطان الأعظم عبد الحميد خان . وبعد هذا كله رجع إلى محل استقراره بالحجاز . رزقنا الله وإياه حسن المفاز . وأنجز مقاصدنا ومقاصده أتم إنجاز . آمين .

ولقد كان الأجدر بمثل هذا الهمام أن يثبت في كراسة ما رآه من حوادث الأيام،ليكون اسمه حاضراً بين الناس في هذه الدار وإن غاب عنهم بحكم الفناء إلى دار الأبرار .

وقلت في مزية كتب التاريخ المشتملة على تراجم أعيان كل زمان،من أصحاب الحيثيات في سائر جهات العالم بأحسن الأوصاف والمكارم :

إذا كان أمر المرء إن طال عهده ... بحكم الفنا في الناس ينسى وينسخ
فصيّره بـالتاريخ حيـاً مُخلّداً ... ليبقى على طول المدى من يؤرخ

ومنهم العالم التقي والصالح النقي الشيخ سعيد الغبرا من علماء دمشق ،

حضر إلى بيروت لزيارة ولده الشيخ عطا أفندي أحد التجار الدمشقيين المقيمين بها للتجارة ، فصار يتردد علينا لهذه النسبة الصورية إلى العلم ولا يخفاكم أن الجنسية علة الضم . وأوصانا على حفيده الشيخ رضا أفندي وهو شاب صالح وغلام ناجح، قرأ عندنا بعض الكتب الفقهية والنحوية واشتغل بالتحصيل بهمة قوية، حتى ظهرت عليه والحمد لله النجابة وأدرك أقرانه من الطلبة وأترابه.

ولقد كنا في مدة هذه الإقامة ببيروت مشتغلين بمطالعة بعض الكتب السهلة ، ففي أول سنة شرعنا في مطالعة (شرح ابن عقيل) على متن الألفية وكان في صحبتنا أحمد أفندي رشوان ومصطفى بك النجدي الحكيم المصري وهو برتبة (ميرالاي) سابقاً قبل التجريد والنفي ، وإبراهيم أفندي جاد ابن عم الشيخ عبده وبعض أخر ، ولكن لم تساعد الأقدار بإكماله ، فقرأنا منه جملة وافرة وقرأنا في شهر رمضان (تفسير الجلالين) بمجرد الشرح تبركاً واشتغالاً بما يفوت أوقات الصوم في آخر اليوم . وبعد أن فرغ وكان معنا في مطالعته حضرات البكوات المصريين مصطفى بك عبد الرحيم وفوده بك ومحمد بك الزمر ، وغيرهم ممن يحضر من بيروت أو غيرها ، شرعنا معهم في مطالعة (شرح ابن قاسم على أبي شجاع) في فقه الشافعي رضي الله عنه بحاشية الأستاذ الباجوري وبعد أن أكملناه معهم قرأنا لهم أيضاً (متن الجوهرة) بحاشية الباجوري وكان معنا فيها مصطفى أفندي المرعشلي نزيل بيروت وهو من أبناء المدارس وأخو حضرة محمد أفندي المرعشلي باشكاتب المحكمة الشرعية بها سابقاً وبعد أن فرغنا منها شرعنا في مطالعة (شرح الكفراوي على متن الآجرومية) في النحو مع هؤلاء الضباط المصريين ومعهم أيضاً ولدنا عبد العظيم . وبعده في (شرح الباكورة) علينا أيضاً وقد قارب الانتهاء . وفي عزمنا بعد ذلك مطالعة « الفكرية » في النحو لهم أيضاً . وكنا في السنة الثانية من مقدمنا إلى بيروت شرعنا في مطالعة « شرح مختصر السعد على التلخيص » باقتراح بعض الطلبة البيروتية . ولكن لم تساعد الأقدار على إكماله فبلغنا فيه من فن

البيان « مبحث الحقيقة » ولعلنا وصلنا في مطالعته إلى الحقيقة . ويا ليته كمل على هذه الطريقة . ولكن الكسل . أوقف هذا العمل . وكان معنا فيه حضرة الشيخ أحمد أفنـــدي بدران نجل الشيخ حسين بدران المتقدم ذكره في هذه المجموعة ، في ضمن العلماء ومشايخ الطرق وحضرة الشيخ يوسف علايا أحد الخوجات في المدرسة السلطانية الآن وحضرة أحمد أفندي رشوان المصري . وبالجملة فنحن بحمد الله في غالب الأوقات مشغولون بالمطالعات في جماعة أو بالانفراد في محل السكنى لا خارجاً عنه، في نحو مسجد أو زاوية أو غيرهما . فنسأل الله التوفيق لأقوم طريق .

ولنرجع لما كنا بصدده من ذكر من تعرفنا به في هذه الغربة من الأفاضل فنقول : إن منهم حضرة الأستاذ المعمر الكبير الشيخ أحمد المنير الدمشقي الشافعي الفقيه.حضر إلى بيروت في هذا العام بقصد تغيير الهواء لانحراف صحته ومزاجه ومداواة مرضه وعلاجه . ولكن الظاهر عليه ان مرضه انحطاط في القوة بواسطة كبر السن وتقدمه في العمر وليس من الأعراض التي تطرأ وتزول . ولقد زرناه فوجدناه رجلاً على نهج السلف الصالح في التقوى والاشتغال بالطاعة ، لطيف الذات كريم الأخلاق والصفات . أقبل علينا بالملاطفة والمحادثة مع زيادة ألمه وصار يحكي لنا عن أيام مجاورته في الأزهر وحضوره على علمائه في زمن الشيخ القويسني وعن المشايخ الذين اجتمع بهم في مكة المشرفة والمدينة المنورة ، على ساكنها أفضل الصلاة والسلام ، ومعه ولده الشيخ عارف أفندي ، ومنهم السيد أحمد أفندي العجلاني نقيب الأشراف بدمشق قريب ابن منجك باشا الشاعر المشهور صاحب الديوان المطبوع ، ومنهم الشيخ رشيد أفندي المعصراني الدمشقي ، من أهل العلم والأدب . حضر في هذا العام إلى سورية بعد ما أقام بالأستانة مدة من الزمان . وقد تقلد وظيفة جليلة من تعلقات شعبة المعارف من مضمونها التنبيه والتحريض للأهالي على التعليم وإدخال أولادهم في سلك تلامذة المدارس الوطنية لأجل أن يترقوا

في العلوم والمعارف . وهو رجل من عادته كثرة التكلم في الشعر والقصائد والأبيات سواء كان من كلامه أو كلام غيره . ويرى أن الفضيلة كل الفضيلة في ذلك . والله أعلم بما هنالك . وفي هذا القدر كفاية . والله يتولى الهداية . وممن اجتمعنا به ثانية في هذا العام حضرة الأستاذ الماجد . نسل الأكابر والأماجد . الشيخ خالد أفندي الأتاسي الحمصي رجع من الحج على طريق الشام وجاء إلى بيروت وأقام بها بعض أيام . فسلمنا عليه وهنأناه بالسلامة وأخبرنا ببعض مـــا رأى في رحلته بمصر والحجاز . وأفادنا أنه زار السيد الشريف العلوي سيدي أحمد البدوي . ووافق دخوله طنطا وقت المولد الكبير . وانه شاهد من الازدحام على ضريحه ما لم يرَ مثله ولا في الحج . وقد نظم هذه الرحلة في أرجوزة بديعة منسجمة في غاية الطلاوة والحلاوة . وأسمعنا كثيراً من قصائده البديعة النظام الكاملة في السلاسة والانسجام .

وجاء معه في هذه المرة أخوه الكامل الشيخ محمود الأتاسي من أهل العلم الأذكياء الأفاضل النجباء . وممن اجتمع بنا وإن كان اجتماعاً غير متعارف الأمير غلام محمد سردار اكرم ، من بلاد الأفغانستان ، أحد أقرباء الأمير يعقوب خان . هاجر من بلاده وترك الملك وكان كما قيل (أميراً على قندهار) والتجأ إلى الدولة العلية فأقام بالأستانة مدة ، ثم رخص له في التوجه إلى الشام والإقامة بها . ورتبت له الدولة نحو الألفي قرش معاشاً ومعه ابناه وبعض الخدم . وهو رجل ظاهر عليه الصلاح والتقوى . أقام ببيروت بضعة أيام بعد أن خرج من البحر ثم سافر بأمر الوالي إلى دمشق لأجل الإقامة بها . ولما اجتمع بنا في متنزه الحميدية سألنا عن البلاد وأسباب الخروج منها فأفدناه بالحقيقة . فتأسف غاية الأسف وأخبرنا هو أيضاً عن نفسه انه خرج من بلاده بقصد الهجرة لتدخل الاجانب في تلك الجهة ،ففر إلى الله تعالى بدينه وولده وترك الإقامة بين أهله في بلده .

وفي الحقيقة فبلاد الشام أحسن البلاد الإسلامية الآن وإن كانت مصر

أكثر قرآناً وعلماً منها . إلاّ أن الشام خليٌّ من التظاهر بالمنكرات كما في مصر فإن الفواحش مستورة فيها جداً فلا ترى فيها محلات مخصوصة بالمومسات (الزواني) كما في بلاد مصر . ولا ترى تظاهراً بشرب الحشيش والبسط وما أشبه ذلك . ومقاهي الشام كلها سواء في بيروت وغيرها لا ترى فيها غير القهوة والتنباك فقط ، والجالسون فيها بغاية السكينة . ولذلك لا يتحاشى عن الجلوس فيها أمير ولا حقير ولا عالم ولا غيره ، لأنها لا تشتمل على شيء يخل بالمروءة كتعاطي المكيفات والمشروبات والتكلم بالفحش والمجون كما يفعله أهل العته والجنون . وهذه الأمور من مزايا البلاد الشامية . فيا ليت شعري لو تأمر حكام مصر بعدم التظاهر بالفواحش فيها وليس في ذلك عليهم ضرر دنيوي أصلاً ولا هنالك ملجأ يدعوهم ويضطرهم إلى ترك شعائر الدين وشرائع المسلمين ، ويا لله العجب انك إذا سألت أحد الحكام بمصر عن مثل ذلك يقول (إن هذا الزمان زمان حرية . ودول أوروبا لا ترضى بترك الحرية) . وكيف نتعلل في ترك شعائر الدين والإنسانية والمروءة والناموس بقوم هم بعيدون عنا ولا دخل لهم في داخلية بلادنا وشعائر ديننا . ولا نظن أننا إذا منعنا نساءنا ورجالنا عن الفحشاء والتهتك والابتذال في قوارع الطرق وشوارع المدن على رؤوس الأشهاد يعرضون لنا في منع هذا الفساد الذي لا فائدة لهم فيه ولا عائدة تعود عليهم ولا علينا بالمنفعة الدنيوية أو الدينية . نعم لهم فائدة دينية وهي ترك ديننا والدخول في مثل ديانتهم شيئاً فشيئاً لكنهم لا يجرؤون على أمرنا بذلك والحكم علينا به .

وبالجملة فحكام مصر وأهلها ما زالوا يتعشقون في أهل أوروبا وأخلاقهم ومحاكاتهم حتى زادوا عليهم فيها وجاوزوهم من فوقهم ومن أسفل منهم على مقتضى شوقهم إليهم ومحبتهم فيهم . فكيف يتبرمون ويتضررون الآن منهم وهم السبب في دخولهم ومجيئهم بخيلهم ورجلهم . فحسبنا الله ونعم الوكيل في فعل أهل هذا الجيل . وماذا عليهم لو منعوا أهل بلادهم ، وهم تحت

أحكامهم لا يخرجون من قبضتهم ، عن إظهار المنكر والتجاهر بما ينابذ الدين الإسلامي الذي هو دينهم ودين آبائهم وأجدادهم ولهم على التدين به نحو من ألف سنة وثلاثمائة . « أكان » أحد من الأجانب يقهرهم ويجبرهم على ترك شرائط دينهم الحق (كلا) والله ما لهم على الناس في ذلك من سبيل وخصوصاً في تعظيم أهل العلم منهم والدين ، كما تفعل النصارى في قسسهم ورهبانهم وخوارنتهم ، واحترام شعائرهم الدينية ومتعبداتهم .

فإن قلت إن هذا كله من رقة الدين وعدم التمسك به خشية الارتباط بشرائطه ، قلت ان الأوروباويين كذلك ، فيهم من لا يتعبد بالدين ولا يلتفت إليه بالكلية في حد ذاته ولكنهم لا يخلون بشعائره ولا يستهينون بمراسمه ولا يحتقرون أهله ، كما يفعل كبراء المسلمين الآن. فيا ليت أنهم يقلدون النصارى في ذلك أيضاً كما يقلدونهم في أخلاقهم الأخرى . فوا أسفاه على الدين وأهله ، وواضيعتاه عليه عند هؤلاء الأمراء الذين يظنون ان من لازم التقليد الازدراء به وبأهله كلياً . نسأله تعالى أن يلهمهم رشدهم ، ويذهب ما في فكرهم السقيم ، ورأيهم الذميم ، بالنسبة لهذا الدين القويم ، والصراط المستقيم ، بجاه النبي الكريم .

وقد اجتمع بنا في هذا العام جماعة من أمراء جزيرة « سيلان » ، ونحن بالمسجد الجامع الكبير في بيروت بعد صلاة الجمعة ، وليس فيهم من يتكلم بالعربية جيداً إلا واحد منهم يقال له الشيخ إسماعيل من العلماء الكبار وأعيان التجار . فذكر لنا أنهم توجهوا إلى الأستانة العلية ، وفي غرضهم التوجه إلى دمشق والقدس لأجل الزيارة ورؤية المعاهد الشريفة والمشاهد المنيفة . وقد بلغنا في هذا العهد أنهم رجعوا إلى بلادهم بعد قضاء فريضة الحج . وذكرت أصحاب الجرائد عنهم أنهم قوبلوا في بلادهم بكل إكرام واحتفال وإعظام وإجلال ، وعملت لهم زينة فاخرة بديعة المثال ، ويجدر بهم حقيقة ما فعل

معهم من تلك الفعال ، فإن امارة الأمارة عليهم لائحة ، ومخايل الخلال الكاملة فيهم واضحة .

ومنهم سعادة شاكر باشا ، أخو حضرة الأمير الأكرم والوزير الأفخم جناب الصدر الأعظم ، كامل باشا ، حضر إلى بيروت من الأستانة قاصداً التوجه إلى نابلس بوظيفة « متصرف لولاء البلقـاء » . ولكونه مصري التربية في الأصل هو وأخوته سأل عن المصريين الموجودين في بيروت . فتوجهنا لزيارته فرأيناه رجلاً كريم الأخلاق لين العريكة بشوش الوجه حسن الملاقاة ، فأكرمنا بحسن الملاطفة وجميل المذاكرة ، فجزاه الله خيراً عن هذه المجابرة ، ورأينا في معيته أخاه حضرة صادق بك (قائمقام صيدا الآن) .

وقد كان قبل قدوم أخيه في مثل هذه الوظيفة (ببعلبك) . فلما توفي في آخر جمادى الأول سنة ١٣٠٣ ألف وثلثمائة وثلاث جناب المرحوم المغفور له محمود بك اليوسف ، أخو سعادة محمد باشا اليوسف الذي هو الآن (متصرف عكة) بعد أن انفصل من متصرفية طرابلس الشام . وكلا هذين الرجلين من وجوه الشام الكبار في الثروة والغناء والمروءة والوفاء ، رحم الله الفاني وأطال عمر الباقي ، والبقاء لله (كل من عليها فان) ولا بد أن يدرج في الأكفان ، فنسأله التوفيق للهداية والحفظ والحماية ، من سلوك طرق الضلال والغواية .

ولقد حضر سعادة شاكر باشا مرة أخرى إلى بيروت في أواخر شهر جمادى الثاني من هذا العام لصدور الأمر له بالانتقال إلى ولاية أزمير متصرفاً أيضاً في إحدى المتصرفيات بها . فنزل ضيفاً كريماً على جناب السيد محيي الدين أفندي حماده فزرناه أيضاً في منزله وخلفه في متصرفية البلقاء سعادة أحمـد باشا أباظه أخو بحضرة المرحوم الصالح الشيخ أبي خليل أباظه . وقد تقدم في هذه المجموعة الكلام على هذا الأستاذ وأنجاله وحضرة أخيه الباشا المذكور ، فلا حاجة إلى العود والإعادة وما ذكر كفاية في الإفادة .

ومنهم حضرة الشيخ عبد الرزاق البيطار . من أفاضل علماء دمشق المشهورين . حضر إلى بيروت في شهر رجب الفرد من شهور سنة ١٣٠٣ ألف وثلثمائة وثلاث وجاءنا زائراً في منزلنا . فرأينا منه رجلاً كاملاً لطيف المحاضرة ظريف المحاورة ، له اشتغال بكتب القوم ومشاركة في علوم الآداب والآلات.وبالجملة فهو رجل كامل الأخلاق والصفات ، أديب شاعر وكاتب ناثر . اطلعنا له على رحلة كبيرة تشتمل على عدة رحلات . منهسا الرحلة القدسية ، والرحلة البعلية ، وغيرهما . وفيها نظم رقيق ونثر بليغ رشيق . وهو مع ذلك من الحفاظ المجيدين والقراء المجوّدين . وكان في معيته ببيروت نجله وولدا أخيه واحد تلامذته الأخصاء ، وهو الشيخ حسين الدمشقي له صوت مشجي ، ونغم مطرب . أمره الشيخ وهما عندنا بالمنزل أن يسمعنا من كلام القوم فغنى حتى أطرب المغنى وأبكى بعض الحاضرين معنا من حلاوة تلك الألفاظ ورقة ذلك المعنى . وقد جاءنا معه في هذه النوبة حضرة الأستاذ الحـــافظ الشيخ عبـــد الله أفندي الحموي الأصل الدمشقي الإقامة . وكان قادماً من الديار المصرية توجه إليها في قضاء بعض أغراضه وحضر مولد السيد البدوي بطنطا وهو المولد الصغير . وذكر لنا أنه اجتمع بحضرة الشيخ محمد سراج ، شيخ السادة القراء بالمقام الأحمدي ، وبحضرةالشيخ يوسف عجور أحد أعيان القراء بالمقراة الشريفة الأحمدية ، وشاركهم في مسائل من فن القرآن لأنه ممن اشتغل بها في الشام على شيخ القراء بها وهو الشيخ الحلواني الشهير بالجمع ، في القراءات السبع . ثم أننا اقترحنا على حضرتي الشيخين الشيخ البيطار والشيخ الحموي أن يسمعانا من كلام الله القويم ما يشفي القلب السقيم . فقرأ الأول عشر « إن الأبرار لفي نعيم » وقرأ الثاني « آخر الفتح » بصوت رخيم ، وحسن أداء قويم . وكانت بقراءتهما خاتمة هذا الجلوس . مما تروح به الروح وتحيا به النفوس . و« وفي ذلك فليتنافس المتنافسون » وبه فليتقرب المتقربون . ولقد فاتنا أن نذكر حضرة الشيخ عبد الله جمال الدين نائب بيروت حين قدومنا إليها فإنه من الرجـــال المعدودين . والأفاضل

المستعدين . عالم بطريق الرياسة . خبير بأحوال السياسة . ثابت الجنان . قوي الأركان . غاية في الفطنة والاتقان . متضلع بمعرفة القانون . له معرفة بغالب الفنون . تولى تفتيش العدلية مدة من الزمن . فمشى فيه على أقوى أساس وأقوم سنن . ثم تولى النيابة المذكورة . وسار فيها سيرة مشكورة . ولما انقضت مدتها المحدودة . وعدتها المعدودة . توجه إلى الأستانة . وتولى نائب آخر مكانه . إلاّ أنه لم يكن ذا صيانة . ولا صاحب أمانة . فرفع وخلفه النائب الحالي . وهو حقيق بهذا المنصب العالي . لأنه رجل كامل لطيف . رصين دين عفيف . وقلت فيه مع التورية باسمه والتنويه عن لسان أهل بيروت .

لسان الحال من بيروت يحكي بقول معرب عن كل صدق
يزين الحكم إنصاف وعدل كما ازدانت نيابتنا بحق

(حقي)

وقلت أيضاً :

في ثغر بيروت قاض قد حاز غاية سبق
فمجلس الشرع فيها جارٍ بأحكام حق

(حقي)

وممن ظفرنا بالاجتماع به في مـــدينة بيروت في هذا العام حضرة الأستاذ الفاضل الشيخ يحيى الانطاكي ، مفتي مدينة أنطاكية سابقاً ، وهو رجل عالم سخي النفس كريم الأخلاق سهل العريكة ينظم الشعر الرائق ، مع التخيل الفائق ، باللغة التركية . ولقد سمعنا عدة قصائد من كلامه في المديح والرثاء وعدة تواريخ ظريفة ، مشتملة على معاني لطيفة ، بتلك اللغة المذكورة . وذكر لنا أنه سافر إلى الحجاز وجاور بمكة المكرمة وتعرف بعظماء مكة وأشرافها وصار له قبول تام في تلك الأماكن الطاهرة . وكذلك رحل إلى الأستانة ومدح

بعض رجال الدولة إذ ذاك . وهو رجل صالح من بيت عظيم في أنطاكية وله خاصية كبرى بالنسبة إلى تلك البلاد وهي حفظ القرآن المجيد وتكلمه باللغة العربية الخالصة التي لا يشوبها أدنى عجمة . وبلغنا أنه كان في عهد قريب متوظفاً في ولاية سورية بوظيفة « مكتوبجي الولاية » . ثم انه العام أحضر عياله وحرمه من أنطاكية مع كونه من ذوي الثروة فيها وأصحاب القيناقات على لغة أهل الشام أي المضايف في اصطلاح مصر . فالقيناق عندهم كناية عن البيت المعد للضيفان والمسافرين . كما أن الخاندان عبارة عن الرجل الكبير الأمير كمـــا يقولون في مصر من الذوات أو من الأمراء . ومنهم الشيخ عبد الوهاب الزاهد الماردي بلداً النقشبندي طريقة من أهل العلم والطريق أفادنا ان بلدتهم (ماردين) مركز متصرفية من ولاية (ديار بكر) ، وبها مدرسة الإمام السكاكي التي ألف فيها (المفتاح) ودرس بها . وفيها أيضاً مدرسة أخرى عظيمة عامرة بالعلماء والمدرسين وكان من العلماء المشهورين المدرسين بها الشيخ محمد حسيب المشهور (بعرب زاده) وبعد أن توفي الأفندي المذكور صار الشيخ أحمد أفندي حلمي بدله في التعليم بتلك المدرسة والشهرة في العلوم وإن لها إيراداً في كل سنة نحو المائة ألف قرش وبها أيضاً مدرسة أخرى تسمى (مدرسة الثمانين) وهي مشهورة (بالشهيدية) بناها ناصر الدين الشهيدي للإمام الزمخشري ودرس بها زماناً طويلاً . وفي ماردين الآن من العلماء المشهورين الشيخ عبد الرحمن أفندي النقشبندي رأيت له شرحاً على (منهاج الأصول) للبيضاوي اختصر فيه شرح الإمام الشيخ عبد الرحيم جمال الدين الأسنوي المصري وهو الآن تحت الطبع في المطبعة الأدبية ببيروت .

ومن علمائها أيضاً الشيخ عبد السلام أفندي الماردي ، صاحب التاريخ المشهور ، ذكر فيه من بدء العالم إلى زمن السلطان محمود . وقد توفي في عصر قريب . وأخبرنا الشيخ عبد الوهاب المذكور ان لهم اشتغالاً بكتب الفقه من مذهب الشافعي (كالمحرر والأنوار) للأردبيلي وغيرهما من الكتب التي

لا تقرأ عندنا بمصر الآن . فلله الحمد على وجود أناس في مثل هذه الجهات لهم اشتغال بهذه الكتب المهجورة ، جعل الله بلاد الإسلام عامرة بكتب العلم والدين إلى يوم الدين .

وممن اجتمعنا به في مدينة بيروت من مدة سنتين أو أكثر حضرة السيد الأمجد والشهم الأوحد، نادرة الزمان وواحد الأمراء الأعيان، صاحب المعالي والمفاخر السيد عبد الرحمن باشا الزاهر، من أهالي (حضرموت) اليمن وساداته الكرام نجل أخت السيد فضل باشا المقيم الآن بالأستانة في رعاية مولانا أمير المؤمنين الخليفة الأعظم السلطان عبد الحميد خان، مغموراً بانعاماته الوافرة وإحساناته المتكاثرة ، وقد كان السيد عبد الرحمن باشا المذكور حاكما في بلاد الآشي برتبة (وزير) ثم صار أميراً مستقلاً بحكومة شرعية على قوانين الدين الإسلامي تحت قضاء قاضٍ شافعي ، ومجلس شوروي يحكمون بالعدل والإنصاف بدون مراعاة أو محاباة لأحد من عظيم أو حقير . وما زال الأمر بينهم على هذه الحال إلى أن سافر هذا الأمير لزيارة خاله السيد فضل باشا فانتهزت دولة هولاندا الفرصة في غيبته وأجرت أسباب المشاحنة والمنافسة مع هذه الأمة مع جهلها بالأحوال السياسية . حتى وقعت بينهم الحروب والمقاتلات. فلما سمع بهذه الواقعة حضرة السيد عبد الرحمن باشا المذكور ، حضر مسرعاً فوجد الطرق مسدودة عليه وصورته في كل الأساطيل والمين البحرية . فما زال يتحايل حتى لبس تبديلاً بصفة رجل عربي يبيع الدجاج . ونزل في وابور هولاندي بحالته المتنكرة . ولم يفطن له أحد من مستخدمي الوابور إلى أن نزل على أسكلة قبل الاسكلة المنسوبة لتلك الدولة . ثم سار ليلاً ووصل إلى أطراف بلده وطلب منهم توصيله إلى مركز الحكومة بحجة أن معه مكاتيب وتحارير لحاكم المدينة . فأوصلوه إلى المدينة وهو بحالة التنكر فما شعر أهلها إلاّ وأدرت المدافع تضرب ، فعلم أهلها أن أميرهم قد حضر فزاد سرورهم واستبشارهم وثباتهم . ومكثوا زماناً طويلاً يدافعون عن بلادهم وهم محصورون براً وبحراً حتى تغلبوا عليهم ودخلوا بلادهم . وقبضوا على

الأمير وأجروا معه معاهدة على النظامات والقوانين التي يكون عليها العمل في حكومة البلاد وإدارتها . وطلبوا منه الإقامة في البلاد على أن يكون حاكماً تحت حمايتهم . فلم ترض بذلك نفسه الشريفة . وطلب الترخيص له في الخروج منها والإقامة في الأقطار الحجازية فرخصوا له في ذلك ، وأجروا عليه مرتباً عظيماً سنوياً نحو العشرة آلاف جنيه ، ثم انه في هذه الأثناء قصد السياحة وتبديل الهواء فحضر إلى سوريا وأقام عندنا في بيروت مدة ثم زار دمشق الشام وأخبرنا انه جاور بالجامع الأزهر مدة وكان مقيماً برواق اليمن ، وله صحبة بالسيد اليمني «شيخ الرواق المذكور» وبالأستاذ الانبابي ، وانه استصحب معه عند الرجوع إلى بلاده أحد العلماء الأزهريين لأجل أن يقرأ معه دروس العلم في تلك البلاد على مذهب الشافعي رضي الله عنه .

ثم ان هذا العالم توفي عندهم في البلاد اليمنية قبل أن يسافر إلى بلاد الآشي ويتولى الحكم بها .

وأخبرنا أيضاً انه شرع في إنشاء عمارة ظريفة في جدة ثم رجع إلى الحجاز . وأخبرنا ذلك الأمير بأشياء من غرائب الأخبار ونوادر الآثار التي اطلع عليها في السياحة والأسفار، في بلاد الهند والجاوة (ومحل ملكه) وهي بلاد الآشي لم نذكرها لطول الشرح . وقد تقدمت ترجمة السيد عبد الرحمن الزاهر المذكور قبل هذا المحل إلا أنها مختصرة عن هذه الترجمة .

وممن اجتمع بنا في بيروت في هذين السنتين الأخيرتين في شهر رمضان خاصة الشيخ الحمصي المشهور بالجوعان رجل شاعر مغنٍ عارف بالموسيقى له شغف بتبديل القصائد الأدبية وبالخصوص قصائد الشيخ محمد أفندي الهلالي الحموي المتقدم ذكره . فإنه متى سمع قصيدة أو موشحاً أو دوراً غيّره بالأكل والشرب والأطبخة والحلواء بأعجب طريق وأغرب أسلوب وليس له في سوى ذلك مقال . فسبحان واهب الملكات ومدبر الكائنات.

كان يحضر إلى منزلنا في ليالي رمضان ، ويسمع قراءة القرآن من اخواننا الحفاظ المصريين الذين كانوا في تلك السنين الأربع يحضرون للسهر عندنا في بيروت مع تكبد المشاق ، ومعاناة ما لا يطاق في البحر وأهواله ووابور مصر وأحواله . كل ذلك مراعاة لخاطرنا وقصد تسليتنا ومؤانستنا حتى يبتل شوقنا إلى سماع القراءة المصرية والأصوات الحسنة الشجية . فإن أحدهم وهو الشيخ محمد إبراهيم صفي الدين من أصحاب الأصوات المطربة ، والقراءة المجودة الجيدة . وثانيهم وهو الشيخ محمد خليفة من الحفظة المشهورين بالصوت الرخيم والقرآن العظيم ،ومع ذلك له طريقة في قراءة المولد الشريف النبوي على تقليد الشيخ حسن الآلاتي الذي اشتهر في مصر بهذه الصناعة والإتيان بها في غاية البداعة .

وبالجملة فكلاهما مقرىء ومنشد عظيم . جزاهم الله عنا في هذه الخدمة . بأوفر الإحسان والنعمة .

ولقد حضرنا في هذا العام فرح الشهم الهمام . عزتلو حسن أفندي بيهم نجل الأمجد الكامل ، عبد القادر أفندي بيهم ، ولد الحاج عبد الله بيهم الرجل الكبير المعمر ، الذي هو أشهر عائلة آل بيهم . ولقد احتفل بهذا الفرح غاية الاحتفال حتى عملت سهرة الزفاف في بيت الحاج عبد الله المذكور ، واجتمع له خلق كثير من ذوات وأعيان وعلماء وفضلاء . وبعد أن أديرت عليهم الشربات والشموع وتليت القصائد البديعة في التهاني . والتواريخ والمقالات الرائقة باللغات العربية والفرنساوية والتركية وغيرها . ولكاتبه الفقير العاجز قصيدة في التهنئة والتاريخ وهذه صورتها :

تلك المسرات جاءتنا على قدر وباعث الأنس وافانا على الأثر
في ليلة كليالي القدر زاهرة تزهو بجبهة هذا الدهر كالطرر
وصبح اقبـــالها بالعز لاح لنا في نور إشراقه يغني عن الغرر

وهذه من عيون العصر خيرتها   تتيه عجباً بما تحويه من حور

مواسم صرن أعياداً لبهجتها   وحسن رونقها في هذه العصر

فيها لذي العزة القعساء مكرمة   بما حوى من قضاء الحظ والوطر

ذاك الكريم كريم الأصل فاخره   نسل الأماجد في بدو وفي حضر

أنعم به حسن الأخلاق طيبها   وخلقه كنسيم الروض في السحر

شهم ذكي فصيح ماهر ذربٌ   ندبٌ بليغٌ بديعٌ جيد الفكر

وشاعر بمعاني الشعر ينظمها   من الفرائد في عقد من الدرر

وعالم بفنون في اللغات بهــا   يمتاز حقاً بحسن السير والسير

من بيت بيتهم العالي الذرى شرفاً   فانزل بحيهم الحامي من الخطر

لا زال حظهم يسمو وحفظهم   من حادث الدهر في أمن من الضير

ونجلهم بمجالي الأنس متكيء   من السرور على عال من السرر

ما قام داعي الهنا يوماً يؤرخه   عز القران بدا للشمس والقمر

في ٢٠ شوال سنة ١٣٠٣

وقد أنشأ حضرة الأخ الشيخ أحمد قصيدة تهنئة بهذا الفرح المبارك فقال :

لله يوم كمـــا شاء الهوى حسن   يضيء في وجهه هذا الفتى حسن

وليلــة قــد أنارت بالزفاف فلم   يظهر لنــاظرها من نوره دخن

وأشرق الشرق مثل الغرب حين بدا   كالبدر وسط نجوم وجهه الحسن

كــأنما فلق الأصباح لاح بهــا   والشمس بالبدر في الأفلاك تقترن

فاترع القلب من أحبــابه فرحاً   وكل قلب من الأعدا به ضغن

وقد ترامت لذاك الجو من حمق   على الحسود سهــام اثرها دخن

لكنهــا لنجوم الأفق زاهـــرة   تضيء للناس إن حلوا وإن ظعنوا

فأصبحت زمر الأحباب في طرب   من السرور وأمسى في العدا الحزن

والدهر وفى وقــد وفى بموعده   وإنـــه لجدير بالوفا قمـــن

حيث المسرات والأفراح قد جمعت | والأنس والأمن والآمال والمنن
وصـــار يمحو بـإحسان إساءته | هذا بذاك ولا يستعتب الزمن
فسرّ في الحال سر الحال وانشرحت | منه الصدور وطاب السر والعلن
لا تنكروا منه إقبالاً على حسن | فكل شيء بذاك الحسن يفتتن
ندبٌ أريبٌ أديبٌ مفردٌ علـمٌ | شهمٌ نبيهٌ نبيلٌ كاملٌ فطنُ
نسل الأكارم مأمول المكارم من | قد أخلصته لها الأيام والوطن
قد قام فينا خطيباً حينما خطبت | له المعـالي وتمت عنده السنن
وأحسن الناس من فصل الخطاب له | وأخطب الخلق في العليا هو اللسن
حدّث بلا حرج عنه وعن فرح | فالعين تعرف ما قد قلت والأذن
وطالع السعد قد أضحى يؤرخه | قران شمس العلا من بدرها حسن

سنة ١٣٠٣

ولقد حضرنا في هذا الشهر أيضاً احتفال (المدرسة السلطانية) في جمع عظيم . وكان من أنظم ما يكون من الاحتفالات التي حضرناها في مدينة بيروت وذلك بحضور كثير من عظماء الوقت علماً وإمارةً ، مثل : سعادة نصوحي بك (متصرف بيروت) ، وسعادة سالم باشا (كمندان العسكرية) بهذا اللواء ، وسعادة عبد الله باشا فكري المصري (ناظر ديوان المعارف سابقاً) بمصر ، وحضرة أمين بك ولده وغير هؤلاء من الأكابر والأعيان . وأجريت صورة امتحان للتلامذة في الرياضة والبلاغة والفرنساوي . وتليت المقالات والخطب البديعة من التلامذة والخوجاوات ، مثل حضرة الأستاذ الفاضل رب البلاغة والفصاحة والذكاء المفرط جناب الشيخ محمد أفندي عبده المصري ، ولقد أعجب الحاضرين وبهر عقول السامعين . وبالجملة فمدارس بيروت الآن ، غاية في الالتفات والاتقان ،سواء كانت مدارس ذكور أو إناث . جعلها الله وبلاد الإسلام عامرة بالعلوم والمعارف واللطائف والظرائف . وفاتنا من أهالي بيروت وأعيانها كثير إلاّ أن في القليل ما يغني عن الكثير .

فممن تركنا ذكرهم أولاً حضرة أبي يوسف البربير وولده السيد سعيد أصهار بلدينا الأمجد حضرة أحمد بك عبد الغفار (أميرالاي مصري) من جملة المنفيين في المسألة المصرية . وكان سكننا في منزل العرقجي المجاور لبيت أبي يوسف المذكور . ومنهم الحاج عبد القادر خرمه وأولاده ومحيي الدين القاضي والحاج محمد زنتوت ومحمد أفندي دَيّه وجناب محمود أفندي درويش وأولاده . وحضرة أحمد أفندي دريان ومحمد أفندي سلام والحاج زين سلام . والسيد أمين بكتاش . والسيد رشيد بكتاش والحاج خليل صوبره . وولده إبراهيم . وحضرة صديقنا وعزيزنا الشيخ مصباح شبارو وعيالهم جميعاً . والحاج خليل محيو وأولاده ، وحضرة الشيخ فضل أفندي القصّار . وعائلة كيون الشاميين وهم أبو رضا والشيخ أحمد أفندي والشيخ نجيب وولده رضا أفندي . والحاج أحمد أفندي الحبال . والحاج إبراهيم الجارودي وأخوته . وحضرة الأديب الشاعر محمد أفندي اللبابيدي .وحسن أفندي العجم ووالده وأخواه السيد أمين وعبد الرحمن أفندي العجم والشيخ عبد الحميد يموت . والسيد حسن الشجعان . وأخوه محمد بك الشجعان وأولادهم والحاج أحمد البدرشيني . وأولاده محمد سعيد . ومحمد يونس . والسيد حسن منيمنة والسيد عبد الرحمن القباني من أكابر عظماء بيروت ، وأبو محمود خرمه . وخليل أفندي البربير . والحاج محيي الدين النصولي . والشيخ طه أفندي النصولي. وسعد الدين رمضان . ومحمد أفندي علي القباني ، صهر بيت العريس . ومصطفى أفندي الرفاعي وأخوته أولاد المرحوم الشيخ أحمد الرفاعي والشيخ مصطفى نجا . وأخوه السيد عمر نجا من بيت نجا المشهورين بهذه المدينة قديماً . وبيت النقاش وبيت أولاد جمال الدين وهم خضر آغا جمال الدين والشيخ رجب جمال الدين وهو من معلمي المدارس السلطانية وغيرها وله اليد الطولى في التعليم والتفهيم وله مؤلفات ابتدائية نافعة للتلامذة جداً . وبيت العريس عائلة مشهورة قديماً وبيت (الدنا) وهم عزتلو عبد القادر أفندي الدنا (رئيس

مجلس التجارة) وأخوه رشيد أفندي الدنا (صاحب الجريدة الجديدة المسماة ببيروت) ظهرت في هذا العام وبيت بيضون .

ومن تجار أهل الشام المقيمين في بيروت أبو سعيد الحفار وأخوته . والسيد محمد اياس . وهو أغنى رجل فيهم . له بعض إحسانات ومعروف . والسيد عطا الغبرا والحناوي .

وليعلم قارىء هذا المجموع ان أهل بيروت يكتفون في الغالب بالكنى والألقاب ويتركون الأسماء فيقولون أبو سعيد مثلاً . وأبو سليم . وأبو رشيد فلا يدرى من كثرة إطلاق الكنية ما اسم هذا الرجل وغالب الأسماء المداولة بينهم كثيراً محيي الدين ، وسعد الدين ، وعبد القادر ، وسعيد ، ورشيد ، وسليم ،وأمين ، ومصباح . وأما الأسماء المشهورة في مصر كثيراً مثل محمد ، وأحمد ، وعلي ، وإبراهيم ، وعمر ، ومصطفى . فهي قليلة في بيروت جداً وكذا في بلاد الشام كلها .

الرجوع الى مصر

ولقد حررت هذه الجملة الأخيرة في يوم الاثنين ثاني شهر ذي القعدة من سنة ١٣٠٣ ونحن على أهبة السفر إلى بلاد مصر وإن كنا لم نقطع بالتوجه في يوم تاريخه بل (اما غد زعموا أولاً فبعد غد) ومعنا من الرفقاء الشيخ محمد إبراهيم صفي الدين البرطباطي أحد الحافظين المعتادين على السهر عندنا في الشام كل عام .

وثانيهما حضرة الشيخ محمد خليفه الفشني جزاهما الله عنا أحسن الجزاء على هـــذا السعي الجميـــل « وعلى الله قصد السبيل » . وفي صحبتنا أيضاً اتباعنا الذين حضروا معنا من أول المدة وهم الشيخ أحمد بدوي البهنساوي وعبد الحميد عثمان أصلان ومحمد عثمان ومحمد علي أبو المسعودي الذي حضر في العام الماضي مع ولدنا عبد العظيم فإنهما لم يزالا مقيمين عندنا من عام أول إلى هذا العام لغرض التوجه صحبتنا إلى البلاد فنسأل الله من فضله وكرمه وامتنانه أن يكتب لنا السلامة في السفر والحضر والإقامة .

ومن جملة العازمين على التوجه في هذه الدفعة إلى البلاد المصرية أخونا فوده بك حسن (أحد الضباط المنفيين في المسألة المصرية) ومحمود أفندي أحمد أيضاً والشيخ يوسف إسماعيل الصغير من بني أحمد من مديرية المنيا

ومركز بني مزار وهو أيضاً من المنفيين المصريين المقيمين معنا في بيروت تلك المدة إلا ّ قليلا ً منها توجه فيه إلى الشام وحمص وأقام بها زمناً قليلا ً، والله المسؤول أن يبلغنا جميعاً المأمول بجاه الرسول، وآله الكرام وأصحابه نجوم الهدى وبدور التمام .

ثم لم نزل مقيمين في بيروت إلى عصر يوم الثلاثاء وقد صممنا على السفر إلى مصر في الوابور الخديوي المسمى بالرحمانية فقطعنا التذاكر للسفر فيه وأكملنا التأهب لذلك بجميع ما معنا من الفرش والغطاء والصناديق وغيرها . وقصدنا صلاة العصر في مسجد سيدنا يحيى الحصور على نبينا وعليه أفضل الصلاة وأتم التسليم .

وذلك عادة من يريد السفر من أعيان البلد وتهرع الناس لتوديعهم يريدون التخفيف على المودعين لهم عند إرادة سفر بعيد كالحج أو أسلامبول فيصلون الصلاة في مسجد جامع ويودعون إخوانهم وقد فعلنا ذلك كعادتهم . فاجتمع خلق كثير من عظيم وحقير وصاروا يأخذون خاطرنا من المسجد بل الأكثر والأعظم لم يفارقونا حتى نزلنا في الفلوكة إلى الوابور . والبعض منهم نزل البحر في فلائك مخصوصة إلى أن ودعنا من البحر في الوابور وكان هذا الوداع علينا من أشق وأشد ما رأينا . فإن عشرة هؤلاء الناس قد أثرت في أنفسنا تأثيراً عظيماً وكأنهم صاروا جميعاً من أهلنا وأقاربنا ، فصرنا نبكي وقد خنقتنا العبرة ولم نستطع صبراً على فراقهم وهم كذلك قد ظهر عليهم من التأثر بسفرنا ما لا يوصف ومن الازدحام ما لا يحكى . وهذه عوائدهم مع العظماء من أهل البلد إذا سافروا سفراً بعيداً . ولقد شاهدنا منهم ذلك كثيراً بل كنا في جملتهم مراراً كثيرة . وبعد أن طال علينا المدا في التوديع على رصيف المينا والأسكلة وظهر علينا الضعف من الازدحام والاغتمام والبكاء والتأسف ، قام منهم من أنزلنا إلى الفلوكة قهراً عن الناس وعنّا خوفاً من التأثر الشديد وضيق الزمن على النزول وسافر الوابور قبيل الغروب . ولم يزل يسير بنا إلى أن وصلنا

(يافا) صباحاً وأقمنا بميناها إلى قريب الغروب أيضاً . وسافرنا إلى أن وصلنا (بورت سعيد) في الصباح أيضاً وأقمنا به مدة يسيرة وتوجهنا إلى اسكندرية ظهراً وما زال الوابور يمشي إلى أن دخلناها في الصباح أيضاً، وعند رسو الوابور نزل علينا صديقنا الأمجد المحترم علي أفندي منتصر شيخ المغاربة التجار بالاسكندرية وكان نزوله لأجل ملاقاة نسيبته الست حرم محمد بك الزمر المصري فالتفت هذا الرجل لأمر نزولنا واعتنى بذلك غاية الاعتناء . وذلك مما يؤثر له من مكارم الأخلاق . حيث انه انفرد بهذا الالتفات وما زال معنا إلى أن دخلنا أودة الباسابورتو وعرّف عنا المستخدمين فيها ، ولم يكن إذ ذاك كبيرهم حاضراً وهو رجل مسيحي يقال له إسحاق بك . فعندما حضر أوصاه بالاهتمام في أمرنا . ولكن لسوء القضاء كان أمر الداخلية بالإذن في الدخول إلى القطر المصري لم يحضر . وذلك لأن كل من خرج من هذه الديار في جزاء هذه المسئلة محكوماً عليه بسنة مثلاً لا يصرح له في الدخول فيها ما لم يقدم عريضة إلى ديوان الداخلية مثلاً . ثم أن الداخلية تكتب إلى المعية الخديوية وترجع عليها الكتابة بالإذن من الجناب الخديوي ، ثم أن الداخلية بعد ذلك تكتب إلى سائر الثغور بالترخيص لذلك المنفي بالدخول وعدم التعرض له بالمنع . وعندما دخلنا ثغر الاسكندرية يوم الجمعة لم يكن أمر الداخلية الأخير قد حضر إلى محافظة اسكندرية فضلاً عن وروده لمصلحة الباسوبورتات ،فلذلك التزمنا التوجه مع مخصوص من هذه المصلحة إلى المحافظة ، فلم نجد المحافظ بها في هذا اليوم لكونه يوم عطلة عن الأشغال . ولولا وجود حضرة علي أفندي معنا في هذا الوقت لبقينا في المحافظة أو الضابطية إلى يوم السبت عند إدارة الديوان . ولكن علي أفندي المذكور توجه إلى المحافظ في بيته قريباً من الديوان وقص عليه القصص فأمر بحضورنا أمام داره عند إرادته الركوب في العربة إلى المعية لأجل أن يصلي في أبي العباس مع الجناب الخديوي فعندما قابلنا أفادنا أن أمر الداخلية إلى الآن لم يحضر وسنرسل إليها باستعجال حضوره حيث أنه صدر على ذلك أمر خديوي عالٍ وأمرنا بالذهاب مع حضرة علي أفندي إلى

الجامع لصلاة الجمعة ، ومنه إلى بيته حتى يصدر لهم الأمر من الداخلية . فلم نزل مقيمين في منزل علي أفندي من يوم الجمعة إلى يوم الأحد وفي خلال هذه المدة صار علي أفندي المذكور يتردد على سعادة المحافظ لينظر هل حضر الأمر له من الداخلية أم لا إلى أن أفاده في يوم الأحد المذكور بحضور الأمر وطلب منه أن نحضر لديه في المحافظة لأجل أن يتكلم معنا بالوصايا اللازمة للحكومة من حيث لزوم السكون والسكوت وملازمة البيوت . فتوجهنا إليه صباح ذلك اليوم وتكلم معنا بتلك الوصايا ،والتزمنا له بالامتثال كما هي عوائدنا في سالف الأحوال وعلى الله حسن المآل .

ثم سألنا عن السفر فأفدناه اننا عازمون على السفر في هذا اليوم ، لعدم وجود داع إلى التأخير بالاسكندرية ، بل شوقنا لرؤية العيال يحملنـــا على الاستعجال . فنزلنا في وابور الظهر من الاسكندرية وكانت التذاكر مقطوعة لمحطة طنطا لداعي زيارة شيخ العرب السيد البدوي في مولده الكبير السنوي حيث كان إذ ذاك قائماً منصوباً . فدخلنا طنطا قبل الغروب بنحو ساعة ونصف وما زلنا بضريح السيد إلى أن غربت الشمس وصلينا المغرب بذلك الضريح الأنور ،وحيث سمع بمجيئنا حضرة قاضي أفندي المديرية جناب العالم الفاضل الأستاذ الشيخ عبد الرحمن القطب النواوي وحضرة مفتي أفندي الأستاذ الشيخ عمر الرافعي حضرا للسلام عليناقي ضريح أبي فراج شيخ العرب السيد البدوي. ثم توجها معنا إلى المحطة فقطعنا تذاكر السفرفي وابور الليل، ولم نمكث برهة حتى حضر ، وركبنا فيه إلى مصر فوصلنا محطة باب الحديد بعد العشاء بيسير وقد كان معنا جناب الأخ الأمجد والشقيق الأوحد حضرة عبد اللطيف بك القاضي نجل الأخ الأكبر والبدر الأنور عزتلو علي بك القاضي ابن عمتنا فدعانا إلى النزول في منزلهم العامر الكائن بالدرب الأحمر بجوار جامع أصلان ، فاخترنا النزول عندهم على النزول في بيتنا الكائن بالسكرية في عطفة الحمام ، لغرض التباعد عن الازدحام وتراكم الزوار من خاص وعام ، مراعاة للحالة

الحاضرة والعيون الناظرة، لمثلنا ممن أبعدوا عن الديار. فإنهم على الدوام تحت مراقبة العيون والنظار، ولهذا الداعي لم نقم بمصر إلاّ ليلتين ليلة الاثنين وليلة الثلاثاء، وتوجهنا صبيحته إلى البلد بدون أن نلوي على أحد.

ولقد رأينا من كبار العلماء ومشايخ الإسلام ما يقضي علينا بالمبادرة إلى السفر، حيث أنهم أظهروا من الخوف على أنفسهم وعلينا في التأخر عن السلام والزيارة ما لا يحكى ولا يشكى إلاّ إلى الله تعالى. ولكن بالرغم عن هذا التحرز والتحفظ قد تراكمت علينا في منزل البك المشار إليه زمر من أهل العلم والأعيان من تجار مصر غير مبالين بمراقبة أولي الأمر.

ولقد كنا ونحن بالشام قبل النزول منه والقيام، أكدنا على أولادنا بمنع كل من أراد المقابلة معنا سواء في مصر أو في الاسكندرية أو على المحطة. ومن أجل ذلك أخفينا عليهم تعيين يوم السفر من الشام أو الاسكندرية أو مصر. وكنا لا نكتب لهم عن محل من هذه المحلات إلاّ بعد الوصول إليه والنزول به فعلاً وهكذا الأخ، حتى نزولنا بمحطة مغاغة لم نعلمهم في أي يوم يكون مع الاحتياج إلى إرسال الركائب الموصلة إلى البلد. وتركنا الأمر سدى حتى وصلنا مغاغة، فوجدنا مع كل هذه الاسرار كثيراً من أهالي البلاد الصغار منهم والكبار واقفين في غالب المحطات للانتظار والحمد لله الواحد القهار.

ولم يزل الازدحام وتراكم المسلمين من محطة مغاغة إلى أن دخلنا البلد بحالة لا تخطر بخاطر أحد، ولا سيما في هذا الوقت الصعب المستغرق بالهموم والكروب فسبحان مقلب القلوب وعلام الغيوب.

واستمر هذا الازدحام، قريباً من تمام العام، ولكن بدون رغبة منا ولا مرام، بل كنا في خلال هذه المدة نظهر النفور والتكدر من اجتماع الناس. حتى التزمنا في أول الأمر عدم الخروج من المنزل، وصار الحاضرون من الإخوان والأحباب يرسلون إلينا سلامهم ونرسل نحن إليهم الرد والتشكر والممنونية بدون مقابلة، ومع كل ذلك لم تخف الزوار فسلمنا أمرنا إلى الله

وخرجنا لهم بعد مدة متوكلين عليه مفوضين أمرنا وأمرهم إليه،وقد منّ علينا بالستر الجميل والفضل الجزيل وهو حسبنا ونعم الوكيل .

ولقد أشار علينا كثير من الاخوان والأمراء بالترجي والاستسماح من حضرة الخديوي الأعظم فقدمنا له جملة عروض تتضمن طلب العفو والصفح والتعطف بغاية الانكسار والاسترحام والتلطف.فلم تجد نفعاً ولم توجب دفعاً ، بل كلما زاد الطلب . بعد الأرب ، وانعكس الأمر وانقلب . والأمور مرهونة لأوقاتها ومربوطة بميقاتها . وهو العالم بالنفوس ونياتها وظواهر أحوالها ومكنوناتها . ولعل السبب في توقف جناب الخديوي عن الصفح هو تمكن الوشاية التي ألقيت إليه من قلبه لعدم وقوفه من قبل هذه الحادثة على حقيقة حالنا وانا من أولاد الفقراء المشتغلين بقراءة العلم مدة من الزمن في الجامع الأزهر وغيره . وقد أفاده الوشاة أننا ما فعلنا ذلك الأمر وقمنا في هذا الشأن إلا تشيعاً لعرابي باشا وإعظاماً وإجلالاً له معتقدين فيه الخير والصلاح . حتى انه بلغه اننا كنا نتحاشى عن الجلوس في مجلسه لكونه دائماً في حضرة صاحب الرسالة صلوات الله وسلامه عليه وحاشا الله ومعاذ الله أن نعتقد فيه ذلك أو نداهنه بمثل ذلك ونحن من أهل العلم والطريق خلفاً عن سلف لا نقبل على أنفسنا ولا نرضى لشرف العلم والطريق المنسوبين إليهما أن نفعل هذا الأمر . بل الذي كنا نراه في ذلك الوقت ونعتقده أن الأجانب متى دخلوا بلاداً امتلكوها . وعششوا وباضوا وفرخوا فيها . وان الحرب حينئذ يكون حرباً دينياً للمدافعة عن الدين والوطن والحرم . والله سبحانه وتعالى هو العالم بالسرائر . وما تكنه الضمائر . وسينكشف ما في الخواطر . يوم تبلى السرائر .

وبالجملة فما زلنا مقيمين في البلد مشتغلين بمطالعة العلم الشريف ، وذكر الله المنيف برحاب والدنا وجدنا العارف بالله تعالى الأستاذ الشيخ عبد اللطيف ، نقابل الاخوان . ونتلقى الضيفان بما في الإمكان . وعلى الله تعالى صلاح الحال والشان . فإنه الكريم المنان .

خاتمة حسنى

ان شاء الله

في ذكر جملة قصائد وأبيات ومقاطيع رأيتها في تلك الرحلة أو سمعتها من أفواه بعض الأصحاب هناك وبعض رسائل وقصائد حضرت إلينا من مصر أو الشام تتضمن تسليمات وأشواقاً من بعض الأصدقاء والخلاّن وبعض أبيات للفقير وأخيه لمقتضيات وقتية ودواعٍ حالية .

فمن جملة ذلك (المقامة الحلوانية) التي أرسل بها إلينا حضرة الأستاذ الفاضل والملاذ الكامل الأديب الأريب والشاعر الناثر النجيب الشيخ أحمد الحلواني الخليجي أسكنه الله أعلى فراديس الجنان وأمطر على قبره سحائب الرحمة والرضوان امين .

وها هي بلفظها الرائق . ومعناها الفائق :

سرت والليل محلول الوشاح ونسر الجو مبلول الجناح

سارية من الصبا . تحمل عود الكبا . وتحمل شذا جنّي سبا . وتصرفه بين الوهاد والربا بالربا . لولا عوائق الزمان لركبتها إلى من أهوى لأني بلا جناح ، وحزت لهم بها ريا رياض مكللة الجوانب بالأقاح ، فبينا هي تجول وتجوس وتختال بأرجها اختيال المعاني في الطروس ، وتتهادى معطرة الأردان (ولا عطر بعد عروس) إذ وقعت دوني ووقفت تحدثني ، تتنفس لكن بغير غليل وتشكو ولكن بدون عويل ، إلاّ أنها معتلة كاعتلال من به غرام مخضلة كاخضلال

خدّ مستهام باكره من دمعه الغمام، فعجبت أنها عشت من جسدي إلى مجهول طامس وعوّلت على جسمي وهو كما يعلم الناس رسم دارس .

أذابه الشوق حتى لو تمثله   بالوهم شخص لأعياه توهمه

فطفقت أجيل في ذلك نظري ولا أقضي العجب من انتهاء سيرها إلى أثري، ولعمري من يغالي في المتاع الكاسد وماذا عسى يرجو القاصد ممن غدا يرثي له الحاسد، نعم لا تحط منزلة العقل وإن خفي على الأنام ولا يعاب المعنى البليغ وهو تردد في الأوهام .

ولو لم يعْلُ إلاّ ذو محل   تعالى الجيش وانحط القتام

فقلت لعلها وقعت مني على الخبير وليس في كل ريبة يقال أيتها العير، ثم توسمت برجها وتشممت أرجها ، فإذا نفح روضين ولمح بدرين .

رضيعي لبان شريكي عنان   جوادي رهان حليفي صفا

الوجود جسد وهما روحه . والكون ظلمة وهما يوحه . كلما رمت أن تقضي لهذا دون هذا بالفضيلة أقام الآخر حجته ودليله ، كالدرتين تسامتا بقلادة فتساوتا، في موضع التفضيل تذهب نفسك في الاختصاص بأحدهما كل مذهب إذ كلاهما مورد عذب مهذب فتارة تجيء وتارة تذهب وطوراً تذب حيرة وأخرى تجذب قائلاً ليت شعري على من منهما أقبل وكل أمجد ويلفظ من منهما أحلي أذني وكل در منضد وبمن منهما لعمري أتغرد وكل مغرد إن جنحت إلى هذا فهذا محمد وإن ترنحت إلى هذا فهذا أحمد .

كالفرقدين إذا تأمل ناظر   لم يعل موضع فرقد عن فرقد

ثم انك قد تدخل من باب المخاطرة وتقتل قرين تلك المحاورة وتمد منك عيناً ناظرة إلى شارة ناضرة وهيبة ظاهرة وابهة باهرة، فتراهما في المزاوجة

والمباعدة يحييان بروح واحدة ؛ فحينئذ تطمئن وتأمن أن تئن ، لأنك نظرت بعينك فزال عنها القذا وتأملتهما حق التأمل فإذا

هما في اجتماع الفضل زوج مؤلف ومعناهما من حيث يثبت مفرد

سبحان من نظمهما في أخوة الأدب كما نظمهما في أخوة النسب، استظلا من رياضه بالغصون الوريقة ووصلا من مجازات صناعته إلى الحقيقة، فتراهما يغربان فيما يصنعان ويبدعان فيما يبديان ويشتركان في صوغ البديع وينفردان ولا يكادان في فضيلة يفترقان حتى كأنهما الخالديان .

والله قد ضرب الأقل لنوره مثلاً من المشكاة والنبراس

الرقة هما سوق رقيقها وسفح عقيقها وكاس رحيقها وكوكب بريقها ومرشف سلافة ريقها .

ومعان موردها الشهي وروض عذ برها الذكي ومنتهى تحقيقهـــا

وأما مجدهما الذي بلغ عنان السماء وسؤددهما الذي ضرب قبابه على هامة الجوزاء ، فشيء لا يختلف فيه اثنان وأمر لا ينكره العيان .

وليس يصح في الأذهان شيء إذا احتاج النهار إلى دليل

هو الجواد أنعم على عبديه والخير كله في يديه، أطاب أصلهما أصلاً وقارب بين لآلي عقد ذلك النسب فلن ترى بينها فصلاً ، فلا جرم أناف قدرهما على كل قدر وحسن نبات الأرض من كرم البذر .

وأحسن ما كان مجد الفتى إذا كان يوجد في أصله

طالما كنت لهما لزيماً وإن لم أساو خديماً، نتحلى من المقال باللآل ونتسلى من الجمال بغزال .

وقـــد سماه مولاه عليـــاً وذلك من علو القدر فـــال

يا كم نظمنا في سلك ذلك الزمان درراً واطلعنا في جبهته من المحاسن غرراً وكظمنا لإحسانه بالقرب ضرراً وقضينا من أماني النفوس في رياض الطرس وطراً .

وطرا ما فيه من عيب سوى انــه مر كلمح البصر

كنت أرى السرور بقربهم برداً على جسدي محبراً وأحسب أنس المفاكهة معهم عقداً في جيدي منضراً،وأجد في يدي من ودهم سبباً وثيق العرا ثم نبذت وواحشتاه بالـرا .

ليسق عهدهم عهد السرور فما كانوا لارواحنا إلاّ رياحينا

معاذ الله أن يكونوا جفوا هذا المحب وهو وصول أو صفوا عن عهد مطارحة الحديث ما بين مقول ومنقول ، والمعارف في أهل النهي ذمم واخوان الصفا وجدان كل شيء بعدهم عدم .

والحر يشتاق أياماً له سلفت مع الرفاق فلا ينفك يضطرب

غير اني أراهم أخلقوا ما كان جديداً من التسآل وتخلقوا أن لا يكتبوا للمشوق بسلام ولو بسواد عينه فإنه قد سال .

وحمائم الأشواق قد تدنيه من غدرانه لمحابر الأحبـــاب

كأنه قد وقع الشك بعد المعرفة أو كأني لم أتعرف في ذات ولا في صفة ، وهذا وقد اتخذتهم مغرساً لودي وموثقاً لعهدي (عجيب) يقضي أن لا أثق بعدهم من الناس بحبيب .

على أي باب أطلب الإذن بعدما حجبت عن الباب الذي أنا صاحبه

لكن اليد قد يدميها سوارها والنحور قد يعظها تقصارها ،والمرىء يشرق بالزلال البارد والمهند يلصقه صاقله بالجلامد .

وقـــد يقتل المرء الدواء وما به　　لك الله أمر يستراب ولا يخشى

وإني وإن يئست من اليوم فما يئست من الغد ومن تعرض لنفحات الكرام وجدها لا تدخل تحت عد، والدلاء أبطؤها أماؤها وألذ الشراب ما صادف غليلاً وأنفع الدواء ما وافق عليلاً .

وأطيب ما كان برد الثغور　　إذا هو صادف حرّ الصدور

هذا مقام مستجير من الجفا عائذ وموقف متوسل بعدم الوداد لائذ، أمالي مما تعلقت به آمالي من الولاء نصيب وقد زرعت في أطيب المغارس عوده الرطيب حاشا أن لا أحكم في القرى ووجهه الكريم خصيب ..

أنا في ذمة السحاب وأظما　　إن هذا لوصمة في السحاب

يا عجبا لسادة توفرت لديهم أسباب المكاتبة ولم يكاتبوا هذا العبد فيعلم أنهم رفعوا مراتبه، فأما الاعتذار عن هذا فأمر إن أردته تيسر ومتى قمت في تحصيله لا يتعذر، ولكن لا أزاحمهم على وظيفة التكرم بالاعتذار وأعطي القوس باريها خشية الإنذار .

ولا أروم بحمــــد الله منزلة　　غيري أحق بها مني متى راما

سقياً لأولئك الأيام التي ذممت بعدها العيش ورعياً لأولئك الصحاب الذين لم ألو بعدهم على جيش، فالأنس إنما هو بهم منوط وللسرور في حيهم صعود وهبوط، تذكرت واوحشاه لمن تذكر وتحسرت وليس بدعا لمثلي أن يتحسر ، فهل من ذاكر لتلك التحف أو متحسر على ما قد سلف .

فليس يعرف قدر الوصل ذو كلف　　حتى يراع ببين أو بهجران

كم حلّت ولا أقول مرّت لنا أويقات في حديث أرق من جثماني وعلّت ولا أقول غلت سويعات ، أدرنا بها راح المعاني في كؤوس المباني .

يا ساكني نعمان أين زماننا　　بطويلع يـــا ساكني نعمان

ثم تخلفت عنهم ببلد خلق من النوى ولم تسلط عليه شاه مايكه صعلوك وصعلوكه شاه،الخمول نزيل نزيله واليسر معقود بنواصي جزيله،تجسد من هموم وغموم وتجسم من بذاوة ولوم .

وما أنا منهمُ بالعيش فيهم   ولكن معدن الذهب الرغام

صفر من أديب يبل الروية وأسفر عن ذيب لئيم الطوية،فعلى م لا أسامر الحزن وفيم لا أتخذ السهد بديلاً من الوسن .

لا في الديار أخو وجد نطارحه   حديث نجــد ولا خل نجاريه

ولعمري ما جهلت انه ليس الكريم على ضيم بصبار وان اقامة العزيز بمواطن الذل عار،وان البدر يتضال فيجد في طلب الكمال،فيجوزه متنقلاً وإن سفه الحليم أن يرضى بالمشرب الرنق منهلاً .

وإن صريح الرأي والحزم لامرىء   إذا بلغته الشمس ان يتحــولا

ولكن قد يتجاور الجوهر والسخّاب وقد تساغ اللقمة المحللة بمحرم الشراب،وهذا عزمي على الرجل تجيز ولكن عزم القدر ممطول وهل يقطع الأرض ساع وهو مكبول، وإلاّ فمن ذا يفضل رأس الخليج على بحر الشام الفياض وأي امرىء يتخذ البلاقع بديلة من الرياض .

يا سالكاً بين الأسنة والقنا   إني أشم عليك رائحة الدم

نعم إذا لم أكن إلى أرض عشيرتي ذا حنين فليس مكاني في النهى بمكين، والكريم يشتاق أول أرض مس جلده ترابها ونفس الحر تهوى بلداً نسبتها إليها أترابها،ولكن في كل شجر نار واستمجد المرخ والعفار،وكل الصيد في جوف الفرا ومن رام الدليل كما رام وجده موفرا،متى تساوت السادة والعبيد وأين اتفقت الحواضر والبيد ، ولا اعتداد باتحاد الأعلام في بعض الأقسام .

جمع النسج كل من حاك لكن   ليس داود فيه كالعنكبوت

وطالما تمنيت والتمني رأس مال المفلس أن أحظى بورودي على مورد الشام المتبجس، وطمعت أن أحل ذراها واجتهدت أن تبلغ النفس من ذلك مناها ثم أبت المقادير إلاّ أن تجري مجراها .

وصبابات الهوى أولهــا طمع النفس وهذا منتهاها

قاله بفمه وكتبه بقلمه الفقير أحمد الحلواني الخليجي

ومنها مــا أرسل به حضرة السيد المفضال رب المحاسن والكمال الأديب الأوحد والعالم الفاضل الأمجد صديقنا الشيخ علي غزال أحد العلماء الأزهريين وحبر شيبين وهو هذا الخطاب العذب المستطاب الذي تضمن تشطير القصيدة المدحية لأبي الحسن الكستّي حفظهما الله تعالى :

بعد التسمية والتحميد والصلاة على رسول الله المجيد فإني أقبل تراب أرضكم الشريف وأهدي أكمل التحيات لذاك الجناب المنيف .

واشتاق للمغني الذي أنتم به ولولاكمُ ما شاقني ذكر منزل

هذا وقد خدمت القصيدة المشحونة بجواهر شيم سادتي حسب إمكاني وطاقتي وكنت أود أن أخدمها تمام الخدمة لو استطعت إلى ذلك سبيلاً ولكن هذا جهد المقل وإن كان قليلاً والمرجو من السيادة القبول بلغنا الله بكم المأمول وقد قلت لما وردت علي هذه القصيدة البهية :

سرت والليل مسدول الخيام فمزق ضوؤها ثوب الظلام
فتاة تدهش الألباب حسناً ويخجل وجهها بدر التمام
بدت تختال في ظرف ولطف وتخطر في انعطاف وابتسام
يرينا لحظها سحراً حلالاً ويفعل لفظها فعل المدام
فيــا لله ألفــاظ تحلت بأنواع البديع والانسجام
ويــا لله ألحاظ إذا مــا رنت ورمت فلا تخطي المرامي

أهل لي أن أواصل بنت فكر | فإن وصالها أقصى مرامي
وقد شهدت شمائلها ودلت | لدينا أنهـا بنت الكرام
عقيلة فاضل فطن ذكي | كريم ماجد بطل همام
عريق في المفاخر ألمعي | هضيم النفس مرفوع المقام
هو السكّي مشهور المزايا | أديب الشام شاعرها العصامي
علقت بحبه مع بعد داري | ألا هل من يبلغه سلامي
جزاه الله عنّا كل خير | وأعلى قدره بين الأنام
صلاة الله والتسليم دوماً | على طه المظلل بالغمام
وآل ثم أصحاب كرام | ونسأل ربنا حسن الختام

« وهذا هو تشطير القصيدة »

(تباهت بلاد الشام وافتخرت مصر) | ونال بكم أوج العلا ذلك العصر
ولا غرو أن تسمو العصور وأهلها | (بكم يا بني عبد الجواد ولا فخر)
(فإن لكم شأنـاً عظيماً يدلنا) | عليه المزايا الزهر والشيم الغر
وقد برهنت لـما عدمنا نظيرها | (على أن في ذا العصر أمثالكم نزر)
(مآثركم جلت وقد شهدت بها) | عداكم وأنى يستطاع لها ستر
أيمكنهم كتمان ما شهدت بـه | (عدول بني الدنيا وزكاهم الدهر)
(وأورثتموها عن أبيكم وجدكم) | فما قرّ إلاّ في معادنـه الدر
وربيتموها في مهـاد ولائكم | (وتم لكم دون الأنام بها خبر)
(فلو عرفت أوطانكم قدر فضلكم) | لضنت بكم إذ ربعها بعدكم قفر
ولو لم تحز إلاّ افتخاراً بقربكم | (لما كان منها جائز لكم الهجر)
(ولم تحسبوا في غيرها أهل غربة) | فكل مكان يستجاد به القطر
كذلك لم ترخص غوالي صفاتكم | (فحيث يكون الدر يلفي له سعر)
(وما ضركم عنها الجلاء وإنما) | أضرّ بها إذ فاتها اليمن والبر

ومـــا زدتمو إلاّ علـــواً فإنـــه (يزيد كمالاً في تنقله البدر)
(ولا تهنوا فيما جرى فمحلكم) رفيع منيع ليس يلحقه الضر
وما زلتم الأعلون ان مكانكـــم (لدى كل ناد قد حللتم به الصدر)
(خرجتم بمكر سيء والذي بغى) لعليـــاكم غدراً يحل به الغدر
ولم يدر جهلاً ان من كان ماكراً (عليكم بلا شك يحيق به المكر)
(وليس لكم عيب على زعمه سوى) مجامر فضل عاد منهـــا له نشر
توهم أن تطفى ولا يعقـــل انطفا (مكارم أخلاق هي الأنجم الزهر)
(على أن من أعمى بصيرته القضا) يعود عليه من تدابيره الخسر
ومن كان من نور البصيرة عاريـــاً (يكون سواء عنده الخير والشر)
(ألا يا سراة المجد دام محبكم) سعيداً له بين الورى الأمن والنصر
وإن كان ذا ذل يعـــود بحبكم (عزيزاً ومن ناواكم فله القهر)
(حماكم لقد أضحى بكم كعبة الهدى) يحج إليه من أريد به الجـــبر
وروض ثوى فيه أبوكم وجدكم (زيارته فرض على من له حجر)
(وحاصل ما أبديه في حسن حالكم) مفصلـــه لا يستطـــاع له حصر
ومجمله حسب الذي قـــد رأيته (وما في معاليكم تصوره الفكر)
(تفردكم بالعلم والحلم والتقى) وجود سرى في الخافقين له ذكر
ومحمود أخلاق أرقّ من الصبـــا (ومن كان هذا وصفه فله الشكر)

وقال أيضاً:

ومن لي ببيروت وسكان ربعها ومن لي بأحباب هم الروح والقلب
ومن لي بسادات هم الجاه والغنى ومن لي بأمجاد بهم يفرج الكرب
فيـــا رافع السبع الطباق وباسط الـ أراضي ويا من للعباد هو الرب
أزل خطبنا واجبر بفضلك كسرنا فعندك يا مولاي لا يعظم الخطب

ومنها ما بعث به حضرة الأديب الفاضل واللبيب الكامل نسل الأكابر الأكارم سلالة البضعة الطاهرة من آل هاشم السيد حسن أحمد قاسم وهو

عدة جوابات تشتمل على أراجيز فائقة وقصائد ومقالات رائقة فمنها قوله في أرجوزة سهلة الانسجام لا تخرج عما يقتضيه الحال والمقام :

الحمد لله شديد البـاس ... مقدّر البعـد والائتناس

أحمـده يقرب البعيـدا ... ويجمع الملـوك والعبيدا

وينصف المظلوم من ظالمه ... فهو بديع الحكم في عالمه

ثم الصلاة دائماً على النبي ... الهـاشميّ القرشيّ العربي

وآله وصحبـه الأطهـار ... السادة الأماجـد الأبرار

ثم السلام من أخي الأشجان ... على ضيـاء أعين الزمان

حياة روح المجـد والكمال ... ومصدر الأسرار والمعـالي

أدام رب العـالمين مجدهم ... يسمو وفي الدارين أعلى سعدهم

وبعـد فالأشواق للتـلاقي ... على شروط العهد والميثاق

ما حلت عن عهدي الذي عهدتم ... ولا عن الود الذي علمتم

وكيف والحب وجسمي ركبا ... تركيب مزج والهوى قد غلبا

لا كنت إن كنت عن الوداد ... يا سادتي قد حلت في البعاد

والله ما ذكرتكم بخاطري ... إلاّ ودمعي قد جرى من ناظري

وهذه يـا نور نور أعيني ... هي سنتي ما غبتمو وديدني

طوارق البعـاد شيّبتني ... وكلّ متـني حيث كلمتني

فـلا سواكم خاطر بالبال ... وليس فيه الفكر في مجال

وهل تلذ النفس بعد البعـد ... بلـذة سوى اقتحام الوجد

فهـا أنـا ملازم للشجن ... وغرض يرميه نبـل الزمن

ملازم للسهد في الديـاجي ... مرتقب للكوكب الوهاج

حتى إذا صار أذى عيـوني ... وشدّت الأهداب بالجفون

أغيب عن مواقـع للحس ... كأنني بـه لقيت رمسي

حيث بكم يضيء هذا النادي ... لأنكم كواكب الإرشاد

ونور فضلكم علا عن نوره ... فانتهز الفرصة في ظهوره
مع أنه استمد من بهاكمُ ... بهـــاءه ومن سنا علاكم
وما سرى من نحوكم نسيم ... إلاّ وقلبي للقـــــا يهيم
حيث اكتسى الرقة من أخلاقكم ... واعتل من شوق إلى جنابكم
لذا نراه إذ يمـــر يلـــثمُ ... أرضاً عليها كنتمُ قد جزتمُ
ومـــذ رأيت حالـــه كحالي ... من البعاد صار غير حالي
أبديت ما بخاطري إليـــه ... ومـــا بـــه أطلعته عليه
فصـــار كلما يجوز حـــيّ ... يحيي فؤاداً إذ به يحيى
وصرت كلما يجوز أسالُ ... عنكم فعنكم يحرم التحول
وحقكم لولا الأماني باللقا ... تجاذب المضنى الذي قد أحرقا
لذاب حتى لا يراه النـــاظر ... لكنه عـــلى البعاد صابر
ما كان ظني هكذا فعل النوى ... يهدم من جسم المحبين القوى
حتى أتى بخيلـــــه ورجله ... وهدّ أس صحتي من أصله
وألبس الجسم ثياباً من مرض ... قد حل في الجوهر منه والعرض
وكل ذا والله عندي سهـــل ... فالعيش بعد بعدكم لا يحلو
وإنني لا أستطيع وصفـــا ... لما فؤادي من نواكم شفا
فدون هذا القصد أقوى حائل ... تلهب اليراع في أناملي
وإن أردت وصفـــه لسائلي ... أشرق في بحر الدموع السائل
وإن أردت كتمه من الفكر ... أبرز سقمي ونحولي ما استتر
فيا فؤادي اصبر فإن الصبرا ... أولى لدى كل امرىء وأحرى
وإنه لا شك حلـــو العاقبة ... مساعداً في هول كل نائبة
فقلّ أن يجدي سواه للفتى ... إذا له هول الزمان قد أتى
فكم رأينا في تواريخ الأولى ... شهماً بأهوال الزمان مبتلى
قاسى من الخطوب ما قد قاسى ... كم شام منها شدة وباسا
فاتخذ التفويض دوماً منهجاً ... فزال ما قد كان فيه ونجا

فبعد عسر يحــدث الرحمن ... يسراً كما يشتاقه الإنسان
وليس هذا الأمر بالعجيب ... ولا على الأذهان بالغريب
علمنــا تجــارب الزمــان ... أموره بــأوضح البيان
أنّ دوام حــالة محــال ... فكل حالة لهــا زوال
فليطمئن قلب سادتي فمــا ... قد غاب خالق الأراضي والسما
وقد رضينــا قسمة الجبار ... فينسا وفعل الفاعل المختار
فمذهب التسليم أولى والرضا ... بما جرى به على العبد القضا
فليس شيء في الأنام يمضي ... إلاّ وكان للإله مقضي
وكل تــدبير سوى تدبيره ... للعبد لا ينفع في تحريره
فبينما الإنسان في أفكــاره ... يجول إذ قد حف بالمكاره
حتى إذا حقق عجز نفسه ... وانقطعت آماله من يأسه
وسلم الأمــور للرحمــن ... ولم يكن يوماً سواه عاني
أتاه منه اللطف يسعى بالفرج ... ونال أسنى ما يرام وابتهج
يا رب طول البعد أبدى الضنكا ... وانقطع الرجــاء إلاّ منكا
فالطف بنا يا رب لطفك الخفي ... يا من يرى ما قد بدا وما خفي
واردد لعيني مصر انسانيهما ... من فيض لطفك البهي بهما
هذا ولا تخفى على ساداتي ... من بعدهم وإن نأوا حالاتي
وقد كتبت ذا الجواب مودعاً ... به بيان بعض ما بي وقعــا
كتبتــــه بحبــــة الفؤاد ... فقد أذابها نوى أسيادي
لعلــه يقبــل الاقــدامــا ... نيــابة ويقرىء السّلامــا
هذا وأهدي خير تسليم إلى ... اتباع ساداتي الكرام النبلا
وإن آل سادتي كمــا يرام ... في سؤدد وأكمل انتظام
أقر مولانا عيونكم بهــم ... بجاه خير مرسل ومعتصم
عليــه دوماً أفضل الصلاة ... وآلــه وصحبــه الثقات]

وله قصيدة أخرى همزية وهي هذه :

تختال دون البسانة الهيفساء ... فتظلّ تعبر في رداء حياء
وتميط في الظلماء فضل خمارها ... فتكساد تمحو آيسة الظلماء
سكرى وما احتست السلاف وإنما ... سكر الحسان بخمرة الخيلاء
أحراسها أسدٌ روابض دونها ... لرماحهم اذن الى الإصغاء
جعلوا الرماح أكلة لحفاظها ... فرماحهم وهمو من الرقباء
وإذا دنا منهسا خيال أيقظوا ... أفعى الرماح ومقلة الهيجاء
فركبت متن الشوق حتى جئتها ... والموت دوني والحياة ورائي
والنفس عن ماء الأناة عفيفة ... مساء الأناة لغصة الخنساء
أيقظتها فتناومت عني وقسد ... سترت محياها بفضل رداء
فامطت حاشية الردا فتقنعت ... بيد مجسمة من الأضواء
وإذا الذي حجبته غير محجب ... لا تحجب الأفلاك وجه ذكاء
فكأن مصقول البنان زجاجة ... نمت لطافتهسا بسر المساء
فلثمتها حتى تضرّج خدهسا ... وهصرتها حتى خبت أحشائي
حتى إذا ما الليل مزق ثوبه ... ورمى جناح الصبح بالأنواء
أخفت بجارتها الحديث لعلها ... تضع الدواء على محل الداء
فقضت لبانتها هنالك وانثنت ... تمشي رويداً خشية الأعداء
فكأنمسا بنتسا شعيب أقبلت ... إحداهما تمشي عسلى استحياء
وإذا بها انتفضت العقيرة عن دجى ... خفيت لديه محجة الأرجاء
فخرجت أعدو والفتاة كأنها ... ثكلى تشيع ميت الأبنساء
ومررت حيث الأسد رابضة فلم ... ترني روابضهم وهم تلقائي
لله ليلتنا وإن قصرت فقسد ... كانت شهاباً في دجى الآناء
فكأنمسا عهد الشبيبة والصبسا ... مرحاً وعهد مسرة الجهلاء
كانت كآونة غبطت بها بني ... عبد الجواد السادة الأكفاء

أسدٌ متونُ الصافنات عرينهم ودم الكماة لهم مناهل ماء
لا يهجعون على قذى بجفونهم أو تقذ مقلة تبرهم بصداء
يتدرعون بدرع باس في الوغى والوافدون لهم بدرع رجاء
يهبون للموتى حياة نفوسهم لو تقبل الموتى من الأحياء
تفتّر للجدوى نواجذهم إذا بسط العفاة أكفهم لحياء
رمقوا إلى العلياء رمقة محنق والحرّ مطمحه إلى العلياء
واستنهلوا عين السخا فأتاهمو منها مزادهم بغير رشاء
لا يستفز قلوبهم مرح ولا يتضاءلون لفجأة البرحاء
لو ينتضون صوارماً أغمادها أفواههم وثبوا على الجوزاء
وكأنهم فلك وشهب الحزم في أرجائه تجري بكلّ قضاء
فلطالما وثبت على أعدائهم قبل الكماة كتيبة الآراء
ولئن تكن أفلت كواكب قربهم فلقد بدت من فكرنا بسماء
عهدي بهم وهم بمصر أعزة وهمو همو في ساحة الزوراء
إن الصوارم تنتضى من غمدها والشمس ليس لها محل ثواء
فليسحبوا فضل البرود على السها وليجدعوا أنف الأسى بثناء

(الفقير حسن أحمد قاسم الآبي)

وله جواب آخر وهو :

ممن أفضى به شوقه إلى ما لا يحمله طوقه وأفرط به وجده المديد حتى أنكره الطارف والتليد من في عرصات قلبه خرائد التذكار قد رقصت وعلى افنان قلة اصطباره بلابل هيامه صدحت وغدت خاصة جفونه العبرات وخاصة قلبه التلظي بنار الحسرات وخاصة جسمه النحول وخاصة لسانه هذا القول :

دهرنا أضحى ضنينا باللقا حتى ضنينا
يا ليالي الأنس عودي واجمعينا أجمعينا

حسن أحمـــد قاسم إلى من حازوا قصب السبق في كل ميدان من ذهنهم غاية لمرمى هدف البيان مطمح الهمم ومنتهى منية الأمم من إلى الله تعالى أخذوا الأسباب الناجحة وإليه سبحانه ركبوا جياد الأعمال الصالحة قدوة من قد سلكوا سبيل الرشاد أسيادي بضعة قطب الأقطاب سيدي الشيخ عبد الجواد أدام الله مجدهم وأعلى في الدارين سعدهم آمين .

وبعد تقبيل الراحتين الكريمتين وتسليمات مهداة على كف النسيم من دارين فلقد طالما بكت الشهب رحمة لبكائي ورثا لي الداني منها والنائي فإن جفوني لم تزل محجوبة عن الكرى بطول هذا البعاد وقد تحكم فيها بعد أن مد سرادقه عليها جيش السهاد وكثر ما تيممت نحو الديار لبث آلام التذكار فأراها ترشدني كما ترشد نفسها إلى الاصطبار ومنها ينشدني لسان الحال هذا المقال :

عسى الكرب الذي أمسيت فيه يكون وراءه فرج قريب

حتى إذا رجعت إلى مقامي صورتكم الذكرى أمامي فأرى الزفرات صعوداً وهبوطاً وللعبرات على المحاجر خطوطاً وكأنه لم يكن منها هذا الإرشاد والمرء لا يخفي على ما اعتاد شعراً أنشد :

نعم شيمتي عنـــد الشدائـــد انني صبورٌ ولكن في هواكم لي العذر
فمن مزجت حباً حشاشته بكم محال لعمري أن يكون له صبر

ولم أزل بين جفن يدمع ولبّ من فرط ما لاقى يتصدع حتى لهجت الناس بأنه عن قريب تتبدل الوحشة بالإيناس وتزول الغياهب وتنكشف السحائب وتتبدل الأطوار ويصفو الزمان من الأكدار فلم أبرح عند ذلك أنوح وأنشد قول ابن مطروح :

قالوا اللقاء غداً بمنعرج اللوا واطول شوق المستهام إلى غد

وبالجملة فأقول حيث عز الوصول :

خليليّ لا والله ما الدهر منصف وليس له يوماً عـلَيّ جميل
يقرب مني كل شخص كرهته ويبعد عني من إليه أميل

أقرّ الله أعيننا بكم في أحسن الأوقات وأبرك الدرجات هذا وبعد كتابة الجواب لذوي الدرجات خطر ببالي أن أكتب بعض أبيات فقلت :

عهودي يوم الترحل حلوا عندما بالواد المقدس حلوا
وأباحوا دمي فـإني أراهم حرموا الوصل والصدود أحلوا
لو ملوك الجمال راموا ودادي ما دعوني بلا وداع وولوا
وأباحوا إلى العواذل عرضي عزلوا فيه كيف شاؤوا وولوا
هم سلوني لكن وحق التصابي عن هواهم وحسنهم لست أسلو
وعلى حبهـم أموت وأحيا وإذا هم عني بغيري تسلوا
كيف أسلو قوماً ربوع المعالي بسواهم لا تستعز وتعلو
هم سراة الجلال والمجد فيهم دولة هم بها ملوك وأهل
سلكوا مسلك السلوك فذلت لمعاليهم صعـاب وسهل

هذا وللمشغولية وقت تحرير الجواب لم أعطه حقه في الإسهاب والإطناب والأمل من مكارم الجناب تشريفي بورود رد الخطاب فإنه يكشف بعض ما بي من الأحزان والأشجان ولا بدع إن لم أسعف أن أشرب من كأس كل من عليها فان لازلتم غرة في جبهة هذا الزمان وشمس فضل يستضيء بها جميع الأكوان .

وله جواب آخر يتضمن تشطير قصيدة أبي الحسن الكسّي المتقدم ذكرها وهو هذا :

مني السلام عليكم يا سادتي يا سادتي مني السلام عليكم

أشواقي إلى سادتي لا تحصى ولا يمكن أن تستقصى وهيهات أن أقدر على التعبير عما حواه الضمير فلو عبرت عنه بكتابة لاحترق اليراع في الأنامل ولما

وسعت القراطيس هاتيك الرسائل وحالي شاهد عدل على ما في الفؤاد وان أردت كتمانه ينم به الدمع والسهاد وان كان عند سادتي شك فيما أقول فليسألوا قلبهم فإن القلب للقلب رسول :

قلوب العـــاشقين لها عيون ترى ما لا يراه الناظرون

هذا وأبدي لسادتي مطالع الجود ومعادن الكرم وشمس الوجود انه قد وردت الي القصيدة الغراء الشامية المحتوية على ذكر بعض مزاياكم السنية المنسوبة لحضرة العلامة الفاضل والفهامة الكامل الشيخ الكستي ومذ أبصرتها وجدتها غادة رشيقة القوام ومعانيها حور مقصورات في الخيام فأردت تشطيرها خدمة لذكر خصالكم الحميدة فقلت وبالله استعنت :

(تباهت بلاد الشام وافتخرت مصر)	وأضحى على هام السماك لها قدر
ولاحت عليهـــا للسعود بـــوارق	(بكم يا بني عبد الجواد ولا فخر)
(فإن لكم شأنـــاً عظيماً يدلنا)	على أنكم غيث ومن دونكم قطر
ومن مثلكم حتى ندل بشأنكـــم	(على أن في ذا العصر أمثالكم نزر)
(مآثركم جلت وقد شهدت بها)	لكم في السموات الملائكة الغر
كما شهدت في الأرض أيضاً بفضلكم	(عدول بني الدنيا وزكاهم الدهر)
(وأورثتموها عن أبيكم وجدكم)	هداة البرايا من سما بهم السر
ومن بحر تقواهم هدايتكم نمت	(وتم لكم دون الأنام بها خبر)
(فلو عرفت أوطانكم قدر فضلكم)	لما عاقها عن أن تصاحبكم أمر
ولو تستطيع الوصل مع بعد حيكم	(لما كان منها جائزاً لكم الهجر)
(ولم تحسبوا في غيرها أهل غربة)	ففي أي جيد لا ينتقص الدر
وأنتم أعز الناس حيث حللتمو	(فحيث يكون الدر يلفي له سعر)
(وما ضركم عنها الجلاء وانمـــا)	طوايا معاليكم أريد لها النشر
وما ذاك نقص في رفيع مقامكم	(يريسد كمالاً في تنقله البدر)
(ولا تهنوا فيما جرى فمحاكم)	من المجد عال دون غايته النسر

وكالشمس علياكم تسير فـانتم (لدى كل ناد قد حللتم به الصدر)
(خرجتم بمكر سيء والذي بغى) سيصرعه من بغيه السيء الغدر
دعوه لمكر الله مـن ساء مكره (عليكم بلا شك يحيق به المكر)
(وليس لكم عيب على زعمه سوى) أياد تفيض الجود إذ يبخل البحر
ونور رشاد فيكـم دلنـا على (مكارم أخلاق هي الأنجم الزهر)
(ولكن من أعمى بصيرته القضا) يضل على علم وفي يسده الفجر
ومن انكر الشمس المضيئة في الضحى (يكون سواء عنده الخير والشر)
(ألا يا سراة المجد دام محبكم) بطلعتكم في وجهه يضحك البشر
فمن يعتصم بالحبل من ودكم يعش (عزيزاً ومن ناواكم فله القهر)
(حماكم لقد أضحى بكم كعبة الهدى) فمن حجه ابى مقـاصده البر
منى الناس فيه والصفا فهو مأمن (زيارته فرض على من له حجر)
(وحاصل ما أبديه في وصف حالكم) الى جنب ما أخفيه من وصفه نزر
تصورت الألفـاظ علياء غيركم (وما في معاليكم تصوره الفكر)
(تفردكم بالعلم والحلم والتقى) وكل كمال منه يستنشق العطر
خليق بأن لا يشكر الناس غيركم (ومن كان هذا وصفه فله الشكر)

هذا وأرجو الغض عما يوجد فيها من الهفوات فإني قليل البضاعة في هذه المقامات وقد كنت قبل ورود القصيدة الشامية أنشأت قصيدة همزية قياماً بواجب حق أسيادي علي ولتعتذر عني فيما ينسب من التقصير إلي وهي بنصها الرائق ولفظها الفائق في الخطاب الآخر أرجو تشريفها بالقبول فهذا غاية مهرها المأمول .

حسن أحمد قاسم الآبي

وهذا جواب آخر لحضرته أيضاً:

سلام أزكى من النسيم وأحلى من العافية على بدن السقيم ممن اعتاد السهام لبعد أحبته واتقدت جوانحه لفرط محبته ونمّتْ يوم بينهم من بين أخدانه حسراته

وغدت عبرةً لمن يعتبر عبراته ولم يدر هل قلبه على آثارهم واقف أو كرماد اشتدت به الريح في يوم عاصف من قاده الغرام حتى أفضى به الى السقام ولم تحوله عن محبته الوحشة بعد الإيناس وان لم يُبْقِ منه الحبّ سوى جسم مجرد عن الحواس بل قيد غرامه وان نأوا لم يزل قيده وعهده محبته وان تقادم لم يزل عهده فلم يقبح فيظهر مينه بعد بعدهم بل حسن صادق في محبتهم بالنسبة إلى محبة غيرهم انشاء :

هُمُ الأحبّة لا أنسى ودادهمُ	في تينك الحالتين القرب والبعد
هل بعد أن رسمت في القلب صورتهم	ينسى المتيم ما قد كان من ود
همُ همُ إن أقاموا وإن ظعنوا	وفي محبتهم مـا زلت ذا وجد
هم سلموا مهجتي للحب وارتحلوا	عني ولكن عهدهم لم يزل عهدي

الى حضرة من أحرزوا قصب السبق في كل ميدان وذهنهما غاية لرمي هدف البيان مطلعي الجود ومقصدي الوفود من قصرت الأنام عن الإحاطة برفقة مثاليهما وعجزت الأقلام عن تسطير حسن مساعيهما ربي الهمة المقصورة على تشييد بناء المجد الممدود عليها كما شاعت سرادق السعد من انخفضت كل همة عن إدراك أدنى فضلهما وقصر كل وصف عن الإحاطة بأيسر فواضلهما فليس يجاريهما في ميدان الجود جواد ولا يباريهما في ارتياد السعادة مرتاد انشاء :

وما كل امرىء سل سيفاً بباسـل	ولا كل سيف سل من جفنه عضب

العلامتين الجليلين والإمامين الفخيمين غرتي الزمان وينبوعي الإحسان المستنيرة بهما أودية الطريقة حيث شربا من كأسي الشريعة والحقيقة وتوالت منهم واليهم الامداد سادتي بضعة الأستاذ الشيخ عبد الجواد لا زالت بآيات علياهما تفتخر الأيام وبتسطير مديحهما تبتسم الأقلام ولا برحت دوحة فضهلما العميم يجني من ثمارها كل ظاعن ومقيم .

وبعد فإن للزمان حظوظاً جمة بتنوعها اختلفت في درجاتها هذه الأمة فهذا مصيب حظه كثرة المال وذلك حظه كثرة الرجال وهذا صحيح وهذا عليل وذاك مصاب بكثرة القال والقيل وان هذا الدهر مع اختلاف حظوظه في الدرجات وتفاوتها كما هو مشاهد في الطبقات لم يكن لي حظ منه سوى بعد الأحبة بعد أن تمكنت أشد التمكن في فؤادي المحبة :

قسم الـــدهر حظه فمن النا س مصاب ومنهم من يصيب
وسوى فرقـــة الأحبّة مـــالي وغرامي من الزمان نصيب

أستغفر الله اذ نسبتكما للبعد وأنتما حاضران وبين الجوانح كما أراكما بلا ريب مقيمان يد التذكار لمقلتي تمثلكما على فرض اني أتناساكما فكيف أدعي بعد داركما وهي الجوانح أو بعد شخصكما وضوء محياكما واضح فلولا محياكما ما ازدان النهار بغرة الاصباح كما أنه لولا ما انطوت عليه طواياكما ما أورقت أشجار الصلاح ولكني جاريت من سلف في شكوى الفراق عند تزاحم جيوش الأشواق ولهذا دعاني الحال الى إنشاء هذا المقال :

ومن عجب أني أحـــنّ إليهمـــو واسأل عنهم دائمـــاً وهمو معي
وتبكيهمو عيني وهم في سوادها ويشتاقهم قلبي وهم بين أضلعي

وإني وإن أظهرت للناس صبري فلا يخفى عليهم أمري فإن جسمي يشهد بحالي وانه غير حالي :

بادٍ هواك صبرت أو لم تصبرا وبكاك إن لم يجر دمعك أو جرى
كمّ عزّ صبرك وابتساماً صاحبا لما رآه وفي الحشا ما لا يرى
أمر الفؤاد لسانـــه وجفونه فكتمنه وكفى بجسمك مخبرا

هذا ولما هزتني الأشواق إلى يوم التلاق حررت هذا المكتوب لعله في إلقاء التحية ينوب راجياً من سادتي إسعافي بخطاب يطمئن به على معالي الجناب

فكاتبوا عبدكم فقد قل تدبيره وعز نصيره ولازمه السهاد وحرم عليه الرقاد ولازمه السقام فصار ينشد قول أبي تمام :

رقادك يا طرفي علي حرام فخلّ دموعاً فيضهن سجام
ففي الدمع إطفاء لنار صبابة لها بين أثناء الضلوع ضرام
ويا كبدي الحرّا التي قد تصدعت من الوجد زدني ما عليك ملام
قضيت زماناً للهوى كان واجباً علي ولي أيضاً عليه زمام

وقوله وكأنه حكى عن لساني :

لقد خلق الله الهوى لك خالصاً ومكنه في الصدر مني بلا غش
سل الليل عني هل أذوق رقاده وهل لضلوعي مستقر على فرش
تبرّا الهوى من كل حي وحل بي فإن متّ فاطلبوه على نعشي

وقوله وقد دبّ على المعنى فأحسن المبنى :

هذا هواك وهذه آثاره أما الفؤاد فما يقر قراره
يصل الأنين بزفرة موصولة بغليل شوق ليس تطفى ناره
ودعا الدموع فأقبلت منهلة شوقاً فذاك قصارها وقصاره
من طرف ممتنع الرقاد متيم أرق سواء ليله ونهاره

وقوله وقد أجاد ووفى بالمراد :

صبرت عنك بصبر غير مغلوب ودمع عيني على الخدين مسكوب
صيرتني مستقراً للهوى وطناً للحزن يا مستقر الحسن والطيب
لئن جحدتك ما لاقيت فقد صحت شهود تباريحي وتعذيبي
بزفرة بعد أخرى طالما شهدت بأنها انتزعت من صدر مكروب

. هذا وبالجملة ان ما بي لا تستطيع بيانه العبارة ولو كتبته لغنى القلم والورق فاكتفيت بالإشارة أسأل الله بلسان التضرع والخشوع وخطاب التذلل والخضوع

أن يرينا وجهكم عن قريب بجاه الحبيب لا زلتم في صحة وعافية ونعمة من الله الكريم وافية ولا برحتم بعز وجاه والسلام عليكم ورحمة الله .

وفي هذا القدر من خطابات هذا الأديب الحسيب النسيب كفاية نظر الله إلينا وإليه بعين العناية .

ولقد وردت إلينا قصيدة رائية تعارض قصيدة أبي الحسن الكستي للأديب الماهر والشاعر الناثر سلالة الأكابر الأمجاد وخلاصة الأكارم الأجواد حضرة السيد عبد الرحيم الطهطاوي نجل الأستاذ العلامة الشيخ محمد عبد الرحيم أخي الشيخ أحمد عبد الرحيم العالم الشهير والعلم المفرد الخطير علامة عصره وأديب مصره محرر الوقائع المصرية سابقاً عليه من الله سحائب الرحمة والرضوان وأسكنه في أعلى فراديس الجنان وهذه القصيدة المشار إليها بالتمام رافلة في حلة البها والانسجام :

ألا يا بني عبد الجواد ولا فخر ... سكنتم بلاداً حلها العز والفخر
تباهت بلاد الشام وافتخرت بكم ... وصيتكم صارت به الأنجم الزهر
حرمتم بــلاداً من جليل مـــآثر ... كعقد جمان يستزين به النحر
واعمرتمو بـــيروت بالعلم والتقى ... فلا حرمت من طيب أنفاسكم مصر
سقى الله أرضاً قد حوت نعل سادة ... سحائب لم يقرن بإهمائها خسر
وجازى أناساً قد تفاحل أمرهم ... بهون عذاب دونه الشرر الحمر
أهانوا بني الدنيا لتشييد ملكهم ... وما علموا أن الإله له الأمر
يعز رجـــالاً كيف شاء بحكمة ... ويخفض أقواماً وما عنده غدر
أهـــانهمو من لا مـــرد لحكمه ... وليس لهم برّ يقيهم ولا بحر
فقد سلكوا في خطة الجور مسلكاً ... تسابق في ميدانه الغيّ والكبر
وساءوا ظنونـــاً بالكرام وأوقدوا ... لظى النفي في شام له الحمد والشكر
فحكمهمو ضر وعـــدلهمو أذى ... وخيرهم شرّ فـــلا حبذا الخير
وحلمهمو حمق وسؤلانهـــم عمى ... وعلمهم جهـــل ترأسه الغمر

يدارجهم حلماً ويسقيهم الردى … ويمنحهم ذلاً يضيق به الصدر

ويمهلهم عدلاً ويأخذهم على … بما عملوا فينا وليس لنا وزر

أولو العزم قاسوا في الشدائد كربة … وساروا قفاراً دونها السبل الوعر

مراتبهم قد خلدت في صحائف … فدونكها عداً إذا أمكن الحصر

ولا عجب إذ كان هذا لسادة … ترقوا بما لاقوا وصار لهم ذكر

فصبراً سراة الحيّ ثمّ تصبراً … فإن اصطبار المرء يعقبه الجبر

وذلك مقسوم بقسمة عادل … فلا تجزعوا إن الزمان له مكر

فمجدكم باق مدى الدهر لم يزل … وفضلكم قرت له البيض والسمر

فعلم ولا جهل وسعد ولا شقا … ونفع ولا ضر وخير ولا شرّ

وأنتم هداة الناس في كل مرتع … وأنتم عماد الدين لفظكم السحر

وشمس علاكم في السماء منيرة … وعقد حلاكم لا يضارعه الدر

أئمة خلق الله بغية طالب … بكم سعد الأهلون وابتهج العصر

أفضتم سجال البذل في كف مجتد … ولم يثنكم عما يزينكم الفقر

فمن رام عزّاً والتجا بجنابكم … يعز فلا زيد يرام ولا عمرو

وما شهرة الطائي بحاتم وقته … لشهرتكم الا كمن مسه الضر

شربتم لبان الجود في زمن الصبا … وسارت بها الركبان والقشع العسر

ولا عيب فيكم غير أن رحابكم … محط رحال المعوزين ولا نكر

ركبتم مطايا العز في طلب العلا … وخضتم بحار المجد يقدمكم نصر

لكم همم عن حصرها كلت الورى … وعن كتبها الأقلام أوقفها الحبر

مآثر لا تخفى على كل ذي بصيرة … وهل تنكر الشمس المضيئة والبدر

ورثتم فخاراً عن أبيكم وجدكم … وحزتم وقاراً لا يبدده الدهر

وكل كمال صاغه شرح حالكم … جدير بأن يصغي لإدراكه الفكر

وتلك خصال لا تفي بمقامكم … وإن بالغ المداح فهو لكم نزر

وعيّ لساني عاق عنكم رسائلي … وحسن جناني كان فيه لكم أجر

وهذي عروس في ثياب بهسائها تزف إليكم والقبول هو المهر
سلام بـــه عبد الرحيم يخصكم وأبهج تسليم يضوع لـــه عطر

ولقد سبق منا التنويه بذكر من شطر هذه القصيدة من الأدباء المصريين ومنهم حضرة محمد أفندي رشوان وحضرة الشيخ عبد اللطيف حمد المسعودي .

وهذه جملة مكاتبات وردت إلينا ونحن ببيروت من محروسة دمشق لحضرة الأديب المجيد صاحب الطالع السعيد والخلق الحميد أخينا الشيخ عبد المجيد الخاني المتقدم ذكره في هذه الرحلة أعطاه الله من الخيرات أعظم نحلة وهذه صورتها مرقومة بصفتها المرسومة :

الحمد لله وحده

مغبة أداء وظيفة الدعاء بأن يحفظ سروركم ويلحظ بالسعادة أموركم فقد وصلت ببركتكم إلى دمشق على أجنحة السلامة والكرامة ومن فرط فضله سبحانه أحلني دار المقامة فتواردت لتهنئة الداعي بالقدوم الأهل والأجانب وأقبلت الأحباب من كل جانب فلم أرَ فرصة لتحرير الإفادة عن وصولي وإن كانت هذه الفرصة هي غاية مأمولي ولكن ما كل ما يتمنى المرء يدركه وقد حيل بين العبد وبين ما يملكه حتى جسرت على ترقيم هذا الرقيم رغبة بالسؤال عن رفاهة مزاجكم المستقيم ورعاية لصحبة قويمة ومحبة صادقة قديمة وتحصيلاً لادعية مستجابة خصوصاً أوقات الإجابة راجياً غض النظر عن قصوري بعدم وداعكم وقلة قيامي بحقوق ودادكم وقلة لياقة هذا الجواب المستعجل بمقامكم المحترم المبجل وفضلكم المصان بحوله عز وجل وكيف لي بذلك وقد أتاكم الله من العلم أرجحه ومن الرأي أنجحه ومن القول أفصحه ومن العمل أنصحه وأتاني من القصور أكثره ومن العلم أقله وهذه علة وقفي عن سرعة الخطاب وأعظم بها من علة ومني تبليغ التحية الوفية الطيبة والأشواق

الوافرة الصيبة لحضرة العلاّمة الفاضل الشيخ محمد أفندي عبده والفاضل الألمعي السيد إبراهيم . ولا بأس بإهداء ذلك إلى سيدي الهمام الشيخ أحمد أفندي القباني وأخص بمثل ذلك إن شئتم عزتلو عبد القادر أفندي الأفخم . وما أجدر مولاي المحترم فخر الأكابر الحاج محيي الدين أفندي حماده . وناهيكم بمولاي السيد الحاج أبو تراب . ومن حواه المقام من الأحباب والأصحاب والله يحفظ وجودكم ويؤيد بالملائكة سعودكم والسلام عليكم ٢٦ جماد أول سنة ١٣٠٠ .

وله أيضاً هذا الجواب :

الحمد لله وحده

المعروض . بعد أداء الدعاء المفروض . وإهداء التحية الطيبة . والأشواق الصيبة . إني تلقيت بيمين اليمن والتعظيم . عقود لآلي ذلك التحرير النظيم (وما يلقاها إلاّ الذين صبروا وما يلقاها إلاّ ذو حظ عظيم) . فإذا هو رقيم نضير عديم النظير . أدهشني بحصافته وفصاحته . يعجب السامع من وصفي له ووراء العجز ما لم أصف . وسرني إذ بشرني بقبول تحيتي . وحفظ رابطة مودتي ومحسوبيتي (شعر)

روى نسيم الصبا عن مصر لي أثرا عن خير من نظم العرفان أو نثرا
إن الرقيم له عين الرضا نظرت فيا رعى الله تلك العين والأثرا

وحفظ الله تلك السجية السنية . والأخلاق المحمدية الأحمدية . كيف قابلت الخزف بالدر . وعاملت الرقيق بأرق أخلاق السحر . ولقد ساءني خبر انحراف مزاج سيدي صاحب المقام الجوادي المحمدي . ثم زال عني لبشرى برئه مما أوجده . لاسيما عند مجيء الشيخ حسين أفندي وبادرت بتقديم هذا الرقيم وإنما تأخر لكون بصري كان كليلاً قليلاً . ولأجل قلبك لا أقول عليلاً . مستجلباً بذلك خواطر سادتي ومواصلة مراسلاتهم . ومستمطراً أنواء أنوار توجهاتهم في خلواتهم وجلواتهم . لا زال مقامهم موفقه غير موقفه

سكناته وحركاته . والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، ٢٦ رجب سنة ١٣٠٠

وهذا جوابه عن اللغز المتقدم لأخي الشيخ أحمد :

ألا لبيك قد برح الخفاء — وحق على مودتي الوفاء
لقد ألقى الحبيب علي لغزاً — به آيات لطف واعتناء
به الفات حسن ثم لام — وقاف ثمّ ياء ثم تاء
مسماه لقد أسمى شريفاً — بأهل حماه تحسده السماء
فكم ألفى التأمل فيه ذهني — ولام الفم إذ صعب اللقاء
وكم قاف القريحة قد تداعى — وإن فاق الجميع له علاء
أنادي يا رعى الله يراعا — يواصل ما نأى منه انبراء
جرى سبقاً إلى الغايات حتى — حوى من كل شيء ما يشاء
فهذا ما أجاب به محب — عن القايات دام بها البهاء
دعاني الامتثال له وإلاّ — فلي عن صنعة الشعر انتهاء

وله أيضاً هذا الجواب :

الحمد لله وحده

تشرفت التحرير المنير الشعر بتفضيل السادة الكرام على عبدهم بدوام التنزل بالاستفسار عن أحواله والالتفات إليه بوجه العناية والشفقة فإن له من الاشتياق لمطالعة حديثهم الشريف ما لو تدارك إقبالهم بالمرحمة لأصبح هشيماً تذروه الرياح ولا يقدر قدر خلوص العبيد إلاّ السادة الاماجد خلاصة العلماء الأكابر وورثة المعارف والمعالي كابراً عن كابر فلا أحصي ثناء على فضلهم العميم ولا أنهض بوفاء حقوق ولائهم القديم وقد بلغت من السرور بورود الرقيم الكريم ما الله به عليم وافتخرت ببركته على الأقران وساءني والله العظيم ما حل بمن في الأوطان جعل الله بقاءكم الشريف خير خلف لهم وجعل ذلك آخر المصائب ووقاكم ومن يلوذ بجنابكم من النوائب وعوض الله الجميع خيراً كثيراً ولا ريب بأن لهم من الله فضلاً كبيراً وقد أحياني شريف تكرمكم

بالاعتذار وغادرني رهين الخجل فإن المخلص لا يجسر على المعاتبة على عدم التعطف بالمجاوبة إلاّ كما يعلم السادة من فرط إخلاصه وحفظ رابطة مودته ورقيقة اختصاصه وكان قدوم الأمر السامي صحبة الصادق الحتاوي ولقد فصل ما أجمله وبلغ سلاماً ما أجمله واطلعت أخاكم الوالد على تحياتكم السنية فابتهج كثيراً ونسأل الله تبليغكم تمام الأمنية وأمرني أن أحرر مزيد مسرته وأكيد مودته والتماس الأدعية الخيرية من السادة الجوادية وأما دهشة إبراهيم أفندي الأفخم من عدم شرفي بذلك القطر المقدس بوجودكم الأكرم فالعبد من ذلك أدهش ومني تبليغ الأشواق لسادتي الفخام الشيخ محمد أفندي عبده وسيدي إبراهيم أفندي وأحمد أفندي الأفخم رشوان زاده ومن يتفضل بالسؤال عن العبد الفاني في ١٦ صفر سنة ١٣٠١ .

وله أيضاً :

الحمد لله وحده

غب الوقوف موقف الاستفسار عن حال السادة الأبرار وبث صحيح الأشواق لمشاهدة تلك الأنوار وإظهار ما انضم عليه صميم الفؤاد من خالص الوفا وصادق الوداد ورفع أيدي الابتهال إليه تعالى أن يمن على المخلص بمساعدة لقائه لتلك الحضرة النضرة والتفضل عليه بدوام أدعيتهم الخيرية وانظارهم الجوادية والقيام بواجب حقوقهم السالفة ومحبتهم الأبوية ولطالما أخذت القلم بيد عجزي فلم أجد لي قدرة على فتح باب الكتابة حذر عدم أداء اعتذار يجدي قبولاً سيما وقد تراكمت الحقوق وتعاظمت أسباب العقوق ولكن جرأني على تقديم هذا الرقيم الرميم محض صفو عفوهم المأثور ووافر صفحهم المأثور والأمل من مزيد إحسانهم أن يتفضلوا بالالتفات لقراءة حروفه وغض النظر عن جراءة أبداها وقصورات ما تعداها والرجاء كل الرجاء أن يدخلوني في حيز أحبابهم الذين لا يغيرهم الزمان ولا يكدر صفوهم تلون الحدثان

والقلوب أعظم شاهد وأزكاه والله أعلم بما الكل أخفاه ولقد بلغني ما حصل من الإكرام لابن عمي من السادة الجادة والاعتناء به بما جعله رق محبتهم وأثير أدعيتهم الخيرية ولا عجب فالفضل من أهله لا يستغرب واسترحم كل الاسترحام تبليغ تحيتي لسادتي الشيخ محمد أفندي عبده وسيدي أحمد بك المنشاوي وسيد أحمد أفندي رشوان وسيدي إبراهيم أفندي اللقاني وسيدي أبو تراب ومن يلوذ برحاب الجناب ومن طرفنا سيدي الوالد وشيخنا الشيخ الطنطاوي يبلغونكم مزيد الأشواق ولائق التحية والسلام ٨ ج ١ سنة١٣٠١ .

وله أيضاً :

الحمد لله وحده

المقام الذي أجله لا زال مرفوع المنار فضله مقام حضرة السادة القادة والأفاضل الجادة سيدي الشيخ محمد أفندي وسيدي الشيخ أحمد أفندي الأكارم أسبغ الله عليهما حلل إنعامه الدائم .

وبعد تقديم التحية الكافية بالجناب الكافلة لأداء حق الاحترام للرحاب فقد تلقيت من مولاي أحمد أفندي رشوان التفضل منهم بالتحية والالتفات والاعتناء على العادة بمخلصهم ولا غرو فهي عادات السادات وامتناناً بذلك وافتخاراً قدمت هذه العجالة إليهم ابتداراً إرادة عدم خروجي من دائرة توجهاتهم القلبية وتحصيل بركة أدعيتهم المجابة الخيرية والعبد يعلم أنهم لا يألون تفضلاً عليه بما التمس منهم فإن من صدر من الخير له لا عجب أن يكون ببركتهم إن لم يكن صادراً عنهم والله يحفظ مزيد مسرتهم ويلحظ ما لدوام مسرة أسرتهم ومن هذا الجانب سيدي الوالد يهديهم أزكى التحية والسلام

في سلخ محرم الحرام سنة ١٣٠٢

وله أيضاً :

الحمد لله وحده

سلام على سادات مصر الذين همُ أعادوا إلى بيروت طيب حياتها
لأن كانت اشتاقت إليهم بلادهم فقد آن من بيروت آن مماتها

المباركة بالعيد السعيد من واجبات السادة على العبيد أعاده الله على سادتي بالعز الأوفر الأوفى مشمولين بمطارف الإقبال محصونين بحصن الإجلال الأوفر الأوفى ومما زاد الداعي لتحرير هذه السطور ما زاد الداعي سروراً على سرور من تكرم سادته عليه بالتحية مع كل قادم من تلك الحضرة الجوادية وأجل التحية وأجملها إذا عظم مرسلها ومؤديها إن الهدايا على قدر مهديها وإلاّ فليس للحقير ذي التقصير اعتبار بهذا المقدار غير أن عواطف القبول ونفحات المحبة طالما أهلت أهل الخمول لتذكارهم في أفكار الأحبة والرجاء أن يكون المخلص ممن ارتسم اسمه في لوح الخاطر العاطر على الدوام وجعل منظوراً إليه بعين قيس وليس فوق ذلك مرام استغفر الله بل استجلاب مجاب أدعيتهم في خلواتهم وجلواتهم لا أعظم منها ولا غنى لأحد عنها وبقي مواصلة المراسلة فإنها مفوضة لمكارم أخلاقهم الكاملة ونعمة تفضلات رحمتهم الشاملة ولقد عظم والله بالمحب الاشتياق لمساعدة مشاهدة تلك الأنوار أو مطالعة مراجعة أخبار آثار سادة الآفاق فاتخذ هذا الرقيم وسيلة جميلة للحصول على ذلك الفوز العظيم وإرادة تبليغ بليغ سلامه إلى حضرة إمام الزمان وعلاّمه الشيخ محمد عبده دام عزه وسعده وبديع البيان والمعاني عبد القادر أفندي القباني والمرجو كل الرجا إيصال مثل ذلك لمحمود أفندي ومحمد علي أفندي الخنجي ومن حواه المقام الكريم لا زال كامل العز والتكريم آمين . ٣ شوال سنة ١٣٠٢

وحضرة العالم العلاّمة والأستاذ الفاضل الفهامة طيب الأصول والأعراق وكامل الشيم الكريمة والأخلاق مولانا الشيخ عبد الرزاق المشهور بالبيطار بلغه الله جميع المقاصد والأوطار بجاه النبي المختار وآله وصحبه الأخيار آمين .

جملة مراسلات وتحارير هي في الأدب عديمة النظير وهذه طرفة من طرفها وتحفة من تحفها فاستمع لما يتلى :

(بسم الله الرحمن الرحيم)

غب إهداء تحيات ليس لها غير القبول إرادة وتسليمات لا ترى غير عرضها على فضلكم من موجبات السعادة وأشواق هيهات أن يحكيها لسان القلم ودعوات قد رفعت بها أكف الضراعة في الدياجي والظلم أنهي بأن هذا المشتاق لم يزل إلى الآن في وجد لا يطاق فلم يرَ غير خيالكم جليساً ولا غير ذكركم أنيساً يعجبه الثناء عليكم بكل جميل ويعتقد أن ملاطفه بمدحكم هو المحب الخليل خصوصاً وقد كنتم سبباً لمعرفتنا بسادات عظام وقادة من ذوي الرقة والاحترام قد علا في الناس قدرهم وحلا لهم بكل جميل ذكرهم فمن أين لي أن أكافئك على جميل طوقت به عنقي طوق المنة وجعلت به نفسي راضية مطمئنة فجزاك الله الجزاء الوافي الوافر وجعل لك في الدارين المقام الزاهي الزاهر وعطف قلبهم على مشغوف بهم معنى وأعطاه بهم كل ما يروم ويتمنى لأني أخال أن قلبهم علي قد اعتراه بعض كدر حيث في هذه المدة لم أقف منهم ولا من غيرهم على خبر ولم أدر لي من ذنب سلف غير حب وغرام وشغف وإن كانت ذنوبي كثيرة وهي من مثلي حقيقة وجديرة ثم هب أنهم منعتهم مهمات الشواغل كان ينبغي لك أن تعرفني عنهم في ابتداء الرسائل لأنه صار عندي أفكار من عدم الأخبار هذا وإن مكتوبكم قد حزنا منه على الوصول وحظينا من لطفه على كل مأمول خصوصاً وقد وجدنا فيه ما يشير لنا بالبشارة وإن قد كاد أن يترك في الحضور اعتذاره وكان من أعظم هذه البشارة ما حصل من حضرة الشهم الأكمل والهمام الأمثل حسن أفندي الحلبوني مما حقق به عندنا حسن سيرته وجميل شمائله وصفاء سريرته مما فعله من المعاملة مع من لا يضيع عنده عمل ويجازي عبده فوق المرغوب والأمل جزاه الله خيراً وأعطاه فوق ما يتمناه ومني أكمل سلام عليه وإني وحق الود مشتاق

إليه ولا أزال أدعو له في المساء والصباح بالفوز والفلاح والنجاح وعرفتمونا بأن مرادكم الحضور في أثناء رمضان فما نعد هذا الأمر إلاّ من المنحة والإحسان يسر الله ذلك على أحسن حال بجاه محمد والآل وقد وصلنا من حضرة الشهم الفاضل والعالم العامل الكامل الشيخ محمد أفندي عبده كتاب لائق بمقامه الشريف وقدره السامي المنيف وسنجاوبه إن شاء الله في أول رمضان بكتاب مشتمل على التبريك بهذا الشهر العظيم الشان ونهنيكم به ولا زلتم كل عام وأنتم بسرور ونعمة وحبور وسيمر عليكم إن شاء الله مثله أمثال وأنتم بالصحة والسلامة مع الأولاد والعيال ويسلم على جنابكم الشيخ إسماعيل أفندي وقد دعوناه إلينا يوم وصول الجواب وتلونا عليه الكتاب من أوله إلى آخره واستغرب فهمه حين وصلنا إلى أمر الختان وما يتعلق به من التأديب في الصغر عوضاً عن الكبر فكانت جلستنا جلسة سرور وصار في غاية الممنونية من طرفكم واعترف بقصوره غايته انه أبدى أعذاراً أكثرها المراد منها استجلاب خاطركم ثم انكم عرفتمونا بأنكم صبيحة تاريخ اجتماعنا في محلكم المعمور ليلة السفر قد اجتمعتم بحنا وأخبرتمونا انه حصل ما يوجب البشارة وانكم ستخبرونا ثم ما فهمنا مقصودكم بذلك فلعل أن نقف بعده على المقصود ومني السلام على كامل المحبين وكل الأحباب يهدونكم أزكى التحية ودمتم في ٢٥ شعبان سنة ١٣٠٢ .

عبد الرازق البيطار

ولحضرته أيضاً :

لمقام معالي جناب حضرة السادة الأفاضل والقادة العلماء الأعلام الأماثل سادتي الشيخ محمد أفندي والشيخ أحمد أفندي عبد الجواد . دام بقاهم آمين .

(بسم الله الرحمن الرحيم)

إن أفضل ما تفوه به لسان وأكمل ما صدق به لب وجنان حمد واجب الوجود والصلاة والسلام على أكرم مبعوث وأشرف موجود وعلى آله وأصحابه

وتابعيه وأحبابه وإن أبهى ما تضمنته قلوب الدفاتر وأزهى ما رمقته العيون والنواظر وأطرب ما شدت به سواجع الأقلام وأعذب ما قيدت شوارده سلاسل الأرقام وأسمى ما تجلت به بدور المعاني في دياجي الحروف على منصة المباني وأعلى ما تراسلت به ذوو المودة والأشواق وأحلى ما تواصلت به لدى النوى مهج العشاق سلام يتعلق النسيم بأذياله وثناء تتمايل أغصان القدود عند احتساء المسامع كؤوس جرياله وتحية أبهج من بُرْد الشباب وأعذب من بُرْد الرضاب لائقة بمقام ذوي العلم والعمل والأدب والفضل الشامخ المتحلي بحلية الشرف والنسب شموس سماء الكمال ونجوم الإرشاد المهديات من الضلال من أجمع أهل الفضل على حمد مقامهم وانه في الحقيقة لمحمد واتفق ذوو المجد على كمالهم المحمود وكمالهم في الواقع أحمد وحدث لسان الحال عنهم بالسند الصحيح إن الناقد البصير لو تتبع أحوالهم لم يجد لهم أملح ومليح . فلا عيب فيهم سوى أصل ونسب . وعلم وعمل وأدب . وكرم وجود وبشر وسرور . وكمال وجمال ولطف وحبور :

قوم تقوّم فيهم أوج العــلا ... والدين أصبح آبــد الأركان
قد حالفوا سهرَ العيون وخالفوا ... أمر الهوى في طــاعة الرحمن
أشباح نور في الزمان وجودهم ... روح لهــذا العــالم الجسماني

لا زالت رايات فضلهم خافقة الجناح على هام العلا ولا برح كوكب سعدهم بادي الإشراف على الملا هذا وإن العبد الأسير المشتاق قد خالفه من حين رحلته صبره وحالفه دمعه المهراق ولا برح وجده آخذاً في الزيادة وغرامه يتفاقم عليه فوق العادة ولا ريب بأن قلبهم الشريف أعدل شاهد يخبركم باني في المحبين أول واحد وبعدي عن رفيع مقامكم ليس بموجب للسلوان بحال لأني لم أزل في سفري إليكم على خيول من الفكر والخيال والله يعلم ما في الضمير إنه هو العليم الخبير ثم أنهي بأننا توجهنا صوب الشام نهار الثلاثاء غب الوداع ولا زلنا سائرين إلى أن نزلنا في مكثه على طرف البقاع وفي الصباح

سرنا الهوينا إلى أن دخلنا الشام مع العشاء وكان قد خرج لاستقبالنا جماعة كثيرون حتى جاوزوا الهامة إلى الصحراء فلم يكن بيننا والله مذاكرة سوى ذكر بعض أوصافكم وتلاوة نبذة من بديع الطافكم بيد أني لم أدخل المنزل إلاّ وأنا منحرف المزاج محتاج إلى التداوي والعلاج قد اشتبه عليّ أمر الواردين فلم أدر أهو للسلام على العادة أم القيام بالمندوب من العيادة وكان ذلك هو السبب الحامل على تأخير المكاتبة فلذلك أعرضته لمقامكم الشريف دفعاً للملام والمعاتبة وقد أديت ما أمرتم به من إبلاغ التحية لسعادة محيي الدين باشا وأكثر الأحباب وسأبلغه للباقين إنشاء الله على حسب الإيجاب والمأمول عدم إخراجي من الخاطر الشريف مع الأمر بما يلزم من القيام بالخدمة لمقامكم المنيف وإبلاغ التحية لحضرة النجل المحروس والشبل المأنوس سيدي نور العين عبد العظيم أفندي وحضرة كافة البكوات والذوات المعظمين ومن يلوذ بحضرتكم من الخدم والسقايين ومحاسيبكم راضي أفندي وأولادنا أحمد وسعدي وإسماعيل وخير وعبد القادر وحسين يلثمون الأعتاب والأقدام وينهون أكمل تحية وأتم سلام .

(صورة خطاب)

أرسلناه لحضرة العلاّمة الأديب والفهامة الأريب الشيخ حسين أفندي الجسر الطرابلسي حين أرسل إلينا كتابه الجليل وسفره الجميل الذي ألفه في مناقب والده الإمام الشيخ محمد الجسر رحمه الله رحمة واسعة آمين :

وافى إلينا كتاب	كالروض يزهو بزهر
سفر بـــديع بليغ	تـــأليف أعظم حبر
يا حبـــذا روض علم	في طيه طيب نشر
فصـــار قرة عـــين	وصار نزهـــة فكر
جواهر في سلـــوك	تزري بنظـــم ونثر

ولا غرابـة في ذا ... إذ كان من لجّ بحر
والبحر لا شك يلفي ... فيـه جواهر درّ
يقص نصّ حـديث ... يرويه عن طيب ذكر
فيـه مناقب فضل ... تروي لغلـة صدري
عن سيـد وإمـام ... قد سار سير البدر
فـالتـابعون سنـاه ... مثل النجوم الزهر
قـد جاز غمرة غيّ ... بـالناس حتى البر
فقـادهم بهداه ... لكل خـير وبرّ
وذاك غـير غريب ... فـإنه خـير جسر
أقامـه الله فينـا ... لكل نهـي وأمـر
ومـازه بـالمزايا ... من بين فكر وذكر
وعـم منـه البرايا ... جهراً بـأكمل سر
فكان وارث عهـد ... عن النبي الطهـر
ما خالف الشرع أصلاً ... في كل فرع وأمر
وعنـد ما راح عنا ... وسار لله يسري
أقـام فينـا إماماً ... على الطريقة يجـري
خليفـة وخليقـاً ... بكل خـير وخبر
وصنف الكتب تحكي ... عن الإمـام الحبر
منـاقب واضحات ... في طيهـا كل نشر
فشاد ببيت المعـالي ... ونـال غـاية قدر
أدام ربي عـلاه ... وزاده طول عمـر
بجـاه طـه المرجى ... في هول يوم الحشر
صلاة ربي عليـه ... ما ناح في الروض قمري
وآلـه الطهر جمعاً ... في كل وقت وعصر

وهذه أبيات أُخر تهنئة بالعيد السعيد لحضرة العلاّمة الفاضل الشيخ عبد المجيد الخاني في رد بعض مكاتباته البديعة السالفة الذكر :

بشرى بأوقات الصفا ومواسم العيد السعيد
عيـد يعيـد بنعمة عظمى وإقبال جديد
مع فضل إنعام يرى من كل عام في مزيد
وتحيـة تهـدى إلى خدن الذكا المولى المجيد
نسل الأماجد كابرا عن كابر عبد المجيد
رب المعـارف والنهى العـالم العلم الفريـد
روح البلاغـة والفصا حة منهج الرأي السديد
حلف البراعـة واليرا عة ناظماً بيت القصيد
عذراً فـإني عاجز عن نظمي الدر النضيد
فالمدح يقصر عن معا لي ذلك الخلق الحميد
لا زلت تبلغ في العلا من كل خير ما تريد

وكتبت لحضرة الذكي الأريب والشاب الأديب خلاصة بيت المدور الأفندي نجيب وقد أعارني كتاب (دائرة المعارف) الذي ألفه حضرة بطرس أفندي البستاني الذي اشتهر بالعلوم والمعارف في الطائفة المسيحية وقد رأيناه ونحن في بيروت ومات موت الفجأة وفي السنة الثانية توفي ولده سليم أفندي البستاني وخلفه أخوه نجيب أفندي في إدارة المطبعة ودائرة المعارف المذكورة :

نجيب يرى كسب الفنون فضيلة وتحصيلها نعمة من الله وافره
له همة عليـاء في ذروة العلا تراها على جمع المعارف دائره
فلا زال في حوز المكاتب جاهداً له في اقتناء الكتب أوسع دائره

ولقد سمعت ونحن في تلك الرياض الناضرة والبقاع الزاهرة ما بين جبال القدس والناصرة أحد الظرفاء من الغلمان يرتجي بعض الأمراء الأعيان في أن

ينظمه في سلك خدمه وخاصة غلمانه وحشمه ويقول له بتلطف وتعطف (أنا لا أحول في الخدمة عن مرادك وقصدك فاجعلني يا سيدي خيزرانة في يدك) فكان لهذه المقالة من ذلك الغصن النضير أعظم موقع من قلب هذا الأمير ولا سيما والقائل لها من عشائر عرب البادية ومخايل الملاحة من وجهه الجميل بادية وهو شاب مليح صبيح من قبيلة في تلك الجهة يقال لها (صبيح) فأردت تضمين هذه المقالة في سمت النظام لرشاقتها من فم هذا الغلام فقلت على لسانه :

يا أميري وسيدي ومجيري	دمت ترقى إلى مطالع سعدك
أنا أرجوك أن أكون نديماً	أو خديماً أو عبد عبد لعبدك
فاتخذني كما تشاء تجــدني	طوع يمنى يديك في كل قصدك
لست أعصى على المدى لك أمراً	أنا غصن من خيزرا ن بيدك

وقلت في هذا المعنى أيضاً :

أتيتك سيدي أبغيك عطفــاً	فخذني خادماً لك بالأمانة
مطيعاً أمرك السامي فجد لي	بما أرجوه يا رب الإعانة
تجدني خادماً أو عبد رق	على الأسرار عندك ذا صيانة
تقلبني كمــا تختار دومــاً	فهبني في يمينــك خيزرانة

وكتبت على صورة لي أخذها على غير علم مني حضرة الخواجه جورجي الصابونجي حين ما توجهت إلى محل التصوير عنده لأجل التفرج على كيفيته فرأيت أمراً غريباً وفعلاً عجيباً فسبحان من علم الإنسان ما لم يعلم واطلعه على ما أتقنه وأحكم ثم أني أرسلت بهذه الصورة إلى البلد وعليها هذان البيتان المشار إليها :

لئن شطت عن الأحباب داري	وأبعدني النوى عنهم بجسمي
فهــذا بين أيديهم خيــالي	لفرط الشوق جاء لهم برسمي

ولا تخفى التورية في قولي برسمي فتدبره وقلت بيتين ليكتبا على صورة لأحد الأصحاب وهما :

لما جفا جفني الكرا لفراقه وحرمت رؤيته بطيف خيال
وافى على رغم النوى متمثلاً في الصحو بين يدي بطيف مثال

بحمد الله تعالى قد تم ما أردنا جمعه وكان الفراغ من نقل هذه النسخة من المسودة في شهر ذي القعدة الحرام من سنة١٣١٣ ألف وثلثمائة وثلاث عشرة من الهجرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والسلام فهذه النسخة هي المبيضة ببعض تغيير يسير والحمد لله رب العالمين .

ثبت أسماء الاعلام على حروف هجاء الاسم

ـ م ـ

فهرست اسماء الاماكن
على حروف هجاء الاسم

ـ ت ـ

ـ ث ـ

ـ ج ـ

— ن —

محتويات الكتاب